
روايات مصرية للجيب
٦
سلسلة الأعداد الخاصة
رجل المستحيل
أسير الثلوج
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ - رحلة تدريبية ..

ضمّت (منى توفيق) ياقتى معطفها فى إحكام ، وهى تغادر سيارتها الصغيرة ، فى ساحة مبنى المخابرات العامة المصرية ، وأسرعت الخطا نحو المبنى ، وتحت وابل من الأمطار الغزيرة ، وهى تتمتم .

- ياللهول !.. إنه أسوأ شتاء رأيته ، منذ عدة أعوام .

هزّت رأسها فى قوة ، وهى تضغط زر المصعد ، لتنفض عن شعرها قطرات المطر ، وهى تستطرد مبتسمة :

- ولكنه أفضل بالتأكيد من ذلك الشتاء الذى قضيته بالمستشفى ، فى الاتحاد السوفيتى سابقًا(*) .

سمعت من خلفها صوتًا يقول فى مرح :

- بالطبع .. مازلت أذكر ذلك الشتاء .

التفتت بسرعة إلى مصدر الصوت ، ولم تكد عيناها تقعان على وجه صاحبه ، حتى وجدت نفسها تبتسم ، وهى تهتف فى حرارة :

- صباح الخير يا (قدرى) .. كم يسعدنى أن يكون وجهك هو أوّل ما أراه فى الصباح .

فهقه (قدرى) ضاحكًا ، وهو يقول :

(*) راجع الأجزاء الثلاثة (العين الثالثة) ، (القضبان الجليدية) ، و (لهيب الثلج) ، من سلسلة (رجل المستحيل) ، أرقام (٤٤) ، (٤٥) ، (٤٦) .

ـ يا إلهى !.. ألنا وسيم إلى هذا الحد ؟
شاركته مرحه وضحكه ، واستقلا المصعد معًا ، وهى تقول :
ـ بل أنت أفضل صديق عرفته ، فى حياتى كلها يا(قدرى) .
وضع كفيه على صدره ، وهتف بلهجة مسرحية هزلية :
ـ ربّاه !.. أنا أفضل صديق لجميلة الجميلات .. سيتوقّف قلبى المسكين عن النبض ، من فرط سعادتى .
ضحكت لأسلوبه ، قبل أن يسألها هو فى خبث :
ـ ولكن عجبًا !.. لو أننى أفضل صديق ، فماذا يكون (أدهم صبرى) ؟!
تضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وارتبكت وهى تحاول تغيير دفة الحديث ، قائلة :
ـ لقد شاركتنا تلك المغامرة .. أليس كذلك ؟
لاحظ محاولتها للفرار من مناقشة الأمر ، فابتسم قائلًا :
ـ بالطبع .. هل نسيت بطولاتى حينذاك ؟
وأطلق ضحكة أخرى ، قبل أن يستطرد :
ـ ولكن هذا لم يكن الشتاء القارص الوحيد ، الذى قضاه (أدهم) فى الاتحاد السوفيتى .
قالت بسرعة :
ـ أتقصد تلك المهمة ، التى سافرت فيها معه لأوَّل مرة ، إلى (موسكو) ؟(*) .

(*) راجع قصة (الجليد الدامى) ، من سلسلة (رجل المستحيل) .. المغامرة رقم (٥) .

ابتسم وهو يهزّ رأسه نفيًا ، ويقول :
ـ بل أقصد عملية أخرى ، قبل هذا بكثير .. قبل حتى أن تنضمى إلينا يا (منى) .
هتفت فى فضول :
ـ حقًا ؟!
ضحك وهو يعلم أنه قد أشعل فتيل فضولها ، وقال :
ـ ما رأيك فى تناول قدح من الشاى فى حجرتى ، وأنا أروى لك هذه القصة ؟
هتفت فى حرارة :
ـ هل تسألنى ؟!
لم تمض دقائق ، حتى كانا فى حجرته ، وأشعل هو موقده الصغير ، ووضع فوقه إناء الشاى ، ثم جلس أمامها ، وقال مبتسمًا :
ـ والآن ، ما الذى تريدين معرفته ؟
أجابته بسرعة :
ـ كل شىء بالطبع .. من اللحظة الأولى ، وحتى النهاية .
أطلق ضحكة طويلة ، ارتجّ لها جسده كله ، قبل أن يقول :
ـ يا للنساء !.. حسن ياعزيزتى (منى) .. أعلم أنك لن ترضى بأقل من هذا .. فليكن ياعزيزتى .. سأروى لك كل شىء .
واعتدل متابعًا فى اهتمام :
ـ كان ذلك بعد حرب السادس من أكتوبر ، عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ، بعام أو نحو ذلك ، وكان (أدهم) حديث العهد إلى

حدٍّ مّا بعمل المخابرات ، مما استلزم حصوله على دورة تدريبية ، تبعًا لروتين العمل .

قالت (منى) فى دهشة :

ـ دورة تدريبية ؟!.. وهل كان (أدهم) بحاجة إلى هذا ؟

أجابها فى بساطة :

ـ لن يتم استثناؤه لأى سبب .. الجميع يحصلون على مثل هذه الدورات التدريبية ، عند التحاقهم بالمخابرات العامة .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ـ ولكن (أدهم صبرى) وحده ، يمكنه تحويل دورة تدريبية عادية إلى كارثة .

شحذ هذا القول انتباهها واهتمامها ، فاعتدلت تسأله :

ـ لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

اعتدل فى مجلسه بدوره ، وقال :

ـ سأخبرك بكل شىء .

وبدأ القصة .

* * *

« .. (أدهم صبرى) فى خدمتك ياسيِّدى .. »

رفع مدير المخابرات العامة عينيه ، يتطلَّع إلى (أدهم صبرى) ، ثم وضع القلم الذى يمسك به ، فوق الأوراق التى كان يطالعها ، وقال فى هدوء :

ـ اجلس يا (أدهم) .

ثم تراجع فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يتطلَّع

إليه فى صمت ، بعد أن جلس على المقعد المقابل لمكتبه ، وقال :

ـ هل سبق لك أن سافرت إلى (موسكو) ؟

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. سافرت مرة مع والدى (رحمه الله) ، لتطوير معرفتى باللغة الروسية .

ابتسم مدير المخابرات ، وقال :

ـ لست أقصد هذا ، بل أقصد هل حصلت على دورات تدريبية فى (الاتحاد السوفيتى) ، منذ التحقت بالجيش ؟

ابتسم (أدهم) بدوره ، وهو يقول :

ـ ترى كيف يجيب ملفى عن هذا السؤال يا سيِّدى ؟

مطَّ مدير المخابرات شفتيه ، وكأنما لم يرق له هذا الجواب ، وقال فى صرامة :

ـ فليكن .. مادمت لم تفعل ، فقد حان وقت حصولك على دورة تدريبية هناك .

سأله (أدهم) فى حيرة :

ـ أما تزال لدينا دورات تدريبية فى (الاتحاد السوفيتى) ياسيِّدى ؟!.. كنت أتصوَّر أن هذا الأمر قد انتهى ، منذ طرد الرئيس (أنور السادات) الخبراء السوفيت ، قبيل حرب أكتوبر !

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ هذا صحيح إلى حدٍّ كبير ، والواقع أن الدورة التى ستذهب إليها ليست إحدى الدورات الرسمية ، التى كانت تحدث فى الماضى ، ففى هذه المرة نحن وحدنا سنطلق عليها اسم (دورة تدريبية) ، أما السوفيت ، فهم فى الواقع يجهلون كل شىء عن هذا الأمر .

بدت نظرة تساؤل فى عين (أدهم) ، فتراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وهو يتابع :

- فمن الناحية الرسمية ، ستسافر إلى (موسكو) كأى شخص عادى ، وهناك ستحاول جمع بعض المعلومات ، دون أن تعرّض نفسك للخطر ، ثم تعود إلى هنا بعد أسبوعين .

بدت الدهشة على وجه (أدهم) ، وهو يقول :

- عجبًا !.. أى تدريب هذا ؟

أجابه المدير فى هدوء :

- هذا التدريب أهم مما تتصوّر يا (أدهم) ، فأنت ستعتاد التواجد فى قلب (موسكو) ، وستختبر وسائل جمع المعلومات ، وأساليب التعامل مع رجال الأمن السوفيت ، بكل عنفهم وشكوكهم وبيروقراطيتهم ، وستتحسّن لغتك الروسية .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

- فهمت ، ولكن السفر إلى (موسكو) ، فى نهاية ديسمبر ، ليس بالشىء الطريف .

قال المدير فى حزم :

- هذا أيضًا جزء من تدريباتك ، فمن الضرورى أن تعتاد التعايش مع درجات البرودة المنخفضة .

ثم تطلّع إلى ساعته ، قبل أن يستطرد :

- ستجد جواز سفرك فى مكتب الأمن ، وبه تأشيرة صحيحة لزيارة (الاتحاد السوفيتى) ، وستقلع طائرتك إلى (موسكو) بعد منتصف الليل بنصف الساعة ، وهذا يعنى أن أمامك وقت كافٍ لتحزم حقائبك .

نهض (أدهم) ، وهو يقول :

- حقيبتى معدّة دائمًا .

واتجه لمغادرة الحجرة ، ولكن المدير استوقفه بحزم :

- (أدهم) .

التفت إليه (أدهم) ، فأضاف فى صرامة :

- تذكّر دائمًا أنها مجرّد رحلة تدريبية ، وليست عملية من الدرجة الأولى .. لا نريد أية مخاطر أو تعقيدات .. مفهوم ؟

ابتسم (أدهم) ، وقال :

- سأحاول .. فلنأمل هذا .

قالها وغادر الحجرة ، فانعقد حاجبا مدير المخابرات ، وهو يغمغم فى توتر :

- نعم فلنأمل هذا .

وانطلقت من حلقه زفرة حارة .

★ ★ ★

لم يشعر (أدهم صبرى) فى حياته كلها بالملل والضجر ، مثلما شعر بهما فى الأسبوع الأوّل ، الذى قضاه فى (موسكو) .

كان كل شىء يسير بالنسبة إليه آليًا ، تقليديًا ، رتيبًا ، على نحو كان يصيب حواسه بالخمول ، ويرفع فى عروقه دماء السخط والغضب ...

لقد أقام فى أحد فنادق (موسكو) ، بجواز سفر يحمل اسمه الحقيقى ، مع وظيفة تاجر عاديات ، وقضى أيامه يتجوّل فى العاصمة السوفيتية ، ويجمع المعلومات التى طلبها المدير ، كجزء

من التدريب ، حول نظم الأمن السوفيتية ، والمناطق المحظور الاقتراب منها ، وتوزيع الأنشطة العسكرية ، ويعمل على تحسين لغته الروسية ، واكتساب لهجات جديدة .

كل هذا فى طقس شديد الرداءة ، تبلغ البرودة فيه ثلاثين درجة تحت الصفر ، ونظرات شك من كل المحيطين به ، وعشرات الاستمارات التى ينبغى لكل سائح توقيعها وملء بياناتها .

وفى اليوم الأوّل من الأسبوع الثانى ، كان الملل فى أعماقه قد بلغ ذروته ، وهو يقف فى حجرته بالفندق ، ليراقب كرات الجليد المتساقطة من السماء ، والتى أضافت إلى الطرق طبقة جديدة من الجليد الأبيض ، جعلتها أشبه بحقول قطن ممتدة إلى ما لا نهاية ، وغمغم فى ضيق :

ـ لن أحتمل هذا طويلًا ، وأظننى سأصاب بكل أمراض الحياة المترفة ، لو لم أدفع بعض النشاط والحرارة إلى عروقى .

أطلق زفرة متوترة ، ثم ألقى نظرة بعيدة ، إلى مبنى (الكرملين)(*) ، الذى تبدو أبراجه من بعيد ، ثم التقط معطفه وارتداه ، وغادر حجرته ، وهبط إلى بهو الفندق ، ورفع موظف الاستقبال حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

(*) الكرملين : اسم يطلق على عدد من القلاع القديمة ، فى عدد من المدن الروسية ، ويشير تحديدًا إلى حصن قديم فى (موسكو) ، يتكوّن من عدة مبان ، أعاد السوفيت تجديده ، ليصبح مبناه الرئيسى مقرًا للمجلس السوفيت الأعلى ، ومبانيه الأخرى تتبع جهات أمنية ، أو تحوى مكاتب ومساكن بعض كبار الموظفين .

ـ إلى أين أيها الرفيق (أدهم) ؟

أجابه (أدهم) فى لامبالاة :

ـ سأجوّل قليلًا فى المنطقة .

هتف الرجل فى دهشة عارمة :

ـ تجوّل ؟!.. فى مثل هذا المناخ ؟!

ولكن (أدهم) تجاهله تمامًا ، وغادر الفندق تحت الجليد المنهمر ، فارتفع حاجبا موظف الاستقبال ، حتى كادا يمتزجان بشعر رأسه ، قبل أن يهزّ رأسه مغمغمًا فى دهشة واستنكار :

ـ ياله من رجل غريب !

انعقد حاجبا زميله ، وهو يقول :

ـ بل قل : ياله من رجل مريب !

التفت إليه الأوّل فى قلق ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟

لوح الرجل بكفه مذعورًا ، وهو يقول :

ـ لا .. لست أعنى شيئًا .

وأسرع يبتعد ، وكأنما رأى شبحًا فى عينى زميله ، الذى تمتم لنفسه :

ـ نعم .. إنه رجل مريب .

ثم التقط سماعة الهاتف ، وتلفت حوله فى حذر ، قبل أن يطلب رقمًا خاصًا ، ويهمس فى حذر :

ـ مساء الخير أيها الرفيق (شلينكو) .. إنه أنا (رابينوف) .. لدينا هنا شىء ، رأيت من واجبى أن أبلغكم إياه .

واصل (رابينوف) حديثه مع ذلك المدعو (شلينكو) ، فى حين كان (أدهم) يقطع طرقات (موسكو) شبة الخالية ، فى خطوات سريعة ، تحت الجليد المنهمر ، متجهًا نحو الساحة الواسعة ، أمام مبنى (الكرملين) ، وهناك وقف لحظات يتأمل مقر الحكم السوفيتى ، ثم ابتسم فى سخرية ، وهو يتمتم :

- يا أيها (الكرملين) .. كم من المؤامرات تحاك داخلك !

قالها وتحرك عبر الشارع الواسع ، المجاور للمبنى ، وهو يختلس النظر إلى مبنى آخر ، بدا بأبوابه ونوافذه المغلقة ، التى لايطلّ منها بصيص ضوء واحد ، أشبه ببناء مقفر ، أو بيت للأشباح ، وابتسم هامسًا لنفسه :

- وها هو ذا العقل المدبّر .

كان هذا المبنى هو مبنى المخابرات السوفيتية (كى . جى . بى) ، الحصن الحصين ، والقلعة المنيعة ، لكل أجهزة المخابرات الشرقية الشيوعية(*) .

ولم يكن (أدهم) يدرى بالضبط ، ما الذى جعله يغادر حجرته الدافئة ، ويسعى إلى رؤية مبنى الـ (كى . جى . بى) ، فى مثل هذا الطقس .

(*) الشيوعية : مصطلح يصعب تحديد معناه بصورة قاطعة ، ولكنه فى صميمه نظام اجتماعى ، تكون فيه الملكية للمجتمع بأكمله ، والشيوعية بمعناها المتعارف عليه حاليًا ، ظهرت مع البيان الشيوعى عام ١٨٤٨ م ، ودعت بزعامة (لينين) ، إلى ثورة عاجلة ، للقضاء على النظام الرأسمالى ، وانتصرت مع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، ثم انهارت فى أوائل التسعينات .

ربما هو الملل .

أو الرغبة فى دراسة أرض العدو .

أو كلاهما .

المهم أنه الآن أمام مبنى المخابرات السوفيتية ، و ...

وفجأة ، توقفت أفكاره كلها ، وتسمّرت عيناه على سيارة روسية الصنع ، توقفت أمام مبنى المخابرات ، وهبطت منها فاتنة سوفيتية ، ومعها رجلان ، كان أحدهما هو (تينو فاسيلوف) ، مدير فرع الشرق الأوسط فى الـ (كى . جى . بى) .

أما الآخر ، فكان بالتحديد سبب كل ذلك الاهتمام ، الذى سرى فى عروق (أدهم) .

كان رجلًا قصير القامة ، نحيل الجسد ، أصلع الرأس ، له نظرة ثاقبة ، وأنف أشبه بمنقار الصقر .

وكان (أدهم) يحفظ شكله عن ظهر قلب ، على الرغم من أنه لم يلتق به شخصيًا قط .

إنه (أندريه رابين) .. أخطر رجل فى جهاز المخابرات .

المخابرات الإسرائيلية ..

★ ★ ★



٢ - التحالف ..

أشعل (بوريس شلينكو) ، رجل المخابرات السوفيتى سيجارته ، ذات الرائحة النفّاذة ، ونفث دخانها الكثير فى قوة ، وهو يطالع الأوراق التى أمامه ، قبل أن يتمتم بصوت مسموع ونبرة باردة :

- اسمه (أدهم صبرى) .. مصرى الجنسية ، جاء إلى هنا كسائح .. لابأس .. أريد تقرير المراقبة الخاص به .

أومأ الرجل الواقف أمامه برأسه إيجابًا ، وأخذ يراجع عدة تقارير بسرعة ، ثم التقط من بينها التقرير الذى يحمل اسم وصورة (أدهم) ، وهو يسأل :

- ولكن ما الذى أثار شكوكك بشأنه ، أيها الرفيق (شلينكو) ؟

مطّ (شلينكو) شفتيه ، وهو يقول :

- إننى أشك فى كل من يأتى إلينا فى الشتاء ، أيًا كانت مبرّراته ، فليس من المعتاد أن يلقى أى شخص عاقل بنفسه وسط ثلوجنا ، التى هزمت الجيوش النازية ، وأجبرتها على التراجع ، فى الحرب العالمية الثانية(*) .. نحن وحدنا يمكننا احتمال هذه البرودة

(*) أثناء الحرب العالمية الثانية ، غزت الجيوش النازية (روسيا) ، فى ٢٢ يونيو ١٩٤١ م ، وحققت نجاحًا كبيرًا فى غزوها ، حتى أصبحت على بعد كيلو مترات قليلة من العاصمة (موسكو) ، ثم حل فصل الشتاء ، وانخفضت درجات الحرارة بشدة ، وهنا لم يتحمل الألمان ذلك المناخ ، الذى يعتاده السوفيت ، وهاجمهم هؤلاء فى شراسة ، مما اضطرهم للتراجع ، حتى انهزموا فى (ستالينجراد) عام ١٩٤٣ م ، وكانت بداية نهايتهم .

القارصة يارجل .. ومن حسن الحظ أننا نراقب كل سائح يصل إلينا .. أضف إلى هذا شكوك رجلنا فى الفندق (رابينوف) .

سأله الآخر فى اهتمام :

- وعلام تعتمد شكوك (رابينوف) ؟

رفع (شلينكو) عينيه إليه ، وقال :

- لقد غادر ذلك الرجل الفندق ، وسط عاصفة جليدية ، بحجة التجوُّل فى المكان .

هتف الثانى فى دهشة :

- حقًا ؟!

لم يجب (شلينكو) مباشرة ، وإنما انهمك بضع لحظات فى مراجعة تقرير المراقبة ، وانعقد حاجباه بشدة ، قبل أن ينفث دخان سيجارته مرة أخرى ، ويقول فى اهتمام بالغ :

- عجبًا !.. يبدو أن جولات هذا المصرى مثيرة للشك بحق .

سأله زميله :

- لماذا ؟.. مالذى تجده فى تقريره ؟

أجابه (شلينكو) ، وهو يعتدل فى اهتمام شديد :

- إنه لم يلتزم ببرنامج سياحى محدود ، وإنما كان يتحرّك فى حرية مريبة ، ومعظم جولاته كانت بالقرب من مواقع أمنية أو عسكرية .

انتقل اهتمامه إلى زميله ، وهو يقول :

- وهل التقط بعض الصور ؟

أجابه (شلينكو) بصوت أقرب إلى الزمجرة :

ـ لن يمكنه هذا .

ثم نهض واقفا ، فبدت قامته الفارهة ، وهو يستطرد فى صرامة :

ـ ولكنه يستحق أن نوليه بعض الاهتمام .

قالها ، واتجه نحو باب الحجرة ، فسأله زميله :

ـ ماذا ستفعل ؟

استدار إليه (شلينكو) بوجهه البارد وعينيه الضيقتين ، وقال فى اقتضاب :

ـ المعتاد .

وعلى الرغم من أن زميله هذا ينتمى بدوره إلى الـ (كى . جى . بى) ، إلا أن قشعريرة باردة سرت فى جسده ، وجعلت الدماء ترتجف فى ضلوعه .

هذا لأنه يعرف جيدًا ما تعنيه هذه الكلمة ، المكوّنة من سبعة حروف .

كلمة (المعتاد) .

★ ★ ★

لم تكد عينا (أدهم) تقعان على (أندريه رابين) ، حتى انطلق عقله يعمل بكل قوته وسرعته ؛ لاسترجاع كل مايختزنه من معلومات ، عن هذا الرجل ، وكل ماقرأه أو سمعه (أدهم) عنه ، منذ التحق بالمخابرات العامة المصرية .

اسمه (أندريه مولان رابين) .. واحد من كبار مؤسسى جهاز المخابرات الإسرائيلى (الموساد) ، وكبير خبراء التعامل مع أجهزة

المخابرات الشرقية ، والمسئول الأوّل عن كل العمليات الإسرائيلية ، التى تتم فى الدول العربية .

ولكن ما الذى يعنيه تواجده الرسمى والصريح ، فى مبنى المخابرات السوفيتية ؟!..

توقف (أدهم) لحظات ، ليبحث عن تفسير منطقى لهذا الأمر ، ولم يجد منطقه سوى جواب واحد لهذا السؤال .

ـ هناك نوع من التعاون ، تمّ بين المخابرات السوفيتية والإسرائيلية .

وهذا يطرح سؤالًا ثانيًا ، وثالثًا ، ورابعًا .

ما مدى هذا التعاون ؟

وإلى من يوجَّه ؟

وكيف ؟

لم يعد باستطاعته الوقوف ساكنًا ، بعد ما رآه ، وراحت الدماء تلتهب فى عروقه ، وهو يفكّر فى الأمر ويدرسه ، ويقلّبه فى رأسه عدة مرات .

لا .. لا مجالَ للتردد .

لا بد له أن يسعى للحصول على معلومات فى هذا الشأن .

أية معلومات .

وبأية وسيلة .

لم يكد يبلغ بتفكيره هذه النقطة ، حتى تردّدت ، فى رأسه عبارة مدير المخابرات الأخيرة :

ـ تذكّر دائمًا أنها مجرّد رحلة تدريبية ، وليست عمليةً من الدرجة

الأولى .. لانريد أية مخاطر أو تعقيدات .

ولكنه هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ولماذا لم يخبر المخاطر نفسها بهذا ؟

ثم شدّ قامته ، والتقط نفسًا عميقًا ، ثم اتجه مباشرة نحو بوّابة مبنى المخابرات السوفيتية ، ورأى جندى الحراسة ، يتحفّز فى حذر ، فتقدّم منه ، وقال فى ثبات ، وبلغة روسية سليمة :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

حدّق الجندى فى وجهه بدهشة ، وهو يتساءل فى أعماقه عن ذلك المجنون ، الذى جاء بقدميه إلى هذا الجحيم ، ثم قال فى توتر :

ـ لماذا أيها الرفيق ؟

تلفّت (أدهم) حوله ، متظاهرًا بالقلق ، ثم همس :

ـ لدى معلومات هامة .

بدا الاهتمام على وجه الجندى ، وهو يسأله :

ـ معلومات عن ماذا ؟

اعتدل (أدهم) ، وهو يقول فى حزم :

ـ معلومات بالغة السرية ، لن أبلغها إلا للرفيق ، الذى دخل إلى المبنى الآن .

قال الجندى فى آلية :

ـ الجنرال (فاسيلوف) ؟!

ثم لم يلبث أن شعر بالندم ، لأنه أفشى سرًا حربيًا رهيبًا كهذا ، فعاد إلى توتره ، وقد أضاف إليه الكثير من السخط والغضب ، وهو يقول :

ـ أبلغ ما لديك لدائرة الأمن .. لا يمكننى أن أسمح لك بالدخول .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ فليكن أيها الرفيق .. سأرحل عن هنا ، ولكن تذكّر أنك أنت الذى منعنى من نقل ما لدىّ من معلومات عن الأمريكيين إلى المسئولين هنا .

لم يكد يأتى على ذكر الأمريكيين ، حتى احتقن وجه الجندى ، ورفع فوهة مدفعه الآلى فى حركة حادة نحو (أدهم) ، والتقى حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى حزم :

ـ انتظر .

ثم التقط سمّاعة الهاتف المجاور له ، وقال دون أن يرفع عينيه عن (أدهم) :

ـ صلنى بالرفيق (ليونيد) .

صمت لحظة ، ثم قال :

ـ مساء الخير أيها الرفيق العقيد .. هناك رجل يطلب مقابلة أحد المسئولين هنا ، ويقول: إن لديه معلومات شديدة الأهمية عن الأمريكيين .. لا أيها الرفيق .. لم يذكر شيئًا عن طبيعة هذه المعلومات .. لا .. لا أعتقد أنه أحد مواطنينا .. صحيح أنه يتحدّث الروسية بطلاقة ، ولكن معطف المطر الذى يرتديه يبدو رأسماليًا للغاية .

ابتسم (أدهم) فى سخرية للعبارة الأخيرة ، فعقد الجندى حاجبيه أكثر ، وهو يقول فى صرامة :

ـ نعم أيها الرفيق .. سأرسله إليك على الفور .

وأعاد السمّاعة إلى موضعها ، وهو يستطرد :

ـ انتظر لحظات .. سيحضرون لاصطحابك .
قال (أدهم) فى هدوء :
ـ هل تعلم ؟.. لو انتهى الأمر كما ينبغى ، سأهدى إليك معطفى هذا .
هتف الجندى فى لهفة :
ـ حقًا ؟!
ثم لم يلبث أن تراجع فى سرعة ، وقال فى حدة :
ـ لست أبالى بهذه الكماليات الرأسمالية العفنة .
ابتسم (أدهم) مرة أخرى فى سخرية ، وهو يقول :
ـ حقًا ؟!
لم يكد ينطقها ، حتى ظهر عملاقان سوفيتان عند الباب ، وقال أحدهما وهو يرمق (أدهم) بنظرة نارية :
ـ أهذا هو ؟
أجابه الجندى ، وصوته يحمل شيئًا من الشماتة :
ـ نعم .. إنه هو .
ظلّ (أدهم) هادئًا ، يتطلّع إلى الرجلين بلا اهتمام ، فى حين قال ثانيهما ، وهو يشير إليه فى صرامة :
ـ تقدّم .
دلف (أدهم) فى هدوء إلى مبنى المخابرات السوفيتى ، ولم يكد الجندى يُغلق الباب خلفه ، حتى قال أحد العملاقين فى صوت مخيف :
ـ ارفع يديك عاليًا .
رفع (أدهم) يديه ، وهو يقول فى هدوء :
ـ هل ستقوم بتفتيشى ؟

تجاهل الرجل عبارته ، وراح يفتشه فى سرعة ، ثم قال لزميله :
ـ إنه نظيف .
قال (أدهم) ساخرًا :
ـ بالتأكيد ؛ فأنا استحم يوميًا .
رمقه الرجلان بنظرة صارمة ، دون أن يعلّق أحدهما بحرف واحد ، ثم اصطحباه عبر أروقة المبنى الصامتة الطويلة ، وصعدا به إلى الطابق الثالث ، وهناك طرقا باب حجرة مغلقة ، فارتفع من داخلها صوت يقول :
ـ ادخل أيها الرفيق .
وهنا فتحا الباب ، ودفعا (أدهم) داخل الحجرة ، ثم دخلا خلفه ، وأغلقا الباب خلفهما فى إحكام .
كانت الحجرة دافئة إلى حد كبير ، وبها مكتب واحد ، ومقعد واحد خلفه ، يجلس فوقه رجل مفتول العضلات ، أسود الشعر ، حاد النظرات ، تطلّع إليه بعينين فاحصتين ، فى حين قال أحد العملاقين :
ـ ها هوذا الرجل أيها الرفيق (ليونيد) .. هل نبقى أم نذهب ؟
مطّ (ليونيد) شفتيه ، وقال :
ـ انتظرا ؛ فربما ساعدتما ضيفنا على الإدلاء بكل ما لديه .
كان (أدهم) يدرك مايعنيه (ليونيد) بهذه العبارة ، إلا أنه ظلّ هادئًا ، حتى سأله (ليونيد) فى صرامة :
ـ أأنت سوفيتى ؟
هزّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلا .. أنا أمريكى ، أعمل فى السفارة الأمريكية هنا .

انعقد حاجبا (ليونيد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ تعمل فى السفارة الأمريكية ؟! .. عجبًا ! .. إننى أحفظ أسماء ووجوه العاملين فى السفارة الأمريكية ، من السفير حتى أصغر عامل بسيط ، ولست أذكر قط أننى رأيتك .. ولكنك تتحدث اللغة الروسية بمنتهى الإتقان .. أين تعلمت لغتنا ؟

أجابه (أدهم) فى سخرية :

ـ فى روضة الأطفال .

انعقد حاجبا (ليونيد) فى غضب ، واعتدل قائلًا :

ـ اسمع ياهذا .. إنك إما مجنون أو مغامر ، والأول وحده يمكنه أن يدخل إلى هنا بإرادته ، ثم يجد فى نفسه القدرة على السخرية .. هل تعلم ماالذى يمكننا أن نفعله بك هنا ؟.. كل شىء تقريبًا .. إننا نحن نستطيع أن نقتلك ، ونمزقك إربًا ، ثم نلقى جثتك لكلابنا ، دون أن يشعر بك مخلوق واحد خارج المبنى .

قال (أدهم) متهكمًا :

ـ يا إلهى !.. لقد أرعبتنى .. سأعترف .. سأذكر لك الحقيقة كلها .

قال (ليونيد) فى عصبية :

ـ هذا أفضل لك ، فنحن سنحصل على هذه الحقيقة ، إن عاجلًا أو آجلًا ، وأنت وحدك ستدفع ثمن التأخير .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

ـ التأخير هو آخر شىء أفكر فيه أيها الرفيق (ليونيد) .. إننى على العكس ، أريد إتمام كل شىء بأقصى سرعة .

بدت الحيرة على وجه (ليونيد) ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (أدهم) :

ـ سأخبرك بكل شىء .. الواقع أننى كنت أمرّ من هنا ، وعرفت أن هذا هو مبنى الـ (كى . جى . بى) العظيم ، الذى ترتجف لسماع اسمه قلوب المواطنين المساكين هنا ، وانتابتنى رغبة عارمة فى رؤية مايحدث فى بيت الجحيم هذا ، وسألت نفسى عما يمكن أن أفعله ، لأحقق هذه الرغبة ، ولم أجد أمامى سوى أن أفعل مافعلت .. مارأيك فى هذا الأمر ؟

تفجر الغضب فى ملامح (ليونيد) ، وصرخ فجأة :

ـ لقنوه درسًا يهذبه ، ويعيد إليه عقله .

لم يكد ينطقها ، حتى انقضّ العملاقان على (أدهم) ، و ...

.. وانفتحت أبواب الجحيم .

* * *



٣ ـ قلب الجحيم ..

كان طول كل من العملاقين السوفيتيين يقترب من المترين ، وحجم الواحد منهما يبلغ ضعف حجم (أدهم) على الأقل ، مما جعل انقضاضتهما عليه أشبه بهجوم فيلين شرسين على فهد رشيق .

ولكن هذا الفهد لم يكن فهدًا عاديًا .

لقد كان (أدهم) .

(أدهم صبرى) .

وفى نفس اللحظة التى انقضَّ فيها العملاقان ، وثب (أدهم) جانبًا ، ودار حول نفسه فى رشاقة ، وهو يقول ساخرًا .

ـ رائع أيها الخرتيتان .. هذا ما كنت أنشده بالضبط .

وهوت قبضته كمطرقة من الصلب ، على مؤخرة عنق أحدهما ، فدفعه إلى الأمام ، ليرتطم بمكتب (ليونيد) ، ويندفع به نحو (ليونيد) نفسه ، ثم يسقط الاثنان أرضًا ، وفى نفس اللحظة انحنى (أدهم) ليتفادى لكمة من العملاق الثانى ، وعاد يقفز إلى أعلى ، ويركل أنفه ركلة كالقنبلة .

وتراجع العملاق الثانى ، فى حين هبَّ الأوَّل واقفاً ، وصاح بهما (ليونيد) فى غضب ، وهو يحاول النهوض بدوره :

ـ اقتلاه .. لا أريده على قيد الحياة .

ولكن (أدهم) دار حول نفسه دورة مدهشة ، وركل العملاق

الأوَّل فى أنفه ، ثم لكمه فى أسنانه وصدره وعنقه .

وانقضَّ العملاق الثانى على (أدهم) من الخلف ، وهو يهتف :

ـ أمسكت به أيها الرفيق (ليونيد) .

كان يتصوَّر هذا ، ولكنه وجد نفسه فجأة يطبق على الهواء بذراعيه ، ثم سمع صوت (أدهم) الساخر يقول :

ـ استمع إليه أيها الرفيق (ليونيد) .

وهوت على فك العملاق صاعقة هائلة ، ألقته فاقد الوعى إلى جوار رفيقه ، و (أدهم) يتابع متهكمًا :

ـ فهى عبارته الأخيرة .

اتسعت عينا (ليونيد) فى ذهول ، عندما رأى عملاقيه وقد تكوَّما أرضًا ، ككومة من الخرق البالية ، وهتف :

ـ مستحيل !!

ثم اندفع محاولًا التقاط مسدسه من درج مكتبه ، ولكن (أدهم) عبر المكتب بقفزة واسعة ، ودفعه فى صدره بقوة ألصقته بالحائط ، ثم اختطف المسدس من درج المكتب ، وألصق فوهته بأسفل ذقن (ليونيد) ، وهو يقول ساخرًا :

ـ مارأيك ياعزيزى الرفيق (ليونيد) ؟.. هل كان الأسلوب الذى اتبعته ، لدخول مبنى المخابرات السوفيتية مبتكرًا وفعَّالًا ؟

قال (ليونيد) فى عصبية :

ـ أنت مجنون .

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ بالتأكيد .. لم يكن هناك أسلوب آخر ، يوصلنى إلى ما أبتغى ، سوى القيام بحركة مجنونة ، لايمكن أن يتوقعها أبرع خبراء الأمن لديكم .

قال (ليونيد) فى انفعال وحدة :

ـ الدخول إلى هنا ليس نهاية المطاف يارجل ، فالخروج أكثر صعوبة من الدخول .. ألا تعلم مايردده السوفيت عن هذا المبنى ؟.. إنهم يقولون : إن الأحياء والعقلاء لايمكن أن يغادروا مبنى (كى . جى . بى) .. أتعرف لماذا ؟.. لأن الذى يغادر المبنى إما ميت أو مجنون .. لا أحد يغادر هذا المبنى حيًا وسليمًا معافى ، على الرغم منا .

رفع (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول فى سخرية :

ـ يا للمصادفة !.. إننى أحمل بالفعل هذا الاسم .

قال (ليونيد) فى توتر :

ـ أى اسم ؟

جذب (أدهم) إبرة مسدسه ، وهو يقول :

ـ اسم (لا أحد) .

هتف (ليونيد) منزعجًا :

ـ ماذا ستفعل ؟.. هل تقتلنى ؟

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ هذا يتوقف على تعاونك .

بدا الاضطراب على وجه (ليونيد) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل تتوقع الحصول على أية معلومات منى ؟

سأله (أدهم) فى حزم :

ـ أين مكتب الجنرال (فاسيلوف) ؟

بدت الدهشة فى عينى (ليونيد) ، وهو يقول :

ـ مكتب (فاسليوف) ؟!.. هل فعلت كل هذا ، لتعرف أين مكتب (فاسليوف) ؟

كرر (أدهم) سؤاله ، وهو يضغط فوهة المسدس أكثر :

ـ أين مكتبه ؟

شعر (ليونيد) بالألم ، وبدا له الموت أقرب إليه من حبل الوريد ، فقال فى سرعة :

ـ فى الطابق الثانى .. ثالث مكتب إلى اليمين .. إنه .. إنه أسفل الحجرة التى تجاورنا مباشرة .

سأله (أدهم) :

ـ وماذا عن الحجرة التى تقع أسفلنا تمامًا ؟

أجابه فى عصبية :

ـ إنها مخزن الملفات الخاص به .. مجرد ملفات قديمة ، يهمه الحفاظ عليها ، ولكن كل الملفات الهامة فى مكتبه .. إنه لا يفتح الباب الذى يصل مابين الحجرتين تقريبًا ، إلا فى أثناء الجرد السنوى .

ثم اعتدل فجأة ، وتطلع إلى نقطة ما خلف (أدهم) ، هاتفًا :

ـ اضربه يا (يورى) .. اقتله .

ومع هتافه ، انتبه (أدهم) إلى الشخص الذى ينقض عليه من الخلف ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

لقد أحاطت ذراعا أحد العملاقين بصدره ، وراحتا تعتصرانه فى قوة ..

وقاومه (أدهم) ، ولكن الذراعين كانتا ككلابتين من الصلب ، تقيدان حركته تمامًا ، فى حين اختطف (ليونيد) مسدسًا آخر من مكتبه ، وهتف وهو يرفع فوهته نحو (أدهم) :

ـ اقتله .. اقتله .

وأصبح من الواضح أن حياة (أدهم) تتعرَّض للخطر .. الخطر الداهم .

★ ★ ★

ازدرد موظف الاستقبال (رابينوف) لعابه فى صعوبة ، وهو يتطلَّع فى قلق إلى حجرة (أدهم) بالفندق ، التى قلبها (شلينكو) رأسًا على عقب ، وغمغم مرتبكًا :

ـ أعتقد أنه من العسير أن نعيد الحجرة إلى ما كانت عليه ، أيها الرفيق (شلينكو) .

تطلَّع إليه (شلينكو) بنظرة باردة ، وهو يقول :

ـ وماذا نفعل أيها الرفيق ؟!.. هذا حقنا ، الذى يكفله القانون .. راودنا الشك بشأن أجنبى ، فعمدنا إلى تفتيش حجرته .. من يمكنه أن يلومنا على هذا ؟.. إنه واجبنا .

تمتم (رابينوف) فى خفوت شديد ، كأنما يخشى أن يسمعه (شلينكو) :

ـ ولكننى لم أبلغ الرفيق المدير .

قال (شلينكو) فى برود صارم :

ـ هذا لا يهم .

حاول (رابينوف) أن يخبره أن المدير سيشعر حتمًا بالغضب ، عندما يعلم مافعله هو ، ثم أنه سيكشف أمر عمله لحساب جهاز المخابرات ، وسيخفى عنه أسراره فيما بعد ، إلا أنه لم يجرؤ على التفوه بحرف واحد ..

كان يشعر دائمًا بالخوف والرهبة ، كلما وقف أمام (بوريس شلينكو) ، بقامته الفارهة ، ومنكبيه العريضين ، ووجهه البارد الصارم ، وعينيه الضيقتين ، اللتين تخفيهما رموش شقراء طويلة ، تكاد تنافس شعره الأشقر القصير ..

وفى لا مبالاة ، تجاهله (شلينكو) تمامًا ، وهو يسأل أحد رجاله :

ـ هل عثرتم على شىء ؟

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ كلَّا .. كل شىء يبدو بسيطًا وعاديًّا ، ومقتنياته لا تختلف عن مقتنيات أى سائح عادى .. قليل من الثياب ، وفرشاة أسنان ، وأدوات حلاقة .

انعقد حاجبا (شلينكو) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ربما تحوى هذه الأشياء أسلحة سرية ، أو ...

قاطعه رنين الهاتف المجاور للفراش ، فالتقط سمَّاعته فى آلية ، وقال :

- هنا (شلينكو) .

وصمت لحظات ، يستمع إلى محدّثه ، قبل أن يغمغم :

- عجبًا !.. كلا .. لا تتوقّف عن المراقبة .. انتظره حتى يخرج ، وواصل مراقبته .

ثم أعاد السمّاعة وهو يقول فى شرود ، وكأنه يتحدّث إلى نفسه :

- لماذا يذهب إلى مينانا ؟

سأله (رابينوف) فى حيرة :

- ماذا ؟

استعاد (شلينكو) صرامته وبروده ، وهو يقول :

- ليس هذا من شأنك .

ثم استدار إلى أحد رجاله ، وقال فى حزم :

- صادروا كل هذه المقتنيات ، واطلبوا من رجال المعامل لدينا فحص كل جزء منها بمنتهى الدقة ، وبالذات أدوات الحلاقة ، وليتم التحفّظ على الحجرة ، واترك رجلين مسلحين لحراستها ، وعندما يعود هذا الرجل ، أريده فى مكتبى على الفور .

وبدا على شفتيه شبح ابتسامة ، قبل أن يضيف :

- هذا لو عاد حيًا .

وكان على حق فى استدراكه ؛ فهم سيحاولون بالتأكيد إلقاء القبض على (أدهم) .

لو عاد حيًا من هناك .

من قلب الجحيم .

* * *

هل جرّبت مرة أن تمارس ألعاب الفيديو ، فى مباراة مزدوجة ؟..

لو أنك فعلت ، فأنت تعرف بالتأكيد أن الفوز ، فى هذه المباريات ذات اللاعبين ، يعتمد على سرعة الاستجابة والحركة ، وليس على قوة اللاعب وعضلاته ..

وهذا لا ينطبق على ألعاب الفيديو وحدها ، بل وأيضًا على أنواع شتى من الصراع والقتال الحرّ ، عندما تحتم الظروف ضرورة الخروج عن التقليديات ، وارتجال أساليب تناسب الظروف المحيطة ..

و (أدهم صبرى) أستاذ فى هذا المجال .

لقد شعر بذراعين فولاذيتين تطوقانه من الخلف ، ورأى (ليونيد) يصوّب إليه مسدسه ، ويهمّ بإطلاق النار ، ودرس عقله الموقف كله بسرعة خرافية ، ثم وضع جسده كله فى حالة تأهب ، ونقله دفعة واحدة إلى مرحلة التنفيذ ..

وبسرعة تثير الدهشة والإعجاب ، ارتفعت قدما (أدهم) تركلان (ليونيد) فى وجهه وصدره ، فى نفس الوقت الذى أدار فيه رسغ يده اليمنى ، وأمال فوهة المسدس إلى الخلف ، وألصقها بفخذ العملاق ، ثم ضغط الزناد ..

وانطلقت الرصاصة لتخترق فخذ العملاق ، الذى اتسعت عيناه فى ألم رهيب ، وتراخت ذراعاه ، اللتان تحيطان بصدر (أدهم) ، فانزلق هذا الأخير فى مرونة ، ثم استدار ، وحطّم أنف العملاق

بلكمة كالقنبلة ، ثم أطاح باثنتين من أسنانه الأمامية بلكمة ثانية كالصاعقة ، فى نفس اللحظة التى اعتدل فيها (ليونيد) ، وقبضته ما تزال ممسكة بمسدسه ، وهو يهتف :

- يا للشيطان !

ولكن جسد (أدهم) دار حول نفسه كمروحة عملاقة ، فأطاحت قدمه اليسرى بالمسدس من يد (ليونيد) ، ثم وضعت قبضته اليمنى حدًّا للقتال ، وهى تكسر أنف هذا الأخير ، وتسقطه فاقد الوعى .

وبسرعة ، انحنى (أدهم) يلتقط المسدس الثانى ، ودسَّ المسدسين فى حزامه ، وهو يقول :

- معذرة أيها السادة .. لن يمكننى قضاء وقت أطول معكم ، فالواجب ينادينى .

كان من المفروض أن يقيد الرجال الثلاثة ، إلا أنه لم يهتمّ كثيرًا بهذا ، فقد أضاع الكثير من الوقت ، وعليه أن يعمل بأقصى سرعة ، حتى يمكنه الاستفادة مما تبقّى منه .

وبحركة سريعة ، فتح نافذة حجرة (ليونيد) ، وشعر بالهواء المثلّج يرتطم بوجهه ، ولكنه حاول أن يتجاهل هذا ، وهو يتطلّع إلى الطريق ، الذى خلا تمامًا من المارة ، فى تلك الساعة المتأخرة ، وذلك الطقس الشديد البرودة ، ثم عبر النافذة ، وتعلّق بأفريزها ، وترك جسده يتأرجح لحظة ، فى المسافة التى تفصله عن النافذة السفلى ، وبعدها وثب ..

كانت وثبة شديدة الجرأة ، هبط بعدها جسده فى سرعة ، ثم

تحرَّكت يداه فى خفَّة ، ليتعلَّق بحاجز النافذة السفلى .

كانت أصابعه تكاد تتجمَّد من شدة البرودة ، ولكنه دفع جسده إلى أعلى ، وصعد إلى الأفريز المقابل للنافذة ، وألقى نظرة أخرى على الطريق ، ليتأكَّد من أن أحدًا لم يشعر بما حدث ، ولكن الطريق بدا له خاليًا ، هادئًا ، مما أشعره بالاطمئنان ، فانحنى يعالج رتاج النافذة فى سرعة ومهارة ، بوساطة مدية سويسرية صغيرة ، حتَى فتحه ، ودفع زجاجها الداخلى فى حذر ، ثم وثب داخل مخزن الملفات القديمة ، المتصل بحجرة (فاسيلوف) .

وكان (ليونيد) محقًّا فى وصف هذه الحجرة .

إنه بالفعل مخزن قديم ، اكتظَّ بالأوراق والملفات ، وله نافذة واحدة ، هى التى عبرها إليه ، وباب واحد ، يتسلل الضوء من عتبته ، ليعلن عن وجود (فاسيلوف) وضيفه الإسرائيلى فى مكتب الأوَّل ..

وانحنى (أدهم) يتطلَّع إلى الحجرة ، عبر ثقب المفتاح ، ورأى أمامه مباشرة الجنرال (فاسيلوف) ، يجلس خلف مكتبه ، وإلى جواره تقف تلك الشقراء الفاتنة ، ذات العينين الزرقاوين ، اللتين تحملان برودة أشدّ من الجليد ، وهى صامتة ساكنة كتمثال من الثلج ، ولم يكن (أندريه رابين) فى مجال رؤيته ، ولكنه سمعه يقول بالانجليزية :

- تعاوننا أمر حتمى هذه المرَّة ياجنرال (فاسيلوف) ، فالمصريون نبذوا وجودكم ، ومن الواضح أن رئيسهم (أنور

السادات) يميل إلى التعامل مع الأمريكيين ، وهذا يعنى أن وجودكم فى المنطقة سيتقلّص كثيرًا .

ضمّ (فاسيلوف) حاجبيه ، وهو يقول بالانجليزية أيضًا :

ـ حديثك هذه الليلة يُدهشنى ياعزيزى (أندريه) ، فما مصلحة دولتك فى عدم تقلّص وجودنا فى المنطقة ؟!.. ألستم الطفل المدلّل للولايات المتحدة الأمريكية ، عدوّنا اللدود ؟.. من صديقتكم الحقّة .. هى أم نحن ؟

أجابه (أندريه) :

ـ إننا أصدقاء لكل من يمكنه إفادة وجودنا ياجنرال (فاسيلوف) .. إننا سنتعاون معكم ، مادام هذا فى مصلحتنا .

هزّ (فاسيلوف) رأسه ، وقال :

ـ كلام .. كلام .. كلامٌ .. أنت تتحدّث طوال الليل يا (أندريه) ، دون أن تمنحنى دليلًا واحدًا على حسن نيتكم .. كيف أثق بأن ماستحصلون عليه منا من معلومات ، لن يصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

بدا صوت (أندريه) أكثر وضوحًا ، وهو يقول :

ـ صدقنى ياجنرال .. كنا نتوقّع هذا منكم ، ولهذا أتيتك بهدية خاصة ، ستثبت لك حسن نيتنا .

رآه (أدهم) يدخل نطاق رؤيته ، ويضع علبة صغيرة أمام (فاسيلوف) ، الذى سأله فى دهشة :

ـ ماهذا بالضبط ؟

أشعل (أندريه) سيجارته ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ قائمة صغيرة ، تحوى أسماء كل عملائكم فى (مصر) بلا استثناء ، مع عدد من الأفلام المصغّرة (الميكروفيلم) ، تحوى صور كل العملاء .

انعقد حاجبا الفاتنة الشقراء ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة ، فى حين احتقن وجه الجنرال (فاسيلوف) ، وهو يقول فى عصبية وتوتّر :

ـ كيف حصلتم على مثل هذه القائمة ؟

لوّح (أندريه) بكفه ، وقال :

ـ أنت تعرف كفاءة جهاز مخابراتنا ياجنرال .

ضرب (فاسيلوف) سطح مكتبه بقبضته فى غضب ، وهو يقول :

ـ ليس هذا مكانًا لأبواق دعايتكم .. أريد أن أعرف كيف أمكنكم الحصول على قائمة أسماء عملائنا ؟.. مَنْ مِنْ رجال مكتبى الخاص يعمل لحسابكم ؟

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (أندريه) ، وهو يقول :

ـ هذه هى هديتنا الثانية ياجنرال .

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع فجأة رنين هاتف (فاسيلوف) الخاص ، فالتقط سمّاعته فى عصبية ، وهو يقول :

ـ ألم آمركم بعدم إزعاجى إلّا لا ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، وهبّ واقفًا ، وهو يتطلّع إلى الباب الذى يختفى خلفه (أدهم) مباشرة ، وهتف فى ذهول واستنكار :

- ماذا تقول ؟! وكيف حدث هذا ؟..

وقبل أن يسمع جواب محدِّثه ، أشار إلى الباب ، هاتفًا :

- (ناديا) .

وهنا تحركت تلك الفاتنة الشقراء بسرعة مدهشة ، فاستلَّت مسدسها ، واندفعت نحو الباب ، الذى يقف خلفه (أدهم) ، فى حين صرخ (فاسيلوف) ، وهو يعيد سمَّاعة هاتفه الخاص إلى موضعها :

- إنه يقف هناك .. خلف الباب مباشرة .

وبسرعة عجيبة ، تلقَّت (ناديا) العبارة ، وفهمت ما تعنيه ، ثم تصرَّفت ..

وجاء تصرُّفها على هيئة ضغطة قوية من سبَّابتها ، على زناد مسدسها .

وانطلقت رصاصات المسدس الآلىّ ..

انطلقت نحو الباب مباشرة ، واخترقته إلى الجانب الآخر .. حيث يقف (أدهم) .

* * *



٤ - الشقــراء ..

انعقد حاجبا (شلينكو) فى شدة ، وهو يستمع عبر الهاتف ، إلى الرجل الذى كلَّفه مهمة مراقبة (أدهم) ، وهتف فى دهشة بالغة :

- ماذا تقول ؟.. أأنت واثق من هذا يا رجل ؟

تطلَّع إليه زميله فى حيرة ، من كل تلك الدهشة التى كست ملامحه ، قبل أن يقول فى حدة ، بدت وكأنها لا تنتمى قط إلى طبيعته الباردة :

- بالطبع .. لا تترك مكانك قط يا رجل .. أريد معرفة الأخبار أوَّلًا فأوَّلًا .

وأعاد السمَّاعة إلى موضعها ، وهو يتمتم ذاهلًا :

- مستحيل !.. أى شيطان هذا ؟

سأله زميله ، وقد اكتست حيرته بالكثير من القلق :

- ماذا حدث ؟

التفت إليه (شلينكو) ، وتطلَّع إلى وجهه لحظة فى صمت وشرود ، قبل أن يهتف بغتة :

- ذلك السائح .. هل تصدَّق ما فعله ؟

أجابه زميله فى حذر :

- تقول : إنه ذهب إلى المبنى الرئيسى لإدارتنا .. أليس كذلك ؟

هتف (شلينكو) :

ـ ليت الأمر اقتصر على هذا .. لقد رآه رجلنا يقفز من نافذة حجرة (ليونيد) ، إلى نافذة مخزن أوراق الجنرال (فاسليوف) ، فى الطابق السفلى ، ثم يفتح النافذة من الخارج ، ويقفز داخل المخزن .

انتقل ذهوله إلى زميله ، الذى هتف :

ـ يا للشيطان !.. لم أسمع فى حياتى عن عمل بهذه الجرأة !

قال (شلينكو) فى عصبية :

ـ بل قل : بهذه الحماقة !

هزَّ زميله رأسه ، وكأنه ما يزال عاجزًا عن تصديق ماحدث ، ثم سأله فى اهتمام :

ـ وماذا فعل رجلنا ، عندما رأى هذا ؟

أجابه (شلينكو) فى شىء من السخط :

ـ اتصل هاتفيًا بجهاز أمن المبنى الرئيسى ، وأخبرهم مارآه ، وترك مسئولية مواجهة الأمر لهم ، وأسرع يتصل بى ، ليبلغنى ماحدث .

اعتدل زميله ، وهو يقول فى انفعال :

ـ ترى كيف سيواجهون هذا الأمر ؟.. أراهنك أنهم سيعدمون خمسة من مسئولى أمن المبنى على الأقل .

قال (شلينكو) فى عصبية ، وهو ينهض ملتقطًا مسدسه :

ـ ليس هذا هو المهم الآن .

رآه زميله يسرع لمغادرة الحجرة ، فاستوقفه ليسأله :

ـ إلى أين ؟

أجابه فى حزم غاضب :

ـ إلى المبنى الرئيسى .. لن يفوتنى هذا الحدث التاريخى .

ثم أضاف وهو يصفق الباب خلفه فى عنف :

ـ مهما كان الثمن .

★ ★ ★

على الرغم من جمال (ناديا مينوفيتشى) ، الحارسة الخاصة للجنرال (فاسيلوف) ، إلا أن التدريبات الشاقة التى تلقتها ، منذ نعومة أظفارها ، عندما التحقت بمدرسة المخابرات السوفيتية ، قبل أن تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، كانت قد صنعت منها آلة باردة كالثلج ، تقتصر مهمتها على حماية الشخصيات الهامة ، دون عواطف أو مشاعر أو أحاسيس ..

ودون ذرة واحدة من التردد أو الخوف ..

باختصار ، كانت آلة للقتل بلا رحمة أو هوادة ..

وفى إطار المهمة التى أعدّت لها ، اندفعت (ناديا) نحو الباب بسرعة كبيرة ، وهى تطلق رصاصات مسدسها القوى نحوه ، وقبل أن تبلغه ، كانت قد أطاحت برتاجه ، قبل أن تدفعه بقدمها بكل قوتها ، ثم تثب داخل مخزن الملفات ، وتغطى مساحته كلها برصاصاتها العنيفة ..

ثم توقفت ..

توقفت ، وانعقد حاجباها الرفيعان فى دهشة ، وهى تدير عينيها الجميلتين فى المكان بسرعة ، حتى استقرتا على النافذة المفتوحة ، بعد أن جابتا الحجرة ، التى خلت تمامًا من أى أثر لـ (أدهم صبرى) .

وفى اللحظة نفسها ، ارتفع دوى رصاصات أخرى ..
وتحطَّم رتاج آخر ..
رتاج نافذة (فاسيلوف) ، الذى شهق فى دهشة وذعر ، عندما رأى (أدهم صبرى) يقفز عبر النافذة المحطَّمة ، ويدور جسده حول نفسه دورة رأسية بهلوانية مدهشة ، قبل أن يقول فى سخرية .
ـ معذرة أيها السادة .. هل أفزعتكم زيارتى المفاجئة ؟
تراجع (أندريه) فى حركة حادة ، وقفزت يده إلى مسدسه ، الذى يستقر فى جيب سترته ، وهو يهتف :
ـ ياللشيطان !
ولكن قدم (أدهم) ركلت المسدس فى عنف ، وصاحبها يقول ساخرًا :
ـ لا داعى للمجاملات أيها الوغد .
ثم وثب (أدهم) نحو مكتب (فاسيلوف) ، واختطف العلبة التى تحوى قائمة أسماء العملاء السوفيت ، وأفلام الميكروفيلم ، وهو يستطرد :
ـ أسأكتفى بهذه الهدية البسيطة .
صرخ (فاسيلوف) و (أندريه) فى وقت واحد :
ـ لا .. إلا هذا .
وفى اللحظة نفسها عادت (ناديا) إلى الحجرة مندفعة ، وهى تهتف :
ـ ابتعدا .
ثم أطلقت رصاصات مسدسها فى غزارة ..



وتحطَّم رتاج آخر :
رتاج نافذة (فاسيلوف) ، الذى شهق فى دهشة وذعر ، عندما رأى (أدهم صبرى) يقفز عبر النافذة المحطَّمة ..

ولكن جسد (أدهم) قفز مرة أخرى إلى الأمام ، ودار حول نفسه نفس الدورة الرأسية البهلوانية ، ولكنه هبط فى هذه المرة خلف مكتب (فاسيلوف) ، وأحاط عنق هذا الأخير بذراعه ، وهو يلصق فوهة مسدسه بصدغه ، قائلًا :

ـ هيا ياعزيزتى (ناديا) .. لاتترددى .. أطلقى النار على جسد رئيسك بلا هوادة .

انعقد حاجبا (ناديا) فى صرامة ، وبدت سبابتها متوترة متحفزة ، على زناد مسدسها ، وهى تنظر إلى (أدهم) و (فاسيلوف) ، فى حين لوح هذا الأخير بذراعيه ، هاتفًا فى ذعر :

ـ لا .. لا يا (ناديا) .. لاتطلقى النار .

لم يكد يطلق هتافه ، حتى اقتحم رجال أمن المبنى حجرة مكتب (فاسيلوف) ، وارتفعت فوهات أسلحتهم نحو (أدهم) ، وهتف قائدهم مبهورًا :

ـ كيف وصل هذا الرجل إلى هنا ؟

صرخ (فاسيلوف) فى غضب وتوتر :

ـ هل تسألنى ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ هيا أيها السادة .. إننى أقدر لكم قدومكم لتحيتى ، ولكننى أفضل البقاء هنا وحدى ، مع صديقى (فاسيلوف) ، وعزيزتنا (ناديا) ، وذلك الوغد (أندريه) .. غادروا المكان بسرعة إذن ، قبل أن أنسف رأس رئيسكم أمام أعينكم .

شمل التوتر وجوه الجميع ، وتطلع قائد الأمن الداخلى إلى

(فاسيلوف) ، وكأنه يسأله رأيه ، وينتظر أوامره ، فقال (فاسيلوف) لـ (أدهم) فى عصبية :

ـ إنك ترتكب أكبر خطأ فى حياتك يارجل .. لست أعلم كيف نجحت فى الدخول إلى هنا ، على الرغم من كل احتياطات الأمن التى نتبعها ، ولكن كيف تتوقع الخروج من هنا ، بعد هذه المواجهة الصريحة ؟

قال (أدهم) فى لهجة تهكمية :

ـ يالها من مشكلة عويصة .. ياإلهى !.. إننى أرتجف رعبًا .

قال (فاسيلوف) فى حدة ، وذراع (أدهم) القوية تخنق الكلمات فى حلقه :

ـ حاول أن تفهم الأمر على حقيقته .. إنك سجين هنا يا فتى ، مهما فعلت أو حاولت .

أجاب (أدهم) فى صرامة :

ـ وماذا لو أجبرتك على إخراجى من هنا ؟

اختنق صوت (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ مستحيل !.. لن يطيع أحدهم أوامرى ، لو طلبت منهم هذا .. أنت لاتعرف القواعد هنا .. إنهم سيطلقون النار علينا معًا حينئذ ، ثم يصرفون معاشًا محترمًا لأرملتى .

جذبت (ناديا) إبرة مسدسها ، وهى تقول فى برود :

ـ فكرة لا بأس بها .

وكان (أدهم) يعلم أن (فاسيلوف) لا يكذب ..

إنهم لن يسمحوا له بالفرار قط ، وهو يحمل قائمة بأسماء كل

عملائهم فى (مصر) ، مهما كان الثمن ، حتى ولو اضطروا لقتل (فاسيلوف) نفسه ..

ومما زاد الطين بلة ، أن (أندريه رابين) هتف فى حدة :

ـ هذا الرجل يحمل أسراركم كلها فى جيبه .. احترسوا .

وهنا كان على (أدهم) أن يجد وسيلة للفرار من هذا كله .. وإلا ...

وفجأة ، أدار (أدهم) فوهة مسدسه بعيدًا عن صدغ (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ أخبرونى أيها السادة .. هل سبق لكم أن اختبرتم وسائل العميان ؟

ومع عبارته انطلقت من مسدسه رصاصة ، عبرت باب الحجرة المفتوح ، وهشمت مصباح الممر ، ثم دارت فوهة مسدسه ، وأطلقت رصاصة ثانية ، قطعت أسلاك الثريا المعلّقة بالسقف ، فهوت لتتفجر فى منتصف الحجرة بدوى أشبه بالقنبلة ..

وساد ظلام تام ..

وفى انفعال ، صرخ (فاسيلوف) :

ـ لقد تركنى .. أوقفوه قبل أن يفرّ من هنا .

ارتبك طاقم الأمن ، أمام تلك المبادرة غير المتوقّعة ، وسادهم اضطراب شديد ، ولم يستطع أيهم إطلاق رصاصة واحدة ، وسط هذا الظلام الدامس ، خشية أن يصيبوا (فاسيلوف) نفسه ، الذى هتف :

ـ أغلقوا الباب ، ولتقفوا جميعكم أمامه .. لن نسمح له بالفرار .

قال (أندريه) فى توتر :

ـ ألا توجد وسيلة للإضاءة ؟

لم يسمع جوابًا ، فقال فى قلق :

ـ (فاسيلوف) .. أين أنت ؟

ارتفع صوت (فاسيلوف) فجأة ، من الركن المجاور للباب :

ـ هاهوذا .. إلىّ يارجال .. أنا أمسك به .

اندفع الجميع نحو مصدر الصوت ، وساد الهرج والمرج ، فى حين عقدت (ناديا) حاجبيها ، مغمغمة .

ـ وماذا عن النافذتين المفتوحتين ؟

أسرعت تشعل قدّاحتها ، ورأت على ضوئها رجال الأمن ، وقد تشابك بعضهم ببعض ، فى ركن الحجرة المجاور للباب ، فى حين سقط (فاسيلوف) على مكتبه فاقد الوعى ، فأسرعت نحوه ، وهى تهتف :

ـ توقّفوا أيها الأغبياء .

وراحت تهزه فى عنف ، قائلة :

ـ رفيق (فاسيلوف) .. استيقظ أيها الرفيق الجنرال .

فتح (فاسيلوف) عينيه ، هاتفًا :

ـ أين أنا ؟.. ماذا حدث ؟.. لماذا يسود الظلام ؟

سألته متوترة :

ـ كيف فقدت وعيك ؟

أجاب متوترًا :

ـ آه .. تذكّرت .. لقد أطلق ذلك الرجل النار على الثريا ، ثم أفقدنى الوعى .

تراجعت هاتفة فى دهشة :

ـ ماذا ؟!.. من الذى كان يتحدث إذن منذ قليل ؟!

ثم انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تهتف :

ـ اللعنة !

وانطلقت تعدو نحو النافذة ، وتطلّعت منها ، وكادت تطلق صرخة غضب هائلة ..

كان (أدهم) أمامها مباشرة ، فى الفناء الخلفى للمبنى ، الذى تطلّ عليه نافذة حجرة (فاسيلوف) ، وقد اشتبك مع حارسى الفناء ، ولكم أحدهما لكمة ساحقة ، أسقطته فاقد الوعى ، فى حين تفادى ضربة من بندقية الثانى ، وأسقطه بلكمة مباشرة فى أنفه ..

وبكل الغضب فى أعماقها ، صوّبت (ناديا) مسدسها إلى (أدهم) ، وأطلقت النار ..

ولكن (أدهم) كان ـ فى هذه اللحظة بالذات ـ يعدو عبر الفناء .

وطاشت رصاصتها ..

وهتف قائد الأمن ، عبر جهاز لاسلكى :

ـ هناك جاسوس فى الفناء الخلفى .. أوقفوه بأى ثمن .

وفى اللحظة نفسها ، كان (أدهم) قد بلغ نهاية الفناء ، ووجد أمامه بوّابة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار ، وتتصل بها من أعلى عدة أسلاك دقيقة ، أدرك ما تعنيه على الفور ، وهو يتمتم :

ـ يا لها من نهاية !.. بوّابة مكهربة أمامى ، والعدو من خلفى .. فأين المفرّ ؟

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى رأى خمس درّاجات بخارية تنطلق عبر باب المبنى ، وتعبر الفناء نحوه ، فهتف :

ـ لماذا قلتها يا (أدهم) ؟.. لقد جاء العدو من خلفك بالفعل .

انطلق يعدو إلى جوار الجدار ، والدرّاجات الخمس تطارده ، وأطلّ قائد الأمن من نافذة الطابق الثانى ، وهو يصيح :

ـ لا تقتلوه .. أريده حيًّا .. لابد أن نعرف من وراء هذا الرجل .

ابتسم (أدهم) ، عند سماعه هذه العبارة ، وغمغم وهو يعدو :

ـ أشكرك يارجل .. لايمكنك أن تتصوّر حجم الخدمة ، التى قدّمتها إلىّ .

ثم اندفع مباشرة نحو أحد جدران الفناء ، والدرّاجات البخارية خلفه ، فعقدت (ناديا) حاجبيها ، وهى تراقب هذا المشهد ، متمتمة :

ـ ترى ماذا يقصد بفعلته هذه ؟

ارتفع حاجباها فى دهشة ، عندما وثب (أدهم) نحو الجدار ، ودفعه بقدميه ، ثم قفز فى الهواء ، ودار بجسده دورة رأسية خلفية ، تجاوز بها أقرب الدرّاجات المطاردة إليه ، وهبط خلفها ، ليركل قائدها فى مؤخرة عنقه ، هاتفًا :

ـ مفاجأة !

كانت الركلة عنيفة ، والمناورة كلها مدهشة مباغتة ، فسقط الرجل عن درّاجته ، التى انزلقت فوق الجليد ، و (أدهم) يعدو خلفها ..

وبسرعة ومهارة مدهشتين ، فوجئ الجميع بـ (أدهم) يلتقط الدرَّاجة ، ويرفعها على إطاريها ، ثم يثب على مقعدها ، وينطلق بها فى ثانية واحدة ..

واستدارت الدرَّاجات الأخرى لمطاردته ، ولكنه اندفع نحوها ، بدلًا من أن يفرّ منها ، وأطلق رصاصة من مسدسه على إطار الدرَّاجة الوسطى بالذات ، فانفجر الإطار ، وانزلقت الدرَّاجة أرضًا ، ورأى الجميع (أدهم) ينطلق نحوه بأقصى سرعة ، فهتف قائد الأمن :

ـ ماالذى سيفعله هذا الرجل ؟

أما (ناديا) ، فقد امتزج حاجباها الجميلان ، وهى تراقب ذلك التوقيت المدهش والتناسق الرهيب ، عندما ارتطم الإطار الأمامى لدرَّاجة (أدهم) بالدرَّاجة المنزلقة ، فى نفس اللحظة التى عبرت فيها على مسافة ثلاثة أمتار من البوَّابة المكهربة ، ثم جذب (أدهم) مقود الدرَّاجة فى اللحظة نفسها ، فارتفع الإطار الأمامى ، ثم وثبت الدرَّاجة كلها ، مع تلك السرعة ، وحلَّقت فى سماء الفناء لجزء من الثانية ، قبل أن تعبر البوَّابة ، فى مشهد لن ينمحى قط ، من ذهن كل من رآه ، حتى آخر لحظة فى عمره ..

لقد وثبت فوقها ، ثم هبطت مرة أخرى خلفها ، واستقرَّت إطاراتها على الجليد ، ثم انزلقت فى عنف ، ومالت بزاوية مخيفة ، وبدا للجميع وكأنها ستنقلب رأسًا على عقب ، إلا أن (أدهم) سيطر عليها بمهارة خرافية ، وأجبرها على مقاومة الانزلاق ، والاعتدال مرة أخرى ، فشهق قائد الأمن ، هاتفًا فى تلقائية :

ـ مستحيل !

فى حين غمغمت (ناديا) فى سخط :

ـ اللعنة !

وصاح (أندريه) :

ـ جنرال (فاسيلوف) .. هل ستسمح له بالفرار ؟

هتف (فاسيلوف) :

ـ مستحيل ! لايمكننا المخاطرة بهذا .

رفع قائد الأمن جهاز اللاسلكى إلى فمه ، وهتف برجاله :

ـ طاردوه .. لاتتوقفوا قبل أن تظفروا به .

وبضغطة زرّ ، انفتحت البوَّابة ، وانطلقت الدرَّاجات النارية الثلاث خلف درَّاجة (أدهم) .

وبدأت مطاردة جديدة فى شوارع (موسكو) ، تحت الجليد المنهمر ..

وفى هذه المرة أيضًا ، أثبت (أدهم صبرى) أنه فارس لايشق له غبار ..

كان يتحكَّم فى درَّاجته النارية بشكل مدهش ، لم يسبق له مثيل ، على الرغم من طبقة الجليد الزلقة ، التى تغطى كل شوارع المدينة ، فيميل يمينًا ويسارًا ويحاور ، ويناور ، وينحرف من طريق إلى آخر ، ورجال المخابرات الثلاثة يلهثون خلفه ، ويبذلون طاقة هائلة ، لمجرَّد الحفاظ على المسافة التى تفصلهم عنه ..

ثم هتف أحدهم عبر اللاسلكى :

ـ مستحيل أيها القائد !!.. لايمكننا أن نظفر بهذا الشيطان حيًا .

صاح بهم الرجل :

- اقتلوه إذن .. المهم ألا تسمحوا له بالفرار .

شعر الرجال الثلاثة بالارتياح لهذا الأمر ، فأخرجوا مسدساتهم ، وصوبوها إلى (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير انحرف فجأة إلى شارع آخر ، قبل أن تنطلق رصاصاتهم نحوه .

ولكن هذه الانحناءة لم تعن نجاته التامة ، وهو ينطلق بهذه السرعة الكبيرة ..

لقد وجد نفسه فجأة أمام سيارة روسية قوية ، تسد الطريق كله عن عمد ..

سيارة تحمل أيضًا شعار الـ (كى . جى . بى) ، ويقودها ضابط من ضباطه ..

الضابط (شلينكو) ..

(بوريس شلينكو) .

* * *



٥ - أريد هذا الرجل ..

بدا الجنرال (فاسيلوف) شديد التوتر والعصبية ، عندما أشعل رجال الأمن مصباحًا جديدًا فى حجرته ، فى حين راح قائد الأمن يقول :

- لقد خدعهم هذا الشيطان ، وطلب مقابلة أحد المسئولين هنا ، وعندما قادوه إلى (ليونيد) ، هاجمه بغتة ، ثم تسلَّل إلى هنا .

صاح (فاسيلوف) محنقًا :

- هاجمه بغتة ، ثم تسلَّل إلى هنا .. ياله من قول سهل لفعل مشين !.. وكيف نجح فى فعل هذا أيها العبقرى ؟.. أين كان رجالك ؟.. ألم تضع فريقًا من العمالقة ؛ لحراسة المبنى من الداخل ؟

انعقد حاجبا قائد الأمن ، وهو يقول :

- كان هناك اثنان منهما بالفعل ، فى حجرة (ليونيد) .

هتف (فاسيلوف) :

- لماذا لم يمنعاه إذن ؟

أشاح الرجل بوجهه فى توتر ، وهو يجيب :

- لقد .. لقد أفقدهما الوعى .

انعقد حاجبا (ناديا) ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وارتفع حاجبا (أندريه) فى دهشة ، فى حين قال (فاسيلوف) مبهوتًا :

- أفقدهما ماذا ؟!.. قل لى يارجل : هل تخدعنا بعمالقة من ورق ؟

لوَّح قائد الأمن بذراعه ، هاتفًا :

- هذا الرجل ليس عاديًا .. لقد رأيت بنفسك ياسيِّدى ماذا يفعل ، وكيف خدعنا جميعًا بصوت يستحيل تمييزه عن صوتك شخصيًا .

صرخ (فاسيلوف) ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته :

- هراء .. هذا الرجل يحمل الآن سرًا من أخطر أسرارنا ، ولو نجح فى تهريبه إلى خارج الاتحاد السوفيتى ، فسيعنى هذا أن نخسر عددًا من أقوى شبكاتنا فى (مصر) .. بل كل رجالنا هناك على وجه الدقة .

ارتفع حاجبا قائد الأمن ، وهو يهتف :

- إلى هذا الحد ؟

تنحنح (أندريه) ، وقال :

- لو أردت رأيى ياجنرال ، فـ ...

قاطعه (فاسيلوف) فى غضب :

- كلًا .. لا أريد رأيك يا (أندريه) .. لا أريد حتى سماع صوتك .. هل نسيت أنك المسئول الأوَّل عن كل هذا ؟.. لو لم تحضر تلك القائمة ، لما كانت هناك مشكلة الآن .

صاح (أندريه) :

- وكيف لى أن أعرف أن ...

قاطعه (فاسيلوف) فى ثورة :

- قلت لك اصمت .

ثم تابع فى عصبية شديدة :

- إننا نجهل كل شىء عن هذا الشيطان .. لا نعرف حتى هويته ، وإلى أية دولة ينتمى .

تردَّد (أندريه) لحظة ، ثم قال :

- أعتقد أنه أمريكى .

التفت إليه (فاسيلوف) فى حدة ، وقال :

- ومن أدراك ؟

ارتبك (أندريه) لحظة أخرى ، ثم قال فى حسم :

- أسلوبه يشير إلى هذا .

لوَّح (فاسيلوف) بذراعه ، هاتفًا :

- هراء .. هراء .

ثم أردف فى سخط :

- الوسيلة الوحيدة لمعرفة هذا ، هى الإيقاع بذلك الشيطان .

قال قائد الأمن بسرعة :

- رجالنا يطاردونه الآن ياسيِّدى .

قال (فاسيلوف) فى حدة :

- كما فعلوا هنا .. أليس كذلك ؟.. ثم إنك أمرتهم بقتله أيها الغبى .

احتقن وجه قائد الأمن ، وهو يقول :

- كان هذا أفضل من هروبه أيها الرفيق الجنرال .. ثم إننى أحتجّ على مخاطبتى بهذا الأسلوب ، فى حضور رجالى .

صرخ فيه (فاسيلوف) :

- اصرفهم من هنا إذن .. لست أرى فائدة لهم هنا .

ثم لوّح فى وجهه بسبّابته ، مستطردًا فى حدة :

- وحاول أن تتبع إجراءات الطوارئ القصوى هذه المرة .. اطبع نشرة بأوصاف هذا الرجل ، وارسلها إلى كل مراكز الحدود ، وأطلق رجالنا كلهم خلفه .

ودقّ سطح مكتبه بقبضته مرة أخرى ، صارخًا :

- أريد هذا الرجل .. أريده بأى ثمن ..

وتحطّم زجاج المكتب تحت قبضته .

★ ★ ★

لم يكن وجود (بوريس شلينكو) ، رجل المخابرات السوفيتى ، فى نفس الشارع الذى انحرف إليه (أدهم) ، محض مصادفة فى الواقع ..

بل كان مقصودًا ..

ولكى يمكننا فهم هذا ، واستيعاب ماحدث ، فمن الضرورى أن ندفع عقارب الساعة إلى الخلف ، لخمس دقائق فحسب ، قبل أن نواصل روايتنا ..

فقبل هذه الدقائق الخمس ، كان (شلينكو) ينطلق بسيّارته ، فى طريقه إلى مبنى المخابرات الرئيسى ، عندما ضغط زرّ جهاز الاتصال اللاسلكى المباشر ، وهو يغمغم .

- أراهن أنهم يتبادلون الآن فيضًا من الرسائل اللاسلكية ، كما يفعلون فى كل مرة ، تفلت فيها الأمور من بين أصابعهم .

كان فضوله يشتعل بشدة ، لمعرفة مايدور ، ولم يكد يضغط

الزر ، حتّى أتاه صوت قائد الأمن ، عبر موجة الاتصال الخاصة ، وهو يبلغ أوامره لرجاله ، قائلًا :

- حاصروا ذلك الرجل .. التفوا حوله ، و ...

قاطعه أحد راكبى الدرّاجات البخارية فى حنق :

- الأفضل أن نصل إليه أولًا .. إنه ينطلق بسرعة خرافية ، وكأن درّاجته تفوق درّاجاتنا ، على الرغم من أنها واحدة منها .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال قائد الأمن فى عصبية :

- فليكن .. أين هو الآن ؟

أجابه راكب الدرّاجة النارية :

- فى شارع (ستالين) ، ونحن نحاول الاقتراب منه .

انعقد حاجبا (شلينكو) فى شدة ، عندما بلغ هذه النقطة ، وانطلق عقله يعمل بسرعة خرافية ، وهو يضغط دوّاسة الوقود ؛ ليزيد من سرعة سيارته .

إذن فذلك الرجل فى شارع (ستالين) الآن ، وهذا الشارع ينتهى بشريط مترو عريض ، ثم بنفق كبير ، وهذا يعنى أنه لن يواصل انطلاقه فيه حتّى النهاية ..

سينحرف حتمًا إلى أحد الشوارع الجانبية ، التى تتيح له حرية الانطلاق بأقصى سرعة ..

إما شارع (الثورة) ، أو شارع (بودجورنى) .

وبسرعة ، اتخذ (شلينكو) قراره ، وانحرف إلى شارع (الثورة) ، ثم دار بسيارته ربع دورة ، ليغلق بها الشارع ، وهو يهتف لنفسه :

ـ كل ما نحتاج إليه هو ضربة حظ ..

لم يكد يتمَ عبارته ، حتى رأى (أدهم) ينحرف إلى شارع (الثورة) بسرعة رهيبة ، فهتف فى انفعال جارف :

ـ ها هوذا .

أما (أدهم) ، فقد فوجئ بالسيارة تعترض طريقه ، وأدرك أنه ليس من الممكن أن يتوقف الآن ، فوق هذا الجليد الزلج ، كما أنه لاتوجد نقطة قفز ، تتيح له الوثب عبر السيارة ..

لم يكن هناك سوى حل واحد ..

لقد مال بالدرَّاجة إلى أقصى اليمين ، وقفز بها فوق الأفريز ، محاولًا تجاوز السيارة ، عبر ذلك الشريط الضيق ، الذى يفصلها عن جدار المبنى المقابل ..

ولكن (شلينكو) استلّ مسدسه بسرعة كبيرة ، وراح يطلق رصاصاته فى انفعال وغزارة ..

وعلى الرغم من هذا ، استطاع (أدهم) عبور ذلك الشريط الضيق ، وهو ينحنى لتفادى رصاصات (شلينكو) ، و ...

وياللخسارة !...

ليس كل مايتمناه المرء يدركه ..

لقد تجاوزت الدرَّاجة ذلك الفراغ بالفعل ، إلا أن واحدة من رصاصات (شلينكو) فجرَت إطارها الأمامى ، فى اللحظة ذاتها ، فاختلّ توازنها ، وانزلقت فوق الجليد فى عنف ، وسقط جسد (أدهم) عنها ، وهى تواصل طريقها متخبطة .

وصرخ (شلينكو) من فرط إحساسه بالنصر ..

لقد نجح وحده فى الظفر بذلك الشيطان ، الذى أذلّ ناصية الجميع فى المبنى الرئيسى ..

وفى سرعة وحزم ، صوَّب (شلينكو) مسدسه ، عبر نافذة سيارته ، إلى (أدهم) الساقط أرضًا ، وهو يهتف :

ـ انتهت اللعبة !.. أنت الآن فى قبضتى .

ولكن الدرَّاجات النارية الثلاث ، التى يقودها رجال المخابرات السوفيتية ، وصلت فى هذه اللحظة بالذات ، وهى تنحرف إلى حيث انحرف (أدهم) ، ووجد قادتها سيارة (شلينكو) أمامهم ، فصاحوا فى آن واحد :

ـ اللعنة !

حاولوا إيقاف درَّاجاتهم ، إلا أن الأرض الجليدية الزلقة لم تسمح لهم بهذا ، فاندفعت الدرَّاجات إلى الأمام ، وارتطمت بسيارة (شلينكو) فى عنف ، وتطاير عنها راكبوها ، فى حين فقد (شلينكو) توازنه ، مع ذلك الاصطدام المباغت ، واندفع جسده إلى الأمام فى عنف ، ولم يكد يعتدل ، حتى رأى (أدهم) واقفًا على قدميه أمامه ، وهو يقول :

ـ معذرة ياصديقى لن يمكنك قتلى اليوم .

ثم هوت قبضته كالقنبلة على أنف (شلينكو) ..

ولثوان ، لم يشعر (شلينكو) بشىء مما يحدث حوله ، وبدا وكأنه قد فقد الوعى ، ولكنه لم يلبث أن استعاد هذا الوعى بسرعة ،

فوجد نفسه ملقى أرضًا ، و(أدهم) ينطلق بسيَّارته مبتعدًا ، ورجال الدرَّاجات النارية الثلاثة يطاردونه فى استماتة بدرَّاجاتهم ، بعد أن استعادوا توازنها وتوازنهم ..

وتفجَّر غضب هائل فى أعماق (شلينكو) ، فنهض ملوِّحًا بقبضته ، وهو يصرخ :

ـ لن تذهب بعيدًا .. سأظفر بك ، حتى ولو ذهبت إلى الجحيم نفسه ..

ولكن أحدًا لم يسمعه ..

لقد ابتعد الجميع ..

وانتقلت المطاردة إلى مضمار آخر ..

وبكل مهارته وحنكته ، انطلق (أدهم) بسيارة (شلينكو) فوق ثلوج (موسكو) ، وبأقصى سرعة ممكنة ..

ولكن الدرَّاجات النارية كادت تلحق به هذه المرة ، فعقد حاجبيه ، وهو يراقبها فى مرآة السيارة ، مغمغمًا :

ـ إنك تثير اشمئزازى حقًّا يارجل الأمن .. كيف تمتلك سيارة كهذه ، يكاد محرِّكها يتقدم بطلب لإحالته إلى التقاعد ..

كان يدرك أن هذه السيارة لن تحتمل مطاردة طويلة .. لذا فقد قرَّر اللجوء إلى مناورة غير متوقَّعة .

وفجأة ، ضغط فرامل السيَّارة ..

ضغطها بشكل مدروس ، جاء مباغتًا بالنسبة لقائدى الدرَّاجات النارية ، فارتطم بها أحدهم فى عنف ، ووجد نفسه يطير متجاوزًا إياها ، ثم يسقط فوق الجليد ، وينزلق فوقه طويلًا ، قبل أن يستقر فاقد الوعى ..

ومع انخفاض السرعة المباغت ، دار (أدهم) بسيَّارته دورة سريعة ، أربكت قائدى الدراجتين الأخريين ، فانحرفا عن مساريهما ، واختلَّ توازنهما ، وسقطا .. وقبل أن يقفز الرجلان مرة أخرى إلى درَّاجتيهما ، كان هو قد انطلق بالسيارة مبتعدًا ، فى طريق آخر ..

ولكن الرجلين لم يستغرقا أكثر من لحظات معدودة ومحدودة ، ثم كانا يطاردانه مرة أخرى ..

ولاحت لهما السيارة من بعيد ، فهتف أحدهما ، وهو يصوِّب إليها مسدسه الآلى :

ـ ها هى ذى .. انسفها قبل أن يجد الوقت لمغادرتها .

ولم يكن رفيقه بحاجة إلى مثل هذا الهتاف ، فقد صوَّب مسدسه بالفعل إلى السيارة ، وراح ينافس زميله ، فى غزارة إطلاق النيران نحوها ..

وتلقَّى جسم السيارة عشرات الرصاصات ، ثم اخترقت إحداها خزَّان الوقود ، و ...

ودوى الانفجار ..

انفجار عنيف ، هزَّ الشارع بأكمله ، ولكن أحدًا من سكان (موسكو) لم يفتح نافذته .

صحيح أن كل القاطنين فى الشارع قد اختلسوا النظر ، بوسيلة أو بأخرى ، عبر فرجات النوافذ ، إلا أن أحدًا لم يجرؤ على الإفصاح عن ذلك .

كانوا جميعًا يدركون أنها عملية تخصّ (كى . جى . بى) ، وأنه من الأفضل ـ والأسلم ـ ألا يتدخّل أحدهم فيما يدور فى الشارع ..

أما رجلا المخابرات ، فقد اتجها مباشرة نحو السيارة المحترقة ، وتوقّفا أمامها ، ثم قال أحدهم فى شك وقلق :

ـ لقد كانت متوقّفة .

سأله الآخر :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لم يجب الرجل مباشرة ، وإنما راح يتلفّت حوله فى توتر ، قبل أن يشير إلى الجليد ، هاتفًا فى حدة :

ـ انظر هناك .

أدار زميله عينيه بسرعة إلى حيث يشير ، ورأى آثار أقدام مطبوعة على الجليد ، وتبتعد عن السيارة لعدة أمتار ، قبل أن يخفيها الجليد المتساقط ، فهتف :

ـ اللعنة !.. لقد هرب قبل نسف السيارة .

انطلقا يعدوان ، وهما يراقبان ويتتبعان الآثار ، ثم توقّفا فى حنق ، عند نقطة تلاشت عندها آثار الأقدام ، وصاح أحدهما فى حنق .

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟

كانا محقّين فى دهشتهما بالفعل ، فقد كانت آثار الأقدام تنقطع فجأة ، فى منتصف الطريق ، كما لو أن (أدهم) قد تلاشى فجأة ، فهتف الثانى :

ـ ماذا فعل بالضبط ؟:. هل طار إلى السماء ؟!

رفعا عيونهما معًا إلى أعلى ، وكأنهما يبحثان عنه فى السماء بالفعل ، وارتسم مزيج من الدهشة والغضب على وجهيهما ، وهما يبحثان عن تفسير منطقى لانقطاع آثار الأقدام المباغت هذا ..

والعجيب أن الدهشة كانت تختص بهما وحدهما ، دون سكّان الشارع ، الذين رأوا ماحدث ولكن أحدهم لم يجرؤ على التدخّل ..

وهذا الكهل بالذات ، الذى يقطن المنزل المواجه تمامًا لمنطقة انقطاع الآثار ، كان يمكنه أن يروى لهم ـ وبأدق التفاصيل ـ ماذا حدث بالضبط ، ولكنه كان يعلم مايمكن أن يجره إليه هذا ، من أسئلة ، وتحقيقات ، واستجوابات ، ووسائل ضغط ، وتعذيب ، وامتهان ..

بل وربّما ينتهى الأمر إلى اتهامه بالتواطؤ وخيانة الحزب ..

إنه لم ينس بعد شقيقه ، الذى كتب رسالة مختصرة إلى جريدة (برافدا) ، منذ عشرة أعوام ، ينتقد فيها عمال المترو ، ومن يومها وهو يقطع الأخشاب فى (سيبيريا) ، حتى يومنا هذا ..

هذا الكهل بالذات كان يطلّ على الطريق ، ويراقب تساقط الجليد ، عندما رأى (أدهم) يعدو عبر الشارع ، ثم يتوقّف فى منتصفه ، ويثب وثبة مدهشة ، تجاوز ارتفاعها المترين ، ليتعلّق بحاجز شرفة المبنى المواجه له ، ثم يثب منها إلى شرفة أخرى ، ويتسلّق المبنى ، ثم يختفى عند سطحه ..

ومن حسن حظّ (أدهم) ، أن هذا الكهل لم يدل بشهادته هذه ، فقد بلغ (أدهم) سطح المبنى ، وقفز منه إلى سطح مبنى مجاور ، ثم إلى سطح ثالث ، ورابع ، وخامس ..

كان يعدو من سطح إلى سطح ، ليبتعد بقدر الإمكان عن المكان ، وليفقد مطاردوه أثره ..

وفى ذهنه ، نما سؤال بالغ الأهمية ..

ما الخطوة التالية ؟..

لقد حصل على قائمة أسماء العملاء السوفيت فى (مصر) ، وأفلام (الميكروفيلم) ، التى تحوى صورهم ، ومن الطبيعى أن يسعى لنقل كل هذا إلى (مصر) ، بأسرع وسيلة ممكنة ..

ولا توجد وسيلة سوى مغادرة الاتحاد السوفيتى كله ، فكل شىء فى ذلك المكان ، يخضع لرقابة شديدة وعنيفة ..

البريد ..

وسائل الاتصال ..

الفنادق ..

المواصلات ..

وحتى حفلات المسرح والسينما ..

إنه لا يستطيع العودة إلى فندقه ، بعد أن واجههم هكذا بوجه مكشوف ..

من المؤكد أنهم يحتفظون بسجل لكل سائح دخل إلى بلادهم ، وسيمكنهم تعرفه بعد قليل .

أين يذهب إذن ؟

وكيف يغادر (موسكو) كلها على الأقل ؟..

كانت هذه الأسئلة تملأ رأسه ، عندما قفز إلى سطح جديد ، و ...

وفجأة ، تهاوى ذلك السطح تحت قدميه ..

وتعالى صوت زجاج يتحطم ..

ثم هوى جسده ..

هوى من ارتفاع خمسة أمتار ، ثم ارتطم بالأرض الصلبة فى عنف ، وترددت فى أذنيه صرخة أنثوية مذعورة ، ونباح كلب ، و ...

وغاب عن الوعى تمامًا ..

فى قلب (موسكو) .

★ ★ ★



٦ - رجل واحد ..

« اختفى ؟! .. »

احتقن وجه الجنرال (فاسيلوف) فى شدة ، وهو ينطق هذه الكلمة ، حتى خُيِّل للجميع أن الدماء التى تملأ جسده كله قد تجمَّعت فِى وجهه ، وهو يستطرد فى ثورة :

- أى قول سخيف هذا ؟.. كيف ينجح رجل فى دخول مبنانا الرئيسى ، وسرقة أسرارنا أمام أعيننا ، ثم يهرب ، ونعجز عن اقتناصه ؟!.. هل يمكنكم تفسير هذا للزعماء فى (الكرملين) ؟!

انعقد حاجبا قائد الأمن ، وهو يقول :

- لقد بذل رجالى قصارى جهدهم أيها الرفيق الجنرال ، ولايمكننى اتهامهم بالتقصير .

صرخ (فاسيلوف) :

- لايمكنك ماذا ؟.. أى لفظ تصف به ماحدث إذن .. لقد خرج خمسة من راكبى الدرّاجات النارية ، من أفضل رجالنا ، لمواجهة رجل واحد ، فى فناء المبنى الخلفى ، فماذا كانت النتيجة ؟

قال قائد الأمن فى حدة :

- لا أحد يعلم كيف اختفى .. لقد انقطعت آثار قدميه على الجليد فحسب .

أشار (فاسيلوف) إلى رأسه ، وقال فى غضب :

- لا أحد يعلم ؛ لأن أحدًا لم يحاول البحث .. رجالك أيها العقيد مجرَّد ثيران ، ننمى عضلاتهم ومهاراتهم ، ولكننا نهمل عقولهم .

قال قائد الأمن فى غضب :

- رجالى هم أفضل طاقم أمن لدينا ، أيها الرفيق الجنرال ، ولو أنهم فشلوا فى مهمتهم ، فالخطأ ليس خطأهم .. كان يمكننا اقتناص ذلك الرجل بكل بساطة ، لولا أنه تمكَّن من السيطرة عليك .

تنحنح (أندريه) ، وقال :

- سيِّدى الجنرال ، اسمح لى بعرض رغبتنا ، فى المساعدة على ..

قاطعه (فاسيلوف) فى عنف :

- اصمت .

ثم التفت إلى قائد الأمن ، مستطردًا :

- إذن فأنت تتهمنى بأننى السبب فيما حدث أيها الرفيق العقيد .

شدَّ قائد الأمن قامته ، وقال :

- نعم .. إننى أتهمك بهذا رسميًا أيها الرفيق الجنرال ، وأطرح تساؤلًا يموج بالشك .. فكيف تأتى أن تحتفظ فى مكتبك الشخصى بقائمة تحوى أسماء كل عملائنا فى (مصر) ؟.. ألا يتعارض هذا تمامًا مع أبسط قواعد الأمن ؟

احتقن وجه (فاسيلوف) مرة أخرى ، وألقى نظرة غاضبة على (أندريه) ، الذى تنحنح فى حرج ، فقال الجنرال فى توتر بالغ :

- هل تنوى طرح هذا الشك على النطاق الرسمى ؟

شعر قائد الأمن بقوة موقفه ، فشدّ قامته أكثر ، وعقد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

- بالتأكيد .

ران على الحجرة صمت ثقيل ، بعد هذه الكلمة المقتضبة ، ثم جلس (فاسيلوف) خلف مكتبه فى بطء ، وقال لقائد الأمن :

- أنت تحلم بمقعدى هذا من زمن طويل أيها الرفيق العقيد .. أليس كذلك ؟

ارتسمت على شفتى قائد الأمن ابتسامة ظافرة ، واثقة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتابع (فاسيلوف) :

- وطرح هذه الشكوك يكفى بالطبع ، طبقًا للنظام المتبع ، لطردى من هنا شرّ طردة ، وحرمانى من كل امتيازاتى ، بل وربّما أدّى إلى اعتقالى فى ثلوج (سيبيريا) .. وعندئذ يخلو مقعدى ، ويصبح منصبى شاغرًا .. فمن أفضل منك ، وأكثر خبرة ، لشغل منصب كهذا ؟

قال قائد الأمن فى صرامة ، لم تخل من رنّة شامتة :

- لا شىء يبقى على حاله أيها الرفيق الجنرال .

هزّ (فاسيلوف) رأسه مؤيدًا ، وهو يقول فى خفوت :

- هذا صحيح .

ثم رفع رأسه فجأة ، وقال فى صرامة :

- (ناديا) .

كانت (ناديا مينوفيتشى) تقف طوال الوقت فى ركن الحجرة ،

صامتة ساكنة ، كتمثال من المرمر الوردى ، وعيناها الزرقاوان تراقبان كل شىء فى حذر ، ولكن لم يكد الجنرال ينطق اسمها ، حتى دبّت الحياة بغتة فى كل خلية من خلاياها ، وانقضّت دون تردّد أو إنذار على قائد الأمن ، الذى تراجع مذعورًا ، وانتزع مسدسه ، هاتفًا :

- ماذا ستفعل ؟

ولكن (ناديا) وثبت فى رشاقة وقوة ، وأطاحت بمسدسه بركلة واحدة ، ثم دفعت قدمها اليسرى فى ضلوعه ، وتراجع (أندريه رابين) فى اشمئزاز ، عندما انبعثت من ضلوع الرجل قرقعة مخيفة ، وهو يندفع إلى الخلف فى عنف ، ثم يهتف بصوت مختنق :

- ستدفع ثمن هذا ياجنرال .

لم يُعلّق (فاسيلوف) على عبارته ، وإنما ظلّ صامتًا ، معقود الحاجبين فى صرامة ، فى حين انقضّت (ناديا) مرة أخرى على الرجل ، وحطّمت أنفه وفكه بلكمتين سريعتين عنيفتين ، تفجّرت لهما الدماء ، لتغطى وجه قائد الأمن ، الذى سقط أرضًا ، فوثبت (ناديا) نحوه ، وأمسكت جانبى رأسه فى قوة ، ثم التفتت إلى (فاسيلوف) ، وكأنها تنتظر أوامره ..

وأدار (أندريه) رأسه فى سرعة ، ليرى ردّ فعل (فاسيلوف) ، وانعقد حاجباه فى اهتمام ، عندما أومأ هذا الأخير برأسه فى بطء ، علامة الإيجاب ..

وعندئذ أدارت (ناديا) ذراعيها بحركة عنيفة قوية سريعة ..

وانبعثت قرقعة أخرى مخيفة ..

ولم تكن قرقعة ضلوع قائد الأمن هذه المرة .

بل عنقه ..

وجحظت عينا الرجل فى ألم هائل ودهشة رهيبة ، وتدفقت الدماء من فمه ، ثم انهار رأسه على صدره ، وسقط جثة هامدة ..

وفى هدوء ، ألقته (ناديا) أرضًا ، ثم نهضت تعدّل زيّها العسكرى ، وعادت تقف هادئة ساكنة صامتة ، فى ركن الحجرة ، وكأنها لم تقتل رجلًا أعزل منذ ثوانٍ معدودة .

وهنا استدار (فاسيلوف) ، متطلّعًا إلى (أندريه) ، الذى قال بسرعة :

ـ كان يستحق هذا .

مطّ (فاسيلوف) شفتيه ، دون أن يجيب ، وضغط زرًّا فوق مكتبه ، فاندفع أحد رجال الأمن إلى الداخل ، وهو يقول :

ـ أوامرك أيها الرفيق الجنرال .

ولكن بصره وقع على قائده الصريع ، فمدّ عنقه إلى الأمام ، واتسعت عيناه فى دهشة ، لولا أن قال الجنرال (فاسيلوف) فى صرامة :

ـ التحقيقات أثبتت أن العقيد (ميكالوف) هو المسئول ، عن تسلّل ذلك الجاسوس إلى هنا ، وعند اتهامه حاول الاعتداء علينا ، والفرار من المكان ، لولا أن تصدّت له حارستى الخاصة ، وحاولت منعه ، ولكنه لجأ إلى القوة ، واضطرها إلى القضاء عليه .

بقى الجندى لحظة يحدّق فى جسد قائده الصريع ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، قائلًا :

ـ بالتأكيد ياسيّدى الرفيق الجنرال .

أشار إليه (فاسيلوف) فى حزم ، قائلًا بلهجة صارمة آمرة :

ـ أخرجوا جثته من هنا ، فلدينا عمل ننجزه .

• أدى الجندى التحية العسكرية ، وغادر الحجرة دقيقة واحدة ، عاد بعدها مع اثنين من رفاقه ، وحملوا جثة قائد الأمن خارجًا ، ثم أدى التحيةَ العسكرية أمام (فاسيلوف) ، وقال :

ـ هل نضع تقريرًا رسميًا بهذا ؟

أجابه (فاسيلوف) على الفور :

ـ بالطبع .. كل شىء ينبغى أن يسير طبقًا للقانون .. سنشرح الأمر كله فى تقرير رسمى ، وسيوقّع عليه صديقنا (أندريه) وحارستى (ناديا) كشاهدين .

ابتسم (أندريه) ، وقال :

ـ بالطبع ياجنرال .. إننى مستعد للتوقيع على ورقة بيضاء .

رمقه الجندى بنظرة جانبية ، ثم اعتدل فى وقفته العسكرية ، وقال :

ـ العقيد (بوريس شلينكو) ، مدير فرع مراقبة الأجانب ، يطلب مقابلتك أيها الرفيق الجنرال .

هزّ (فاسيلوف) رأسه موافقًا ، وقال :

ـ فليكن .. امنحنى خمس دقائق لترتيب أوراقى ، ثم اسمح له بالدخول .

أدى الجندى التحية الرسمية فى حزم ، وأسرع يغادر الحجرة ، ويُغلق بابها خلفه ، فاتسعت ابتسامة (أندريه) ، وحملت الكثير من الخبث والدهاء ، وهو يقول :

ـ عظيم .. الأمور عندكم تسير بشكل أقل تعقيدًا ، وأكثر حسمًا .

ألقى عليه الجنرال نظرة باردة ، دون أن يعلّق على عبارته ، وجلس خلف مكتبه فى هدوء ، قائلًا :

ـ هل تعلم أى مأزق وضعتنا فيه يا (أندريه) ؟

قال (أندريه) بسرعة :

ـ بل قل : أى مأزق وضعتنا فيه الظروف ياسيدى .

عقد (فاسيلوف) حاجبيه فى حدة ، وقال فى عصبية :

ـ لقد اختفى هذا الرجل ، ونحن نجهل من هو ، وأين يمكن أن يتجه ، وكيف يعمل .. ولا يمكننا ـ فى الوقت نفسه ـ أن نسمح له بالفرار ، وهو يحمل هذه الوثائق .. إننا سنعود عشر سنوات إلى الوراء ، لو انكشف أمر كل عملائنا فى (مصر) .

هزّ (أندريه) كتفيه ، وقال :

ـ لو أنك وافقت على قيام التعاون بيننا ، فربما ..

قاطعه (فاسيلوف) فى صرامة :

ـ ومن ذا الذى يحتاج إليكم ؟

ثم التفت إلى (ناديا) ، وقال :

ـ (ناديا) .

ـ أدارت عينيها الزرقاوين إليه ، فأضاف فى حزم :

ـ أريد هذا الرجل .. سأمنحك صلاحية مطلقة .

خُيّل لـ (أندريه) أنه قد لمح بريقًا دمويًا ، يتألق فى عينى الفاتنة السوفيتية الشقراء ، ورأى شبح ابتسامة على شفتيها الجميلتين ، وهى تقول :

ـ أوامرك ياجنرال .

كانت تنطقها ببرودها التقليدى ، إلا أنه استشفَّ فى العبارة لمحة جذل ، جعلته يتطلّع إلى الفتاة فى اهتمام بالغ ، فى نفس اللحظة التى انفتح فيها باب حجرة (فاسيلوف) ، وظهر على عتبته (شلينكو) ، وهو يؤدى تحيته العسكرية ، قائلًا :

ـ العقيد (شلينكو) فى خدمتك أيها الرفيق الجنرال .

أشار إله (فاسيلوف) بالدخول ، وهو يقول :

ـ ماذا وراءك يا (شلينكو) ؟

لم يجب (شلينكو) مباشرة ، وإنما رمق (أندريه) بنظرة حذرة ، فنهض هذا الأخير ، وتنحنح قائلًا :

ـ أظن أن الوقت قد حان ، لأعود إلى سفارتى ياصديقى الجنرال .

أجابه (فاسيلوف) ببرود :

ـ إلى اللقاء أيها الرفيق (أندريه) .

أومأ (أندريه) برأسه محييًا ، ثم اتجه إلى الباب ، وتوقّف لحظة ليقول بابتسامته الصفراء ، التى تشعّ بالخبث والمكر والدهاء :

ـ أكرِّر عرضى بالمساعدة ياجنرال .

أجابه (فاسيلوف) ببرود صارم :

ـ إلى اللقاء .

هزّ (أندريه) كتفيه ، وغادر الحجرة فى هدوء ، فنقل

(شلينكو) نظرة الشك إلى (ناديا) ولكن (فاسيلوف) ، قال فى حزم :

- (ناديا مينوفيتشى) حارستى الخاصة ، ولست أخفى أمرًا عنها .

مطّ (شلينكو) شفتيه ، وكأنما لايروق له هذا ، ولكنه قال بلهجة عسكرية حاسمة :

- لدى معلومات عن ذلك الجاسوس ، الذى اقتحم المبنى .

اعتدل (فاسيلوف) فى اهتمام شديد ، وهو يهتف :

- حقًا ؟!.. هل عرفت من هو وأين اختفى ؟

قال (شلينكو) :

- لست أعلم أين اختفى أيها الرفيق العقيد ، ولكننى أعرف أشياء أخرى .. إنه سائح مصرى ، يحمل جواز سفر صحيح ، باسم (أدهم صبرى) ، ومهنته رجل أعمال وتاجر ، وتقارير المراقبة الخاصة به ، فى الأسبوع الذى قضاه هنا ، تقول إنه لايلتزم ببرنامج سياحى محدود ، أو حتى ببرنامج عمل ، وإنما يقضى وقته فى التجوال ، والمرور بالمناطق العسكرية والأمنية .

قال الجنرال (فاسيلوف) فى غضب :

- وعلى الرغم من هذا ، فقد تركتموه يواصل جولاته بمطلق الحرية ، حتى وصل إلى عقر دارنا .

قال (شلينكو) فى توتر :

- إنه لم يكن يفعل أكثر من التجوّل ، ولم يلتقط أية صور ، أو يدوّن ملاحظات ، أو ...

قاطعه (فاسيلوف) فى حدة :

- أهذا مالقنوك إياه ، فى مدرسة المخابرات ، أيها الرفيق العقيد ؟.. هل أخبروك أن الجاسوس سيحمل آلة تصوير كبيرة ، ويلتقط صورًا تذكارية ، مع مناطقنا العسكرية والأمنية ؟!

تزايد توتّر (شلينكو) ، وهو يقول :

- لقد فتشنا حجرته . أيها الرفيق الجنرال ، ولم نعثر على مايمكن أن يثير الشبهات .

هتف (فاسيلوف) :

- حقًا ؟!.. ياللبراعة !.. وماذا تنتظر منى الآن أيها الرفيق العقيد ؟.. وسام الشجاعة من الطراز الأوّل ؟!

انعقد حاجبا (شلينكو) فى غضب ، فقد أحنقه أن يعامله الجنرال بهذا الأسلوب ، وأن يخاطبه بهذه الحدة أمام (ناديا) ، وهو الذى كان يتوقع ترقية استثنائية على الأقل ، لما يحمله من معلومات قيمة ، وقال فى عصبية :

- لست أنتظر وسامًا أيها الرفيق الجنرال .. كل ما أنشده هو أمر رسمى ، بمتابعة هذه العملية .

قال (فاسيلوف) بسرعة وحدة :

- كلا يا (شلينكو) .. هذه العملية لاتناسبك .

ارتفع حاجبا (شلينكو) فى دهشة بالغة ، وهو يقول :

- لاتناسبنى ؟!.. كيف أيها الرفيق الجنرال ؟!.. إننى المسئول عن مكتب مراقبة الأجانب ، و ...

قاطعه (فاسيلوف) :

- واصل عملك إذن ، فلم تخل بلادنا بعد من كل الأجانب ، واترك لنا مهمة العثور على ذلك الرجل وتصفيته .

التقى حاجبا العقيد فى غضب شديد ، ولكن (فاسيلوف) تجاهل هذا تمامًا ، وهو يشير إليه بيده فى صرامة ، قائلًا :

ـ هيًا .. عد إلى مكتبك ، وسأوصى بمنحك سيارة جديدة ، بدلًا من تلك التى تسبَبت بإهمالك فى تدميرها .

رمقه (شلينكو) بنظرة غاضبة ، ولكنه لم يملك سوى أن يقول ، وهو يؤدى التحية العسكرية :

ـ كما تأمر ياجنرال .

تابعه الجنرال (فاسيلوف) ببصره ، حتى غادر الحجرة ، ثم التفت إلى (ناديا) ، وقال فى توتر :

ـ هل سمعت هذا ؟.. ذلك الجاسوس مصرى الجنسية ، وهذا يجعل الأمر أكثر تعقيدًا .. من المؤكَد أن الاسم الذى يحمله جواز سفره ليس اسمه الحقيقى ، ولكننى أمنحك سلطات واسعة يا (ناديا) .. كل السلطات التى تحتاجين ، إليها .. ستحملين تفويضًا عامًا منى ، بإصدار كل ما يعنَ لك من أوامر ، والاستعانة بأية إمكانيات يمكن توفيرها .. المهم أن تظفرى بهذا الرجل .

وامتزج حاجباه فى صرامة ، وهو يضيف :

ـ حطمى هذا الرجل يا (ناديا) .. حطميه بأى ثمن ، ولكن لاتسمحى له بمغادرة الاتحاد السوفيتى ، وهو يحمل ماحصل عليه .

تألَقت عينا (ناديا) مرة أخرى ، بذلك البريق الدموى المخيف ، وهى تقول :

ـ أمرك ياجنرال .

وغادرت الحجرة فى برود شديد ، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع . مرحلة دموية .

★ ★ ★

٧ ـ بوشكـــا ..

تردَد نباح كلب حاد ، فى أذنى (أدهم) ، ففتح عينيه دفعة واحدة ، وقد استعاد عقله ووعيه بغتة ، واعتدل جالسًا فى تحفَز ، وأصابعه تنقبض استعدادًا للقتال ..

ولكن فجأة ، قفزت الدهشة لتزيح كل تلك المشاعر جانبًا ، وتحتَل فى نفسه موقع الصدارة ..

لم يكن محاطًا بالأعداء والخصوم ، كما صوَر له عقله ، عندما سمع نباح الكلب ، وإنما كان يرقد على فراش وثير ، وفوق أغطية من الحرير الوردى الناعم ، المزدان عند أطرافه بنقوش صينية ، من الخيوط الحريرية الملوَنة ، داخل حجرة واسعة أنيقة ، يشفَ كل ركن فيها عن الثراء ورقة الذوق ، وفى ركنها مسبح صغير ، تترقرق فيه المياه بخرير خافت ، عبر فتحات جانبية من النحاس الأصفر ، الذى بدا وكأنه دخيل ، على الحجرة التى اصطبغ كل شىء فيها باللونين الأبيض والوردى ..

حتى ذلك الكلب الصغير ، الذى ينبح فى وجهه ، بهذا الصوت الحاد ، كان شاهق البياض ، ضئيل الحجم ، حتى ليبدو أشبه بالقط ، منه بالكلب ..

وشعر (أدهم) بالحيرة .

ـ ماالذى يعنيه وجوده فى هذا المكان ؟!

ثم كيف يمكن أن يوجد مكان بهذه الأناقة ، وهذا الثراء ، فى قلب



كانت أمامه امرأة باهرة الحسن والجمال ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، لها أجمل وأرق ملامح رآها فى حياته ..

(الاتحاد السوفيتى) الشيوعى المتقشف رسميًا ؟!

قطع الكلب أفكاره ، وهو يتقدَّم نحوه ، وينبح فى وجهه بحدة ، فابتسم وهو يداعبه مغمغمًا :

ـ كفى يا صغيرى .. نباحك الحاد هذا يزيد عنف الصراع ، الذى يكتنف رأسى .

أتاه صوت أنثوى يقول :

ـ بل قل يا صغيرتى .. إنها أنثى .

التفت فى سرعة إلى مصدر الصوت ، ثم ارتفع حاجباه فى دهشة عارمة ..

كانت أمامه امرأة باهرة الحسن والجمال ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، لها أجمل وأرق ملامح رآها فى حياته ، وكانت ترتدى معطفًا منزليًا من الفراء ، لايكاد يبلغ ركبتيها ، وهى تدخل إلى الحجرة ، مستطردة :

ـ إذن فقد استعدت وعيك .. هل تدرك مافعلته بسقف حجرة المعيشة ؟

كانت تتحدَّث بلهجة عجيبة ، امتزج الغضب فيها بالكثير من الدلال والرقة ، حتى أنه لم يدرك حقيقة مشاعرها جيدًا ، وهو يبتسم مجيبًا :

ـ معذرة ياسيدتى .. لم أكن أرغب حقًا فى هذا .

هتفت :

ـ لماذا قفزت إلى السطح إذن ؟.. هل تهوى التنزه فوق الأسطح ، عندما ينهمر الجليد ؟!.. لقد كنت أقضى ليلة هادئة .. أول ليلة هادئة

منذ فترة طويلة ، عندما وجدتك تسقط من السقف أمامى .. هل تدرك كم أفزعتنى ؟.. ثم إن حجرة المعيشة تغطّت كلها بالجليد ، ولم تعد أجهزة التدفئة تعمل جيدًا ، وأنت المسئول عن كل هذا .

كانت تتحدّث بسرعة ، فانتظر حتى توقّفت لالتقاط أنفاسها ، ثم قال :

ـ حسن .. إننى أعتذر عن كل هذا ، ولكن أين معطفى ؟

أشارت إلى ركن بعيد ، وقالت فى بساطة ، وكأن غضبها كله قد تلاشى بغتة :

ـ هناك .

ثم أضافت بسرعة :

ـ ولكنه ليس معطفًا وطنيًا .. قل لى : من أين حصلت على معطف مطر أمريكى الصنع مثله ؟.. إنك لاتبدو لى كأحد كبار رجال الحزب .. أليس كذلك ؟

نهض بسرعة يفحص معطفه ، وشعر بالارتياح ، عندما وجد العلبة الصغيرة داخل جيبه ، فالتفت إليها قائلًا :

ـ كلّا .. لست أحد كبار أو صغار رجال الحزب .. إننى لا أنتمى إليه قط .

هتفت :

ـ وماذا عن هذا المعطف ؟

هزّ كتفيه ، وقال وهو يرتدى معطفه :

ـ لقد ابتعته من موطنه .. من الولايات المتحده الأمريكية نفسها .

شهقت هاتفة :

ـ الأعداء ؟!

ابتسم وهو يقول :

ـ نعم .. الأعداء الرأسماليين الأوغاد .. أليس هذا ما يلقنونكم إياه !.. لابأس ياسيّدتى .. إننى أعتذر مرة أخرى عن كل مافعلته ، من تحطيم سقف حجرة المعيشة ، وإفساد ليلتك الهادئة ، ولكننى مضطر الآن للانصراف .

هتفت بسرعة :

ـ لا .. ليس الآن .

ثم تراجعت هامسة :

ـ إنهم يملئون الطرقات .

انعقد حاجباه ، وهو يتمتم :

ـ من هؤلاء ؟

تلفّتت حولها ، ثم همست فى توتر :

ـ رجال الأمن .

لم تكد تأتى على ذكرهم ، حتى نبحت كلبتها الصغيرة فى حدة ، وكأنها تشاركها توترها ، فى حين تطلّع إليها (أدهم) لحظة ، ثم عاد يجلس على طرف الفراش ، وهو يسألها :

ـ سيّدتى .. هل تعرفين من أنا ؟

هزّت كتفيها ورأسها فى آن واحد ، ثم ابتسمت فى جذل ، قائلة :

ـ كلّا .. ولكن الأمر لايحتاج إلى الكثير من الذكاء .. إنهم يطاردونك .

بقى صامتًا ، معقود الحاجبين ، يتطلّع إليها فى شىء من الحذر والتساؤل ، فى حين تابعت هى فى حماس طفولى جذل :

ـ عندما سقطت من السقف أمامى ، أصابنى رعب حقيقى ، وكدت أهرع لطلب رجال الشرطة .

سألها فى حذر :

ـ ولماذا لم تفعلى ؟

أجابته بلهجتها الممتزجة بالدلال :

ـ رأيتك وسيمًا للغاية ، ولم أتخيلك هناك .

غمغم :

ـ أين ؟

مالت إلى الأمام ، وهمست فى انفعال :

ـ فى (سيبيريا)(★) .

انعقد حاجباه مرة أخرى ، دون أن يعلق ، فى حين تراجعت هى ، وتابعت :

ـ ثم لم تمض نصف الساعة ، حتى كنت أرقدك على فراشى ، بعد أن بذلت جهدًا رهيبًا لجذبك إلى هنا .. هل تعلم أنك كدت تصيبنى بانزلاق غضروفى ؟..

ابتسم متهكمًا ، وهو يقول :

ـ سأحاول اتباع نظام حمية قاس ، فى المرة القادمة .

(★) سيبيريا : الاسم الشائع للجزء الآسيوى من جمهورية (روسيا) السوفيتية الاتحادية الاشتراكية ، وتبلغ مساحتها ١٢٧٥٣٤١٩ كم٢ ، وهى تمتد من جبال (الأورال) حتى المحيط الهادى ، ومن المحيط القطبى حتى (منغوليا) و (منشوريا) ، تنتشر السهول فى الجزء الغربى منها ، فى حين تمتد سلاسل جبلية ضخمة فى الجزء الشرقى ، والمناخ فيها شديد التطرف ، من خمسين تحت الصفر ، إلى خمسين فوق الصفر ، ولكنها شديدة البرودة فى معظم أيام السنة .

انعقد حاجباها فى غضب ، وهى تقول بصوتها الرقيق ، ولهجتها ذات الدلال :

ـ كنت أتوقع شكرًا .

هزَّ كتفيه ، وقال مبتسمًا :

ـ أنت تستحقينه .

تهللت أساريرها ، وهى تهتف :

ـ حقًّا ؟!

ثم عاد حاجباها ينعقدان فى سرعة مدهشة ، وهى تستطرد :

ـ المهم أنهم حضروا إلى المنطقة ، قبل حتى أن أتم نقلك إلى الفراش ، وهم يفتشون كل الأماكن والمنازل ، منذ ما يقرب من نصف الساعة ، وأعتقد أنهم يحاصرون المنطقة كلها .

وسألته فى شغف :

ـ ولكن ماذا فعلت ، حتى تثير غضبهم إلى هذا الحد ؟

بدت الجدّية على ملامحه ، ومال نحوها ، وكأنه سيذيع سرًا بالغ الخطورة ، فأسرعت تميل نحوه فى لهفة وفضول ، وسمعته يجيب :

ـ لقد عضضت إصبع رئيس الحزب الشيوعى نفسه :

انعقد حاجباها فى شدة ، وتراجعت فى حدة ، هاتفة :

ـ هل تسخر منى ؟!

نهض قائلًا فى حزم :

ـ كلَّا ، ولكننى أعتقد أن الوقت لايكفى لأروى مالدى ، فهم يحاصرون المكان كما قلت ، ويفتشون كل المنازل والأماكن ، ولن

يلبثوا أن يصلوا إلى هنا ، ولن يكون من الطريف أن أبقى فى ضيافتك ، حتى يجدونى ، فهذا قد يدفعهم لاستضافتك طويلًا فى (سيبيريا) معى .

ارتفع حاجباها ، وأطلقت ضحكة قصيرة ، قبل أن تقول :

- هل تظن هذا ؟.. هل تتصوَّر أنهم يستطيعون تفتيش منزلى ، دون موافقة صريحة منى ؟.. من الواضح أنك لا تعرف من أنا .

ثم ضمَّت كلبتها الصغيرة إلى صدرها ، وأضافت فى شىء من الزهو :

- أنت ترى الآن أشهر اسمين فى (روسيا) كلها .. (بوشكا) و (ميرا) .

ابتسم (أدهم) ، ومدّ يده يداعب الكلبة ، مغمغمًا :

- حسن .. إنك أطرف كلبة رأيتها يا (بوشكا) .

هتفت المرأة فى غضب رقيق :

- أيها الوقح .

رفع عينيه إليها متسائلًا ، فأضافت :

- هى (ميرا) .. أنا (بوشكا) .

تراجع هاتفًا فى سخرية :

- حقًّا ؟!.. كم يدهشنى هذا ، فاسم (بوشكا) يناسبها أكثر .

انعقد حاجباها فى شدة ، وقالت :

- هل تسعى لمعاندتى ، أم أنك حقًّا تجهل من أنا ؟!

تطلَّع إليها لحظة ، محاولًا تذكّر ما إذا كان قد رآها من قبل ،

ولكنه أيقن أكثر ، من أنها أوَّل مرة يراها فيها ، فى حياته كلها ، فغمغم :

- وهل من المفروض أن أعرفك فور رؤيتك ؟

تطلَّعت إليه لحظة فى غضب ، ثم نهضت ، واتخذت وقفة مسرحية ، وهى تقول فى زهو :

- أنا (بوشكا) .

ابتسم متمتمًا :

- تشرَّفنا .

أدركت أنه لم يعرفها بعد ، فهتفت :

- (بوشكا) .. ألا تعرف (بوشكا) ؟.. (طلقة فى الظلام).. (مصرع طاغية).. (الحب الوحشى).. (عذراء الجزيرة).. ألم تشاهد فيلمًا واحدًا من أفلامى ؟

رفع (أدهم) حاجبيه ، وهو يبتسم قائلًا :

- آه .. أنت ممثلة .

هتفت فى غضب ، مقلِّدة أسلوبه :

- آه .. أنت ممثلة .. كلَّا أيها الوسيم .. لست مجرَّد ممثلة .. أنا (بوشكا) .. الممثلة الأولى فى (الاتحاد السوفيتى) كله ، والحاصلة على وسام الفنون ، وعضو الشرف فى مجلس الحزب ، و...

قاطعها رنين جرس الباب ، فانعقد حاجباها ، فى حين تحرَّك (أدهم) بسرعة ، وهو يقول :

- لقد وصلُوا .

قالت فى حدة :

- إنها كارثة .

قال مبتسمًا :

ـ ألم أقل لك ؟

هتفت فى حنق :

ـ لقد أسأت فهمى .. الكارثة هى أن اليوم إجازة الخدم ، وسأضطر لفتح الباب بنفسى .

قالتها واستدارت مغادرة الحجرة ، وهو يتابعها فى دهشة ، قبل أن يغمغم وهو يهزّ رأسه :

ـ ياللنساء !!

أما هى ، فقد اتجهت إلى الباب مباشرة ، وقالت فى حدة وثبات :

ـ من بالباب ؟

أتاها صوت صارم ، يقول :

ـ الأمن العام .. افتحى الباب .

قالت فى غضب ، وهى تفتح الباب :

ـ وماذا تريدون منى ، يارجال الأمن العام ؟

فغر الرجل فاه مبهوتًا ، وهو يحدق فى جمالها الأخاذ ، ثم لم يلبث أن تمالك جأشه ، وهو يقول :

ـ معذرة أيتها الرفيق (بوشكا) .. إننا نفتش كل المنازل فى المنطقة .

قالت فى حدة :

ـ لست أظن هذا ينطبق على منزلى .

ازدرد لعابه ، وهو يقول :

ـ الأوامر تقول : الجميع بلا استثناء .

هتفت غاضبة :

ـ ياللوقاحة !.. لن أسمح بهذا أبدًا .. سأتصل بأصدقائى المهمين ؛ لأمنعكم من تلويث منزلى النظيف ، بأقدامكم التى تحمل طنًا من الثلوج ، خاصة وأن اليوم هو إجازة الخدم .

ارتبك الرجل ، وهو يقول :

ـ سيدتى .. إننى أنفذ الأوامر .

اعتدلت فى اعتداد ، وهى تقول :

ـ (بوشكا) دائمًا فوق الأوامر والقانون .

اضطرب الجندى أكثر ، ولم يدر مايفعله ، وكاد يتراجع بالفعل ، لولا أن أتى من خلفه صوت صارم بارد ، يقول :

ـ لا أحد فوق الأوامر والقانون .

تطلعت غاضبة إلى (شلينكو) ، الذى تجاوز رجاله ، ودفع الباب فى عنف ، وهو يقول :

ـ سيتم تفتيش المنطقة كلها ، دون أية استثناءات .

نظرت لحظة إلى عينيه الباردتين الصارمتين ، ثم أفسحت الطريق ، وهى تشير إلى الداخل ، قائلة فى حدة غاضبة :

ـ فليكن أيها الرفيق .. افعل مابدا لك ، ولكنك ستتحمل النتيجة كلها ، أمام صديقى رئيس الحزب .

كاد (شلينكو) يقتحم المكان بالفعل ، ويأمر رجاله بقلبه رأسًا على عقب ، لولا أن تذكر أنه ، بقيادته لفريق التفتيش هذا ، يخالف بالفعل تعليمات الجنرال (فاسيلوف) ، وأن أى تحقيق رسمى سيدينه بلا هوادة ، فتراجع قائلًا ، فى صرامة أبى أن يتخلى عنها :

ـ إننا نبحث عن جاسوس طويل القامة ، عريض المنكبين ، وسيم

الملامح إلى حد ما .. وهو بالغ الخطورة ، فهل رأيت من يشبه هذا الوصف الليلة .

أجابته فى حدة :

ـ ولا فى الليالى السابقة .. حتى الجواسيس لايجرءون على اقتحام منزل (بوشكا) .

كظم غيظه فى صعوبة ، وقال :

ـ فليكن .. أبلغينا لو لمحت من يشبهه .

قالت فى عصبية :

ـ سأفعل .

تراجع (شلينكو) ورجاله ، وأغلقت هى بابها وهى تبتسم فى زهو ، متمتمة :

ـ كنت أعلم أن أحدًا لن يجرؤ على هذا .

وأسرعت عائدة إلى حجرة نومها ، وهتفت :

ـ لقد رحلوا .

ثم توقفت فى دهشة ، وهى تدير عينيها فى المكان كله ، قبل أن يرتفع حاجباها إلى آخر مدى .

لقد بدت لها الحجرة خالية ، وقد اختفى منها (أدهم) .

اختفى تمامًا .

★ ★ ★

لم يكد (أندريه رابين) يدلف إلى حجرته ، فى مبنى السفارة الإسرائيلية فى (موسكو) ، حتى قال لحارسه الخاص فى اهتمام :

ـ كيف حال السفير ومعاونه .. هل استسلما للنوم مبكرًا كعادتهما ؟ .

ابتسم حارسه الخاص (إيزاك) ، قائلًا :

ـ نعم .. من الواضح أن وجودك يحنقهما ياسيدى فلقد أجرى السفير عدة اتصالات بوزارة الخارجية ، وبإدارتنا فى (تل أبيب) .

ضحك (أندريه) فى خبث ، وقال :

ـ هذا أمر طبيعى .. إنه رجل ديبلوماسى ، ونحن رجال قتال .

ثم سأله فى اهتمام :

ـ ولكن هل تعرف فحوى اتصالاته ؟

ابتسم (إيزاك) ، وهو يقول :

ـ لقد سجلتها كلها .

أطلق (أندريه) ضحكة قصيرة ، وربَت على ظهره ، قائلًا :

ـ عظيم .. عظيم يا (إيزاك) .. أنت تثبت فى كل مرة أننى أحسنت الاختيار ، عندما انتخبتك من بين الطاقم كله ، لتصبح حارسى الخاص .

قال (إيزاك) فى هدوء :

ـ أنا رهن إشارتك ياسيِّدى .

تأمله (أندريه) لحظة ، ثم قال :

ـ الواقع أننى أحتاج إليك ، فى مهمة شديدة الخصوصية يا (إيزاك) .

تطلَّع إليه (إيزاك) فى اهتمام ، فتابع فى حسم :

ـ فى البداية ، ينبغى أن تعرف القصة كلها .

روى له بسرعة كل مادار فى تلك الليلة ، منذ اقتحم (أدهم) حجرة (فاسيلوف) ، وحتى اختفى فى قلب (موسكو) ، واستمع

إليه (إيزاك) بكل اهتمام وانتباه ، حتى أنتهى من روايته ، وقال :
- ولو اختفى هذا الرجل ، وهو يحمل قائمة العملاء السوفيت فى (مصر) ، وصورهم كلهم ، ستتوتر العلاقة كثيرًا ، بيننا وبين الجنرال (فاسيلوف) ، الذى يقود جهاز المخابرات السوفيتى كله ، وسيعنى هذا فشل البرنامج الذى وضعناه ، لتبادل الخبرات والمعلومات مع الـ (كى . جى . بى) .. وأنت تعلم ماالذى سيعنيه هذا بالتبعية .. أليس كذلك ؟
أومأ (إيزاك) برأسه إيجابًا ، دون أن يتكلم ، فتابع (أندريه) :
- لقد كلف (فاسيلوف) حارسته الخاصة (ناديا مينوفيتشى) ، مهمة العثور على ذلك الرجل ، واستعادة الوثائق ، ولكنك تعلم جيدًا أننى لا أثق بالنساء ، وخاصة بعدما رأيته من قدرات هذا الرجل ومهاراته ؛ لذا فأنا أرى أنه من الأفضل أن يتولى رجل هذه المهمة .
ورمق (إيزاك) بنظرة طويلة ، قبل أن يضيف :
- رجل أثق به تمامًا .
اعتدل (إيزاك) ، وقال فى حزم :
- أنا رهن إشارتك يا سيدى .. متى تحب أن أبدأ عملى ؟
أجابه بسرعة :
- الآن .. الآن يا (إيزاك) .
قالها وعيناه تبرقان ببريق مخيف .
بريق وحشى .

* * *

٨ - الحملـــة ..

تطلعت (ناديا مينوفيتشى) طويلًا فى صمت ، إلى البقعة التى اختفت عندها آثار أقدام (أدهم صبرى) ، وأدارت عينيها حولها ، وهى تبحث عن تفسير منطقى لما رواه رجال المطاردة ، بعد أن أخفى الجليد الذى يواصل الانهيار كل آثار الأقدام ، ومحاها تمامًا ، ثم لم تلبث عيناها أن توقفتا عند (شلينكو) ، القادم مع فريق البحث ، وانعقد حاجباها فى صرامة ، وهى تقول :
- عجبًا !.. هل عدل الجنرال (فاسيلوف) أوامره ، بشأن تدخلك فى هذه العملية أيها الرفيق العقيد (شلينكو) ؟
توقف أمامها ، وهو يجيب بصرامة مماثلة :
- لا أعتقد هذا أيتها الرفيق ، ولكن الأمر يدخل فعليًا فى نطاق اختصاصاتى ، فذلك الرجل أجنبى ، دخل البلاد كسائح ، ومهمتى هى مراقبة كل الأجانب .
قالت فى حزم :
- لقد انتفت صفته كسائح ، مع وضوح مهمته كجاسوس .
قال فى حدة :
- فليكن .. سأظل أمارس عملى الرسمى ، حتى يصدر أمر بخلاف هذا .
قالت فى برود :
- وماذا عن الأمر الذى أصدره الجنرال (فاسيلوف) ؟

هزَّ كتفيه ، وقال :
ـ مجرَّد أمر شفهى .. لا يمكننى استخدامه للدفاع عن نفسى ، لو اتهمنى رؤسائى ورؤساؤه بالإهمال والتقصير .
ظلَّا لحظات يتبادلان نظرة أشد برودًا من الجليد المنهمر ، ثم أشاحت (ناديا) بوجهها ، وقالت فى جمود :
ـ لابد من تفتيش المنطقة كلها .
أجابها (شلينكو) فى صرامة :
ـ لقد أصدرت أوامرى بمحاصرة المنطقة كلها ، بدائرة يبلغ نصف قطرها ثلاثمائة متر ، وقمت بنفسى بتفتيش كل المنازل .
قالت بلهجة باردة مستفزة :
ـ ربما أقوم بتفتيشها بنفسى مرة ثانية .
انعقد حاجباه ، وهو يقول فى غضب :
ـ لماذا ؟.. ألا تثقين بعملى ؟
قالت بنفس البرود :
ـ لست أثق بأى مخلوق .
بدا الغضب على وجهه أكثر ، وهى تتابع :
ـ إنكم حتى لم تجدوا تفسيرًا لكيفية اختفاء ذلك الرجل .
قال فى حدة :
ـ وماذا عنك أيتها العبقرية ؟.. هل وجدت التفسير المناسب ، أم أنك تطلقين كلماتك فى الهواء فحسب ؟
ظلَّت ملامحها باردة ، وهى تلتفت إليه ، وهمَّت بقول شىء ما ، إلا أنها أحجمت بغتة ، وعقدت حاجبيها لحظات ، ثم رفعت رأسها

بحركة حادة إلى الشرفة القريبة ، فى البناية المجاورة ، وتطلَّعت إليها لحظة ، قبل أن تنقل بصرها مرة أخرى إلى النقطة ، التى انقطعت عندها آثار أقدام (أدهم) ، وراحت تقيس المسافة ببصرها عدة مرات ، ثم اعتدلت ، وشدَّت قامتها ، وهى تقول فى حسم :
ـ أريد طائرة هليوكوبتر .
تطلَّع إليها (شلينكو) لحظة فى دهشة ، قبل أن يقول :
ـ هليوكوبتر ؟!.. لماذا ؟.. هل تتصوَّرين أنه طار فى الهواء ؟
كرَّرت فى صرامة :
ـ أريد هليوكوبتر .
زفر فى عصبية ، ثم هزَّ رأسه فى حدة ، وقال :
ـ هذا يحتاج إلى تصريح كتابى .
أجابته فى حزم :
ـ عندى تفويض مباشر من الرفيق الجنرال (فاسيلوف) .
عقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى حدة :
ـ اذهبى واطلبيها إذن من سلاح الطيران .
تبادلا مرة أخرى تلك النظرة المتحدية ، التى تنافس الجليد برودًا ، ثم قالت (ناديا) :
ـ سأفعل .
وغادرت المكان فى خطوات سريعة ، تاركة (شلينكو) خلفها ، يتطلَّع إليها فى دهشة ، وعقله يحمل سؤالًا واحدًا ..
ـ ماالذى تنوى (ناديا) أن تفعله بوساطة هليوكوبتر ؟..

ولم يجد جوابًا مباشرًا .

★ ★ ★

ارتفع حاجبا (بوشكا) فى دهشة بالغة ، وهى تدير عينيها فى حجرتها الخالية ، ثم لم تلبث أن شعرت بتيار الهواء البارد ، القادم من النافذة نصف المفتوحة ، فهتفت فى مزيج من الدهشة والجزع :

ـ أيها الوسيم !.. ماذا فعلت ؟

اندفعت نحو النافذة ، ولكنها فوجئت بـ (أدهم) يعبرها إلى الداخل ، قبل أن تصل هى إليها ، وهو يقول فى بساطة :

ـ أنت على حق .. إنهم يحيطون بالمنطقة كلها ، إحاطة السوار بالمعصم .

هتفت به :

ـ أين كنت ؟

أشار إلى الخارج فى بساطة ، وقال وهو يعيد إغلاق النافذة فى إحكام :

ـ فى الخارج ، أراقب الموقف ، وأستعد للابتعاد ، لو أنهم أصرّوا على تفتيش المنزل .

ابتسمت فى جذل طفولى ، وهى تقول :

ـ فى الخارج ؟!.. أتعنى أنك كنت تقف فوق ذلك الأفريز الضيق ، وسط العاصفة الجليدية ، وعلى ارتفاع خمسة طوابق ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ نعم .. أعنى هذا .

صفّقت بكفيها فى حرارة ، وهى تقول :

ـ رائع .. أنت تشبه أبطال أفلام المغامرات .. إننى أعشق هذا النوع من الأفلام .

رمقها بنظرة ساخرة ، وهو يقول :

ـ أخبرينى .. لماذا انصرفوا ، دون أن يقوموا بتفتيش المنزل ؟

هزّت كتفيها ، وهى تقول فى زهو ودلال :

ـ إننى (بوشكا) .. الممثلة الأولى ، ولى أصدقاء فى مراكز شديدة الخطورة .

نبحت كلبتها الصغيرة فى هذه اللحظة ، فالتفتت إليها ، هاتفة فى حماس :

ـ معذرة يا (ميرا) .. لم أقصد عدم ذكر اسمك .. أنت بالطبع لا تقلين أهمية عنى .

كاد (أدهم) ينفجر ضاحكًا فى سخرية ، لولا أن دقة الموقف كانت تمنعه من هذا ، فالتقط معطفه ، وهو يقول :

ـ لا أعتقد أنهم سيظلون بعيدًا لفترة طويلة ، فالأمر أخطر من أن يمنحوا أية استثناءات لأى شخص ، مهما بلغت أهميته ، ومن الأفضل أن أبحث من الآن عن وسيلة لتجاوز الحصار ، قبل أن يعودوا .

غمغمت فى أسى ناعم :

ـ وهل تظنّ أن تجاوز الحصار يعنى النجاة ؟.. أنت تقول : إن الأمر خطير للغاية ، وأنا أجهل مافعلت بالضبط ، ولكن مايفعلونه هم يثبت أنه كذلك بالفعل ، وهذا يعنى أنهم لن يتركوا لك فرصة واحدة

للنجاة .. سيوزعون أوصافك على كل مراكز الحدود ، ويرفعون استعدادات الطوارئ إلى الذروة ، ويفتشون كل ذبابة تعبر الحدود ، بل ولن يتورعوا عن قتل كل من تنطبق عليهم الأوصاف ، حتى ولو أعدموا نصف الأجانب فى البلاد .. أنت لا تعرفهم مثلى .

أدهشه حديثها ، على الرغم من الثراء الواضح الذى تحيا فيه ، والذى يتناقض كثيرًا مع صورة الحياة التقليدية فى (الاتحاد السوفيتى) ، فسألها مباشرة :

- (بوشكا) .. لماذا تساعديننى ؟

تطلّعت إليه لحظة فى صمت ، ثم أجابت فى اعتداد :

- اعتبره نوعًا من الانتقام .

قالتها فى حسم واقتضاب ، مما يوحى بأنها لا تنوى شرح الأسباب ، فاكتفى منها بهذا القول ، وسألها فى اهتمام :

- ألديك خريطة للاتحاد السوفيتى ؟

عقدت حاجبيها وضمّت شفتيها ، وهى تقول فى جدية ، لم تناسب طبيعتها قط :

- أعتقد أنه هناك واحدة فى حجرة المكتب .

رفع حاجبيه ، قائلًا :

- لديك حجرة مكتب إذن ؟

أطلقت ضحكة قصيرة ، تلاشى معها كل مظهر للجدية ، فى صوتها وملامحها ، وهى تقول :

- نعم .. حجرة مكتب أنيقة ، بها مكتبة كبيرة ، تمتلئ الأرفف

فيها بكتب أنيقة ، ذات أغلفة زاهية ، ولكن الحقيقة أننى لم أقرأ سطرًا واحدًا منها .

سألها مبتسمًا :

- ما سرّ وجودها إذن ؟

أجابت فى بساطة :

- التصوير .. إنهم يجرون معى عشرات اللقاءات الصحفية والتليفزيونية ، وليس من الجيد ألا تكون لدى الممثلة الأولى مكتبة عامرة .. أليس كذلك ؟

ضحك قائلًا :

- بالتأكيد .. المهم أين الخريطة ؟

قادته إلى حجرة مكتب أنيقة ، تشترك مع باقى حجرات المنزل فى اتساعها وفخامتها ، وراحت تقلّب بعض الأوراق ، قبل أن تقول فى حماس :

- هاهى ذى .

التقط منها الخريطة الكبيرة ، وفردها فوق المكتب ، وراح يتطلّع إليها لحظة ، فسألته فى شغف واهتمام :

- عمّ تبحث ؟

ابتسم وهو يقول :

- إننى أراجع بعض المعلومات الجغرافية فحسب .

تطلّعت إلى وجهه لحظة ، ثم أشارت إلى نقطة ما على الخريطة ، قائلة :

- ما رأيك فى هذه ؟

سألها فى حذر لا يخلو من الدهشة :

- ماذا تقصدين ؟

هتفت في حماس :

- (لينينجراد)[*] .. إنها الاتجاه الأمثل ، لمن يرغب في الفرار ؛ فهي المفتاح لخليج (فنلندا) ، ومنها يمكنك عبور الحدود إلى (فنلندا)[**] ، لو استطعت عبور الخليج .

ارتفع حاجباه في دهشة حقيقية ، وهو يتطلّع إليها هذه المرة ، فقد كان هذا بالفعل ماستقرّ عليه رأيه ، قبل حتى أن يطالع الخريطة ؛ فكل الدول التي تشترك في حدودها مع الاتحاد السوفيتي ، تنتمي عمليًا إلى قيادته الشيوعية ، وخصوصًا تلك القريبة من (موسكو) ، فيما عدا (تركيا) في الجنوب ، و (فنلندا) في الشمال ، وكانت (فنلندا) هي الاختيار الأمثل ..

ولكن (بوشكا) نطقت هذا في تلقائية وحماس ، قبل أن تنكمش هامسة :

- أليس كذلك ؟

كاد يهنئها على حسن تفكيرها ، ولكنه احتفظ بمشاعره لنفسه ، وقال في هدوء :

(*) (لينينجراد) : ثانية مدن الاتحاد السوفيتي ، على الطرف الجنوبي لخليج (كريليا) ، وهي العاصمة السابقة لـ (روسيا) ، وكانت تحمل اسم (سان بطرسبرج) ، حتى عام ١٩١٤ م ، ثم حملت اسم (بتروجراد) من ١٩١٤ م وحتى ١٩٢٤ م ، وهي مقامة في دلتا نهر نيفا ، الذي يصب في خليج (فنلندا) .

(**) (فنلندا) : جمهورية في شمال (أوربا) ، يحدها خليج (بوثينا) وخليج (فنلندا) غربًا وجنوبًا ، و (السويد) و (النرويج) في الشمال الغربي ، والاتحاد السوفيتي في الشمال الشرقي ، ويفصلها عنه جنوبًا خليج (فنلندا) .

- هذا يحتاج إلى بلوغ (لينينجراد) أوّلًا :

ابتسمت وهي ترفع سبابتها أمام وجهها ، قائلة :

- وهنا تكمن المفاجأة .. المفروض أن أستقل قطار الفجر إلى هناك بالفعل ، لحضور العرض الأوّل لأحدث أفلامي (زهرة المروج) .

ثم عقدت حاجبيها ، مستطردة في قلق :

- ولكنهم يبحثون عنك ، ويحفظون أوصافك عن ظهر قلب .

قال في هدوء واثق :

- لكل مشكلة حل .

ثم أردف وهو يتطلّع إليها :

- ولكن هذا سيحتاج منك إلى التماسك والهدوء .. و .. والجرأة .

هتفت في حماس :

- إنني مستعدة لفعل أي شيء في الدنيا .

ثم انكمشت مستطردة في همس :

- من أجلك أيها الوسيم .

وكان من الواضح أنها مستعدة بالفعل لمعاونته ولأي مدى .

★ ★ ★

التقى حاجبا (منى) في شدة ، عندما بلغ (قدري) من روايته هذا الحد ، وتمتمت في شيء من العصبية :

- عظيم .. من الواضح أن (أدهم) قد وجد من يعاونه هذه المرة .

اعتدل (قدرى) فجأة ، وقال فى جدية وقلق :
- مهلًا .. إننى أشم رائحة ما .
حاولت أن تلتقط تلك الرائحة ، التى يتحدث عنها ، ولكنها عجزت عن هذا ، فقالت فى حيرة :
- أية رائحة ؟
ابتسم فى خبث ، وهو يقول :
- رائحة الغيرة .
قالها وانفجر يقهقه ضاحكًا ، فعادت تعقد حاجبيها فى حدة ، وهى تقول :
- أية غيرة ؟.. هل تظن أننى سأغار من (بوشكا) هذه ؟
هزَّ كتفيه ، وقال ضاحكًا :
- لو أننى فى مكانك لفعلت .
قالت فى عصبية :
- من حسن الحظ أنك لست فى مكانى .
مال نحوها ، وقال :
- هل رأيت صورة (بوشكا) هذه ؟
أجابته فى توتر :
- بالطبع .. هل نسيت تلك الفترة ، التى لم يكن لصحافة العالم من شاغل سواها ؛ لقد أرهقونا أيامها بالحديث عنها ، وبنشر صورها ، التى احتلت كل الصحف .
قال فى بساطة :
- كانت أخبارها تستحق هذا حينذاك .
مطت شفتيها ، وقالت :

- نعم .. أذكر هذا جيدًا .. صحيح أنها باهرة الحسن والجمال ، ولكنها بالتأكيد ليست الطراز الذى يفضّله (أدهم) .
قال فى مكر ، محاولًا إغاظتها :
- ومن أدراك ؟
عاد حاجباها ينعقدان فى حدة ، وهى تقول :
- لا تقل لى : إن (أدهم) مال إليها .
ضحك قائلًا :
- هذا ماستجيب عنه الأحداث .
نظرت إلى ساعتها ، وقالت :
- فليكن .. سأستمع إلى الفصل الختامى ، وأذهب إلى مكتبى .
ابتسم قائلًا :
- كلّا .. لو أنك ترغبين حقًّا فى سماع القصة حتى نهايتها ، فسيتأخّر ذهابك إلى مكتبك كثيرًا ، فنحن لم نبلغ الأحداث الحقيقية بعد .
قالت فى دهشة :
- كيف ؟.. المفروض ألا يجد (أدهم) صعوبة فى السفر إلى (لينينجراد) ، فهو يجيد التنكّر ، و ...
قاطعها مبتسمًا :
- ولكننى لم أكن هناك .
قالت فى دهشة أكبر :
- وماذا فى هذا ؟
أجاب فى سرعة :
- لم تكن لديه إذن أية أوراق ، تتيح له عبور حصار أمنى كهذا .

بدا وكأنها قد انتبهت إلى تلك النقطة ، وهى تقول فى قلق :

ـ هذا صحيح .. ماالذى فعله إذن ؟

قال (قدرى) ، وهو يلوّح بيده :

ـ بل قولى ماالذى فعلوه هم ؟

قالت متسائلة :

ـ أتقصد السوفيت ؟

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ ليس كل السوفيت ، وإنما تلك الحملة الشرسة ، التى خرجت للبحث عنه ، دون أن يكون هناك اتصال فعلى ورسمى بين أطرافها الثلاثة .. (ناديا) و (شلينكو) و (إيزاك) ، وخلفهم قوة الأمن السوفيتية كلها .

اعتدلت ، قائلة فى اهتمام بالغ :

ـ أتقصد أن (أدهم) كان يواجه (روسيا) كلها وحده .

تراجع قائلًا :

ـ تقريبًا .

التقطت نفسًا عميقًا ، وقالت :

ـ فليكن يا (قدرى) .. لقد نجحت فى إشعال فضولى ، حتى أقصى حد .. لن أذهب إلى مكتبى الآن ، وسأستمع منك إلى باقى القصة .. هيا .. كلى آذان صاغية .

قال فى حماس :

ـ استمعى إذن .

وراح يروي لها الجزء الثانى من المغامرة .

الجزء الأكثر خطورة .

★ ★ ★

٩ ـ أسوار الخطر ..

« .. لا .. لايمكننى السماح بخروج هليوكوبتر .. »

نطق مسئول الطيران هذه العبارة ، فى صرامة وحزم ، وهو يتطلع إلى (ناديا) ، التى تأملته لحظة فى برود ، قبل أن تقول :

ـ يبدو أنك لم تستوعب الأمر جيدًا .. إننى أحمل ...

أكمل حديثها فى حدة :

ـ تفويضًا عامًا من الرفيق الجنرال (تينو فاسيلوف) ، أحد أقوى رجال مجلس السوفيت الأعلى ، والمشرف العام على نشاط الـ (كى . جى . بى) .. نعم .. أعلم هذا ، لقد أخبرتنى به منذ البداية ، ولكن هذا لن يغيّر من الأمر شيئًا ، فمازلت أرفض خروج هليوكوبتر الآن ، والسبب واضح جلىّ ، فالهليوكوبتر لايمكنها التحليق ، وسط عاصفة جليدية كهذه .. هل هذا مفهوم ؟

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ـ سأتحمّل المسئولية .

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لن تجدى طيارًا واحدًا ، يقبل قيادة هليوكوبتر ، فى مثل هذا المناخ .

قالت فى صرامة :

ـ سأقودها بنفسى .

أجابها فى لهجة أكثر صرامة :
- آسف .. لن يقود طائراتى سوى طيارين معتمدين .
قالت وقد عاودها برودها :
- إننى أحمل تصريحًا خاصًا ، بقيادة كل أنواع الطائرات ، فأنا واحدة من أفراد الفريق الأوَّل من القوات الخاصة ، فى الـ (كى . جى . بى) ، ولقد تلقيت تدريبًا خاصًا ، على أعلى مستوى .
مضت لحظة ، وهو يتطلَّع إليها فى صمت ، قبل أن يميل نحوها ، قائلًا :
- فى هذه الحالة تكونين على دراية جيِّدة بعلوم الطيران ، وتعلمين حتمًا أن الهليوكوبتر بالذات لا يمكنها التحليق ، عندما تزيد سرعة الرياح ، وتنخفض درجة الحرارة ، إلى هذا الحد ، ثم إن الجليد المنهمر يثقل مروحتها العلوية ، ويبطئ من سرعةدورانها ، مما يعرِّضها لخطر داهم .
قالت فى ضيق :
- ولكن الأمر بالغ الخطورة بالفعل ، وكل دقيقة نفقدها ، قد تتسبَّب فى كارثة أمنية رهيبة .
قلب كفيه ، قائلًا :
- ما باليد حيلة .. لابد أن ننتظر انتهاء العاصفة ، وتوقُّف انهمار الجليد .. هناك أمور تحكمها الطبيعة ، ولا يمكن إخضاعها لمشيئتنا .
بلغ انعقاد حاجبيها حده الأقصى هذه المرة ، حتى خُيِّل لمسئول الطيران أنهما سيمتزجان ، وهى تتطلَّع عبر النافذة إلى الخارج ، ثم

تغمغم فى حزم صارم :
- هذا صحيح .. ولكن الانتظار سيفسد كل شيء .
ثم اعتدلت مضيفة فى حسم :
- فليكن .. لكل منا واجباته وأساليبه .
واندفعت مغادرة المكان ، وهو يتابعها ببصره فى دهشة بالغة ، ويتمتم :
- يبدو أن الفجر لن ينبلج بسهولة هذه الليلة .
كان يدرك أن الساعات القادمة ستحمل حتمًا الكثير .. والكثير جدًا ..

* * *

انعقد حاجبا رئيس مجلس السوفيت الأعلى فى غضب ، وهو يضمّ معطفه المنزلى الأنيق حول جسده ، ويشعل سيجارًا كوبيًّا فاخرًا ، وينفث دخانه فى توتر ، ثم تطلَّع إلى (شلينكو) لحظة فى صمت عصبى ، قبل أن يقول :
- أتعشّم أن يكون الأمر عاجلًا وبالغ الخطورة بالفعل ، أيها الرفيق (شلينكو) ، فلن يروقنى قطعًا أن يوقظنى أى شخص ، فى الثالثة صباحًا ، إلا لو كان السبب يهدِّد أمن الدولة كله .
تنحنح (شلينكو) ، وازدرد لعابه ، فى صعوبة ، قبل أن يقول فى توتر واضح :
- إنه كذلك بالفعل ، أيها الرفيق الرئيس .
مطَّ الرئيس شفتيه ، وعقد حاجبيه الكثَّين ، ثم جلس خلف مكتبه ، ولوَّح بكفه ، قائلًا :
- لماذا ؟.. ماالذى حدث بالضبط ؟.. هل أعلنوا قيام حكومة

رأسمالية ؟.. أم أن الأمريكيين قد هبطوا بقواتهم على شواطئنا ؟

قال (شلينكو) :

ـ لا هذا ولا ذاك أيها الرفيق الرئيس ، ولكن هناك من يسعى لحدوث هذا .

يسأله الرئيس فى صرامة :

ـ هل تدرك خطورة ما تقول ؟

أومأ (شلينكو) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع أيها الرفيق الرئيس ، ولدى كل الأسباب والمبرِّرات .

تطلَّع إليه الرئيس لحظات فى صمت ، ثم صبَّ لنفسه كأسًا من (الفودكا) ، وهو يقول :

ـ هيا أيها الرفيق (شلينكو) .. هات مالديك .

لم يكد ينطق هذه العبارة ، التى ينتظرها (شلينكو) بفارغ الصبر ، حتى اندفع هذا الأخير يروى مالديه فى حماس ، وهو يبالغ فى وصف تخاذل (فاسيلوف) إزاء الموقف ، ويخفِّف كثيرًا من قدرات (أدهم) ومهاراته ، ليوحى بوجود تأييد داخلى لما فعله ، ثم ضخَّم دور (أندريه رابين) ، وأوحى للرئيس بأنه وراء كل هذا ، وأنهى روايته قائلًا فى انفعال :

ـ وبعد اختفاء ذلك الجاسوس ، الذى أشك كثيرًا فى أنه مصرى كما يدّعون ، وكما حاول إيهامنا بجواز سفره الزائف ، كان من المفروض أن يكوِّن الرفيق الجنرال (فاسيلوف) فريقًا للبحث ، ويطلقه خلف الرجل ، الذى استولى على واحد من أخطر وأدق

أسرارنا ، ولكنه بدلًا من هذا ، أرسل خلفه حارسته الخاصة ، ومنحها تفويضًا كاملًا لمطاردة ذلك الرجل .

نفث الرئيس دخان سيجاره فى توتر ، وهو يقول :

ـ وماالذى يعنيه هذا فى رأيك ، أيها الرفيق (شلينكو) ؟

هزَّ (شلينكو) كتفيه ، وقال :

ـ إننى أترك التفسير لك أيها الرفيق الرئيس .. ماالذى يعنيه كل هذا ؟.. جاسوس ينجح فى التسلّل إلى مبنى الـ (كى . جى . بى) ، ويقتحم مكتب مدير الجهاز ، بشكل علنى سافر ، لأوَّل مرة فى التاريخ ، ويتصادف أن تكون هناك قائمة كاملة بأسماء كل عميل لنا فى (مصر) ، على مكتب الرفيق الجنرال (فاسيلوف) ، ويختطفها الجاسوس ، ثم ينجح فى الفرار ، وبعدها تقتل (ناديا) قائد الأمن ، بحجة أنه المسئول عن كل هذا ، ويسند إليها الرفيق الجنرال وحدها ، مهمة استعادة تلك الأسرار .. وبالمناسبة .. إننى لم أحصل على هذه المعلومات بشكل رسمى أو مباشر ، ولكنها تقلقنى بشدة .. مارأيك أنت أيها الرفيق الرئيس ؟

ازداد انعقاد حاجبى الرئيس الكثَّين فى شدة ، وراح ينفث دخان سيجاره فى كثافة ، وكأنه قاطرة بخارية قديمة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ اسمع يا (شلينكو) .. سنحتفظ بكل هذا سرًّا فيما بيننا ، وفى الوقت نفسه سأسند إليك ، وبصورة سرِّية ، مهمة العثور على ذلك الجاسوس ، واستعادة كل الوثائق البالغة الخطورة منه .

برقت عينا (شلينكو) فى ظفر ، والرئيس يتابع :
ـ دع (ناديا) تواصل عملها ، دون أن تدرك أننا نراقبها ، ولنر ماالذى تهدف إليه حقًا .. هل ستسعى لاقتناص الرجل ؟ أم ...
لم يتم عبارته ، ولكن (شلينكو) فهم مايقصده ، وازداد بريق عينيه ظفرًا وارتياحًا ..
لقد وجد فرصته لاستعادة مكانته ، وسحق غرور (ناديا) وبرودها ..
وفى الوقت نفسه ، أصبح بإمكانه قيادة حملة مكثفة ، لإلقاء القبض على ذلك الجاسوس ، واستعادة القائمة والميكروفيلم منه ..
وهذا يعنى وسام شجاعة من الطراز الأوَّل ..
ونوط الواجب ..
وترقية ..
وانتفخت أوداجه ، وهو يحلم بكل هذا ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى صرامة ، وهو يتابع أفكاره ، مدركًا أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الحلم ، هى الظفر بالرجل الذى فجَّر كل هذا .
بـ (أدهم) ..
(أدهم صبرى) ..

* * *

ضمَّت (ناديا مينوفيتشى) ياقتى معطفها الرسمى ، وهى تقف فوق سطح إحدى البنايات ، فى المنطقة التى اختفى فيها (أدهم) ، تحت الجليد المنهمر ، وقد ارتدت على رأسها قلنسوة أنيقة من

الفراء ، وراحت تدير عينيها فى الأسطح المجاورة ، حتى سألها أحد رجال الأمن ، المصاحبين لها :
ـ هلَّا أخبرتنى عمَّ نبحث بالضبط ، أيتها الرفيق (ناديا) ؟
ظلَّت صامتة لحظات ، وعيناها الزرقاوان تبحثان فيما حولها ، قبل أن تجيب فى اقتضاب :
ـ عن أثر .
سألها فى اهتمام :
ـ أى أثر ؟
رمقته بنظرة باردة ، ثم تجاهلت سؤاله تمامًا ، وقالت :
ـ دعنا ننتقل إلى سطح آخر .
قالتها ووثبت فى رشاقة ، متجاوزة مترين من الفراغ ، قبل أن تستقر فوق سطح مجاور ، أسرعت الخُطَى فوقه ، حتى بلغت نهايته ، وقفزت منه إلى ثالث ، وفريق الأمن المصاحب لها يتبعها ، من سطح إلى سطح ، إلى أن استقرَّ بهم المقام فوق السطح الخامس ، ولهث رجل الأمن ، وهو يكرِّر سؤاله :
ـ عن أى أثر نبحث ، أيتها الرفيق :
صمتت لحظة أخرى ، ثم أجابت فى برود :
ـ هذا الرجل لم يطر فى الهواء... أليس كذلك ؟
أجابها ، وهو فى دهشة من سؤالها :
ـ بالتأكيد .
قالت فى نفس البرود :

التفسير المنطقى الوحيد إذن ، هو أنه تعلّق بشىء منه ، ثم صعد إلى سطح أقرب بناية إليه ، وأخذ يقفز من سطح إلى سطح ، كما نفعل نحن الآن .. وهذا يعنى أن المطاف سينتهى به أخيرًا إلى نهاية الحى ، وهناك سيضطر إما إلى الهبوط ، ومواجهة رجالنا ، الذين يحاصرون المكان بمنتهى الحزم ، أو إلى البقاء مختبئًا ، فوق أحد الأسطح .. أما الحل الثالث ، فهو احتلال أحد المنازل ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، والتقى حاجباها فى شدة ، وهى تحدّق فى نقطة ما ، فأكمل رجل الأمن ، الذى انتبه إلى ما أصابها :

- وإجبار أصحابه على استضافته .. أليس كذلك ؟

قالت فجأة ، وهى تشير إلى النقطة التى كانت تتطلّع إليها :

- اتبعونى .

واندفعت تقفز إلى سطح آخر ، وآخر ، وآخر ، حتى هبطت فوق أحد الأسطح ، وقالت مشيرة إلى فجوة كبيرة فى منتصفه :

- ما هذا ؟

تطلّع رجل الأمن إلى الفجوة ، وقال لاهثًا :

- إنه سطح مكسور .. من الواضح أنها نافذة علوية ، لجلب أشعة الشمس ، فى الأيام المشمسة ، ولكن الجليد المتكوّن فوقها حجبها عن الأنظار ، و ...

بتر عبارته بدوره ، وارتفع حاجباه فى دهشة ، قبل أن يستطرد فى حماس :

- لقد قفز ذلك الرجل فوقها ، متصورًا أنها جزء من السطح ،

فهوى داخل المنزل .. أليس كذلك ؟

قالت (ناديا) فى حسم :

- بلى .. منزل من هذا ؟

أجابها الرجل فى توتر :

- إنه منزل (بوشكا) .. الممثلة الأولى فى بلادنا ، وصاحبة الاتصالات القوية ، والـ ...

قبل أن يكمل عبارته ، كانت (ناديا) قد انتزعت مسدسها الآلى من غمده ، ووثبت عبر الفجوة ، هاتفة :

- اتبعونى .

استقرّت داخل حجرة المعيشة ، التى كستها الثلوج ، ثم اندفعت نحو بابها ، وضربته بقدمها فى عنف ، صائحة :

- لا أريد مقاومة .. فليرفع كل من فى المنزل أيديهم ، أو نطلق النار .

قفز فريق الأمن من خلفها ، وتبعوها وهى تعدو عبر ممر طويل ، حتى بلغت حجرة نوم (بوشكا) ، وصاحت :

- أنتم أردتم هذا .

وبلا تردّد ، انهمرت رصاصات مسدسها الآلى على رتاج الباب ، فنسفته فى قوة ، وقفزت داخل الحجرة ، وتبعها رجالها ، و ...

وانهمرت الرصاصات كالمطر ..

ثم صاحت (ناديا) :

- توقّفوا .



قبل أن يكمل عبارته ، كانت (ناديا) قد انتزعت مسدسها الآلى من غمده ، ووثبت عبر الفجوة ، هاتفة :

ــ اتبعونى ..

رفع الجميع سبّاباتهم عن أزندة مدافعهم الآلية ، فور سماع صيحتها ، واشتركوا معها فى نظرة دهشة واستنكار إلى الحجرة ، التى أحالتها رصاصاتهم إلى أنقاض .

لقد أصابت الرصاصات كل شىء .

فيما عدا الهدف المنشود ..

لقد كانت الحجرة خالية ..

خالية تمامًا ..

★ ★ ★

رفعت (بوشكا) حاجبيها فى دهشة ، وهزّت رأسها وهى تبتسم ابتسامة حائرة ، وتغمغم :

ــ عجبًا !!.. مازلت أعجز عن تصديق هذا !.. كيف أبدلت ملامحك على هذا النحو ؟

كانت تجلس فى المقعد الخلفى لسيارتها الجديدة ، فى حين يحتلّ (أدهم) مقعد السائق ، وقد اصطبغ شعره كله بالشيب ، وأضيف تحت أنفه شارب كثّ ، وامتلأ وجهه بالتجاعيد .. وحتى صوته بدا مختلفًا ، وهو يجيبها مبتسمًا :

ــ لم يكن ذلك صعبًا ياعزيزتى ؛ فلديك كنز (على بابا) ، بالنسبة لأى شخص يرغب فى تبديل ملامحه .. إننى لم أر أبدًا كل هذا الكم من أدوات (المكياج) ، عند امرأة واحدة .

هتفت فى حدة :

ــ إننى ممثلة .

ثم تراجعت حدتها بسرعة ، وهى تستطرد :

ـ ثم إننى ، وبكل هذه الأدوات ، لا يمكننى فعل مافعلته أنت ، فى دقائق معدودة .. إنك تستخدم المساحيق والمعاجين بمهارة مدهشة ، وبتركيبات لم أرها قط من قبل .. إنك تصلح كأستاذ ، فى عالم السينما ، أين تعلّمت كل هذا ؟.. ومتى ؟.

قال فى حسم :

ـ دعينا من كل هذا ، وأخبرينى .. ألَنت مستعدة لمواجهة المشكلات ، التى قد تنشأ من وجودك معى ؟

قالت فى حماس :

ـ بالطبع .

ثم هزت كتفيها فى لا مبالاة ، مستطردة :

ـ ولكن لن توجد أية مشكلات حتمًا .. إنك لاتدرك قيمتى هنا .. أنا كنزهم الفنى ، الذى يربح جوائز الرأسماليين باستمرار .

أجابها فى جدية :

ـ استعدى إذن ، فلقد بلغنا منطقة الحصار ، والمشكلات قد تولد هنا ، بسرعة لن يمكنك استيعابها أو تصديقها .

قالها وضغط فرامل السيارة ، وأوقفها أمام جندى الأمن ، الذى يرفع يده فى صرامة ، والذى صوّب مدفعه الآلى إلى (أدهم) فى تحفز عدوانى ، وهو يقول :

ـ أوراقك .. ماذا تفعل هنا ؟.. ولماذا خرجت فى مثل هذا الطقس ؟

لم يكن (أدهم) يحمل أية أوراق ؛ لذا فقد تحفزت أصابعه بدوره ، واستعدت عضلاته كلها للقتال ، وهو يحصى عدد الجنود الذين يحيطون بالسيارة ، بنظرة فاحصة سريعة ، ولكن (بوشكا) برزت فجأة ، وهى تحتضن كلبتها (ميرا) ، وتميل إلى الأمام ، لتدخل دائرة الرؤية بالنسبة للجندى ، وهى تبتسم ابتسامة فاتنة خلّابة ، وتقول :

ـ إنه سائقى أيها الرفيق .. أنا (بوشكا) .

تهلّلت أسارير الجندى لحظة ، وأطلّت السعادة فى عينيه ؛ لرؤيته فاتنة السينما السوفيتية وجهًا لوجه ..ثم لم يلبث أن شعر بالقلق ، وبدت له السعادة وكأنها ترف رأسمالى ، لايحق له الاستمتاع به ، فاستجلب شيئًا من الصرامة ، وهو يقول :

ـ ولماذا خرجت فى هذه الساعة أيتها الرفيق (بوشكا) ؟.. إن موعد شروق الشمس يقترب .

قالت (بوشكا) فى مرح :

ـ بالطبع .. إنه موعد شروق الشمس .

وأسبلت جفنيها الجميلتين ، وضمّت (ميرا) إلى صدرها فى هيام ، وهى تستطرد :

ـ أليس هذا رائعًا ؟

نبحت (ميرا) ، وكأنها تؤيد صاحبتها ، وكاد الجندى يذوب انبهارًا وإعجابًا ، حتى أن الصرامة عجزت عن ملء صوته هذه المرة ، وهو يقول :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

كاد (أدهم) يشاركه السؤال نفسه ، وهو يحاول معرفة العلاقة بين جمال شروق الشمس ، وخروجها فى طقس شديد البرودة ، حتى أنه ليستحيل معه أن ترى الشمس ، حتى ولو بلغ الوقت منتصف النهار .

أما (بوشكا) نفسها ، فقد بدت شديدة البساطة والحماس ، وهى تجيب الجندى :

- ألا تقرأ الصحف يا فتى ؟!.. ألا تتابع (البرافدا) ؟

ارتبك الجندى ، وهو يقول :

- إننى أتابعها بالطبع .. إنها الجريدة الرسمية ، وكل وطنى مخلص ينبغى أن ...

قاطعته بحماس طفولى عجيب :

- إذن فأنت تعلم أننى سأسافر بالقطار الآن ، إلى (لينينجراد) ؛ لأحضر هناك العرض الأول لفيلمى (زهرة المروج) ، وسيحضر هذا العرض الرفيق رئيس المدينة ، وبعض الرفاق الجنرالات ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، لتعقد حاجبيها ، مستطردة فى حدة مفاجئة :

- وأنت تضيع وقتى .. سيفوتنى القطار .. كيف أبرر هذا للرفاق الجنرالات ، وأعضاء الحزب ؟!

تراجع الجندى بسرعة ، ولوح بيده قائلًا فى توتر :

- معذرة أيتها الرفيق (بوشكا) .. إننى لم أقصد هذا بالطبع .

انطلق (أدهم) بالسيارة على الفور ، والجندى يؤدى التحية ، مستطردًا :

- أرجو ألا تذكرى هذا للرفاق الجنرالات فى (لينينجراد) .

جلست فى مقعدها باعتدال وراحت (ميرا) تطلق النباح تلو الآخر ، ثم تثاءبت ، واستكانت بين ذراعيها ، و (أدهم) يقول مبتسمًا :

- لك طريقة فريدة فى تصريف أمورك يا (بوشكا) .

سألته فى لهفة :

- هل أعجبتك ؟

أومأ برأسه ، قائلًا :

- بالتأكيد .. كنت طبيعية للغاية ، حتى أننى أنا نفسى كدت أصدقك .

صفقت بكفيها فى جذل ، على نحو أزعج (ميرا) ، فأطلقت نباحًا اعتراضيًا ، فى حين قالت (بوشكا) فى سعادة :

- إنه دور جيد .. هل رأيت كيف أقنعته ؟.. إنها المرة الأولى ، التى أمثل فيها دورًا كهذا ، فى الحياة الواقعية .

غمغم فى خفوت :

- كان عظيمًا .

ارتفع حاجباها فى زهو ، وهى تقول :

- ولكنه لايقارن بدورى فى فيلم (مصرع طاغية) .. كنت أقوم بدور أميرة ، ترفض الواقع الذى تعيشه ، وتتعاطف مع العمال

والفلاحين ، وطبقات الشعب الكادحة ، ولن أنسى ذلك المشهد ، الذى ...

تركها تسترسل فى روايتها ، وحارب الضجر المنبعث فى أعماقه بمراجعة كل معلوماته عن (الاتحاد السوفيتى) ، ووسائل الأمن والحماية المبالغة ، التى يتبعها السوفيت ؛ للسيطرة على حدودهم ، ومحاربة محاولات الغزو الفكرى الأمريكى ..

كان يعلم أن السوفيت يبالغون فى وسائل الأمن ، وأن هذا لن يجعل مهمته سهلة أبدًا ، ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ لايستطيع التنازل عن ذلك المكسب الذى حصل عليه ، ولايملك إلا أن يقاتل ـ وبكل مايملك من قوة ـ ليغادر الأراضى السوفيتية ، ويضع قدميه على أرض أخرى ، تتيح له فرصة إرسال القائمة وأفلام (الميكروفيلم) إلى (القاهرة) ..

وكان يدرك أيضًا أن السوفيت بدورهم سيقاتلون ، بكل شراسة وعنف ؛ لمنعه من بلوغ هذا .

انتزعه من أفكاره صوت (بوشكا) ، وهى تقول فى ثقة :

ـ هاهى ذى محطة القطار .. لقد تجاوزنا منطقة الخطر ، وانتهت متاعبك تقريبًا أيها الوسيم .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يسمع حديثها ؛ فهو ـ كرجل مخابرات محنك ـ يدرك أن منطقة الخطر لاتقتصر على نطاق الحصار فحسب ، بل تتجاوزه إلى حدود (الاتحاد السوفيتى) كلها ، وأن طريق المتاعب مايزال ممتدًا وطويلًا ، و ...

ومخيفًا .

* * *

١٠ ـ المحطة الأولى ..

انعقد حاجبا مدير المخابرات المصرية فى شدة ، وهو يطالع برقية عاجلة من (موسكو) ، انتهى الخبراء ، منذ دقائق معدودة ، من فك شفرتها ، وغادر هو من أجلها فراشه ، قبل شروق الشمس ، وبدا شديد العصبية والتوتر ، وهو يسأل النقيب (حازم) :

ـ ماالذى يعنيه هذا بالضبط ؟.. أليس من المفروض أن تقتصر رحلة (أدهم) على التدريب فحسب ؟

أومأ (حازم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بلى ، ولكنه ، ولسبب ما ، أشعل الدنيا هناك ، وأقامها ولم يقعدها ..

هتف المدير فى غضب :

ـ ياله من أحمق !

أجابه (حازم) بسرعة :

ـ لا أعتقد هذا ياسيدى .. إننى أعرف (أدهم صبرى) تمام المعرفة .. وربما أكثر مما يعرفه أى شخص آخر هنا ، باستثناء (قدرى) بالطبع ، وهو ـ على الرغم من عناده ـ شديد الالتزام بالأوامر ، مالم يستجد جديد ، يرى معه ضرورة تجاوز هذه الأوامر ، وارتجال أسلوب جديد للمواجهة .. ثم إنه لا يقاتل بهذه الضراوة ، وبهذه الصورة السافرة ، إلا لو كان الأمر بالغ الخطورة بالفعل ، ويهدد أمن (مصر) كلها ، لا مجرد أمنه الشخصى .

قال المدير فى توتر :

ـ وماهذا الأمر البالغ الخطورة ، الذى جعله يثير ثائرة جهاز الأمن فى (موسكو) ، ويدفعه إلى التحرّك بصورة عنيفة ومباشرة ، على النحو الذى أثار انتباه رجلنا هناك ، وجعله يرسل إلينا هذه البرقية العاجلة ؟

هزّ (حازم) رأسه ، وقال :

ـ لم تصلنا التفاصيل بعد ياسيّدى .

مطّ المدير شفتيه ، واستغرق فى التفكير بعض الوقت ، ثم قال :

ـ فليكن .. لم يعد هناك مجال للتردّد أو التراجع ، لقد تفجّر الموقف بالفعل ، وعلينا أن نواجهه بسرعة وحكمة وواقعية .

واعتدل مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ أرسل برقية سرية لسفارتنا فى (موسكو) ، واطلب منهم القيام بالإجراءات اللازمة ، لترحيل (أدهم) من هناك بأسرع وسيلة ممكنة ، وأرسل إليه جواز سفر دبلوماسيًا ، فى أوّل طائرة ذاهبة إلى (الاتحاد السوفيتى) .

تنحنح (حازم) لحظة ، ثم قال :

ـ كما تأمر ياسيّدى ، ولكننى لاأعتقد فى الواقع أن (أدهم) سيلجأ إلى سفارتنا فى (موسكو) .

عاد حاجبا المدير ينعقدان ، وهو يقول فى حدة :

ـ ولِمَ لا ؟.. هذا هو الإجراء المنطقى والطبيعى .. لقد أثار قوات أمن دولة أجنبية ، والوسيلة الوحيدة لفراره من أيديهم ، هى أن يلجأ إلى سفارته .

قال (حازم) :

ـ هذا بالضبط هو السبب ، الذى يجعلنى أثق بأن (أدهم) لن يلجأ إلى سفارتنا فى (موسكو) ، فمن أهم خصائص وسمات شخصية (أدهم) ، أنه لايتجه دائمًا إلى حيث يشير المنطق والعقل ، لأنه يعلم أن هذا هو ماتتجه إليه عقول الجميع ، فى المواقف المتفجّرة ، ويعلم أن السوفيت سيحاصرون سفارتنا هناك حصارًا شديدًا ، فور تحديدهم لهويته ، مما يجعل الذهاب إليها هو الإجراء الأكثر خطورة ، والذى أتوقّعه حقًا ، هو أن (أدهم) سيبذل قصارى جهده ، لعبور حدود (الاتحاد السوفيتى) .

قال المدير فى عصبية :

ـ وهل تظن هذا سهْلًا ؟

هزّ (حازم) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ مطلقًا ، ولكن (أدهم) لن يستسلم ، وسيقاتل حتى آخر رمق .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وهو يستطرد :

ـ ولو أن فكرتى عنه صحيحة ، وهذا هو الأرجح ، فأعتقد أن النتائج لايمكن توقّعها أبدًا ، وأن النهاية ستكون مدهشة ..

واتسعت ابتسامته قليلًا ، وهو يضيف :

ـ مدهشة بحق ..

★ ★ ★

تفجّرت دهشة عارمة فى وجه الجنرال (فاسيلوف) ، وهو

يحدّق فى وجه (ناديا) ، هاتفًا فى استنكار :

ـ (بوشكا) ؟!.. مستحيل !.. لايمكن أن تتورُط (بوشكا) ، فى مثل هذا الأمر !

أجابته (ناديا) فى حزم :

ـ ولكنها تورُطت بالفعل ، وبكامل إرادتها .

هتف :

ـ مستحيل !

قالت (ناديا) ، وهى تنظر إلى عينيه مباشرة :

ـ الأمر أوضح من أن يمكننا إنكاره ، ولقد أجريت تحقيقًا سريعًا حول كل ماحدث ، وجاءت النتائج كلها لتؤيّد ما ذهبت إليه فى تفكيرى ، فلقد شهد أحد الجيران أنه سمع قرقعة عنيفة فى حجرة معيشتها ، التى يلاصق جدارها حجرة نومه ، وأعقب القرقعة صوت ارتطام جسم بالأرض ، وسمع صرخة (بوشكا) ، فى توقيت يتوافق مع التوقيت الذى اختفى فيه ذلك الجاسوس ، مما يعنى أنه حطّم سقف حجرة معيشتها ، وسقط فيها .. وعلى الرغم من هذا ، لم تحاول الرفيق (بوشكا) إبلاغ الشرطة .

قال (فاسيلوف) :

ـ ربما أجبرها ذلك الرجل على ذلك .

أجابته فى حزم :

ـ ولكن فريق الأمن ذهب لتفتيش منزلها ، وباستجواب أحد جنوده أكّد أنها منعت دخولهم تمامًا ، وهدّدتهم بإبلاغ أصدقائها من

المسئولين ، وأمكنها إثارة قلق الرفيق (شلينكو) وذعره ، فانصرف دون أن يفتش شقتها .

أسرع (فاسيلوف) يقول :

ـ هذا لايتعارض مع كونها مهدّدة .

لوّحت (ناديا) بكفها ، وهى تقول :

ـ ولكن الجندى أكّد أنها كانت متمالكة لجأشها تمامًا ، بل حازمة أكثر مما ينبغى .

بدا القلق والتردّد على وجه (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ لست أدرى يا (ناديا) .. الأمر ليس ..

قاطعته قائلة :

ـ الأمر الذى أكّد كل هذه الشكوك ، وحوّلها إلى حقيقة لاتقبل الجدل ، هو أن (بوشكا) استقلّت القطار منذ أقل من ساعة ، فى طريقها إلى (لينينجراد) .

رفع عينيه إليها ، وقال :

ـ كان هذا مقرّرًا من قبل .

ابتسمت فى برود ، وهى تجيب :

ـ بالطبع .. ولكنها سافرت مع سائقها الخاص ، وكان هذا السائق رجلًا أشيب الشعر ، كث الشارب ، مغضّن الوجه .

التقى حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟!.. ولكننى أعرف سائقها الخاص جيدًا .. إنه شاب وسيم ، لم يتجاوز الرابعة والثلاثين ، و ...

بتر عبارته بغتة ، ليهتف :

ـ اللعنة !.. لقد فهمت كل شيء .. ذلك السائق كان الجاسوس متنكرًا .

رفعت (ناديا) سبابتها أمام وجهها ، وهي تقول :

ـ بالضبط .. لقد ساعدته على التنكر ، وجعلته يرافقها إلى القطار ، الذي ينطلق بهما الآن ، في طريقه إلى (لينينجراد) .

ثم اعتدلت مستطردة في صرامة :

ـ وهذا يعني أنهما تحت سيطرتنا تمامًا ، ولا ينقصنا للانقضاض عليهما ، سوى أمر مباشر .

التقى حاجباه ، وهو يغمغم :

ـ لن يكون إلقاء القبض على (بوشكا) أمرًا سهلًا ، فاتصالاتها متعددة ، وعلاقاتها قوية ، و ...

صمت لحظات مفكرًا في قلق ، فقالت (ناديا) بنظرة ماكرة :

ـ لست أظن أحدًا يجرؤ على الوقوف إلى جوارها ومساندتها ، لو أثبتنا أنها جاسوسة رأسمالية ، تسعى لتقويض دعائم نظامنا الأمثل .

قال في عصبية :

ـ وهل يبدو لك مثل هذا الإثبات سهلًا ؟

أجابته في دهاء :

ـ بالطبع .. لقد فتشنا منزلها ، وعثرنا على وثائق تدينها ، وأوراق تكفي لمحاكمتها ، مما دفعها إلى الهروب مع الجاسوس .. إنها ليست أول مرة نفعلها ، ولكننا في هذه المرة سننقل القتال إلى

ساحة جديدة ، تجعل التدخل لنجدتها محفوفًا بمخاطر شتى .

سألها في اهتمام :

ـ أية ساحة ؟

أجابت على الفور :

ـ الإعلام .. سنذيع الخبر في وسائل الإذاعة ، وننشره في طبعة خاصة من (البرافدا) ، وبعدها لن يجرؤ الرفيق الرئيس نفسه ، على التورط في الأمر .

انعقد حاجباه في شدة ، وراح عقله يدرس اقتراحها بسرعة تفوق سرعة البرق ، ثم لم يلبث أن ضرب سطح مكتبه بقبضته ، قائلًا في حزم صارم :

ـ فليكن .. سنهدم المعبد على رءوس الجميع .. المهم أن نستعيد القائمة والأفلام ، مهما كان الثمن .. هل تفهمين يا (ناديا) ؟.. مهما كان الثمن .

اعتدلت في ارتياح ، وهي تقول :

ـ اطمئن أيها الرفيق الجنرال .. سنستعيد بضاعتنا ، حتى ولو اضطررت إلى نسف قطار (لينينجراد) كله .

قالتها وعيناها الزرقاوان تبرقان في شدة ، وفمها الجميل يحمل شبح ابتسامة باهتة ، يطل منها جذل عجيب ..

جذل الوحوش المفترسة ، عندما ترى أمامها فريسة هينة .. وعندما تفوح رائحة الدم ..

★ ★ ★

« هل أنت واثق يا رجل ؟.. »

ألقى (بوريس شلينكو) هذا السؤال على جندى الأمن الواقف أمامه فى حزم ، فاعتدل الجندى ، وشدّ قامته ، وهو يجيب :

- تمام الثقة أيها الرفيق الجنرال .. لقد رافقت الرفيق (ناديا) طوال تحرياتها ، وسمعتها تسب وتلعن ، وتحدث نفسها ، قائلة : إن الجاسوس انتحل شخصية السائق الخاص للممثلة (بوشكا) ، واستقل معها القطار إلى (لينينجراد) .

انعقد حاجبا (شلينكو) فى صرامة ، وهو يقول :

- هكذا .. لهذا إذن منعتنى (بوشكا) من تفتيش شقتها .. بالبرجوازية اللعينة ، ذات التطلعات الرأسمالية العفنة .. إنها لاتستحق كل مامنحتها إياه الدولة من تكريم واحترام .. أقسم أن أقتل هذه الخائنة بنفسى .

قال الجندى فى ارتياع :

- تقتل (بوشكا) ؟!

ثم ارتبك ، وتراجع بسرعة ، مستدركًا :

- معذرة أيها الرفيق الجنرال .. إننى .. إننى ..

لم يستطع إتمام عبارته ، مع تلك النظرة الصارمة ، التى حدجه بها (شلينكو) ، ولكن هذا الأخير تمتم فى غضب :

- أنت على حق أيها الرفيق الجندى .. ليس من السهل اتخاذ مثل هذه الخطوة .

ولوّح بيده ، مستطردًا فى صرامة :

- هيا عد إلى رفاقك .

أدّى الجندى التحية العسكرية ، وأسرع ينصرف ، قبل أن يغيّر (شلينكو) رأيه ، فى حين لم يهتم هذا الأخير بأمره كثيرًا ، وإنما ضغط زرّ الاتصال ، فى سيارة الأمن الجديدة ، وهو يقول فى حزم :

- صلنى بالموجة الخاصة للرفيق الرئيس .

أتاه صوت عامل الاتصال ، وهو يقول فى دهشة وتوتر :

- بمن ياسيدى الرفيق العقيد ؟

صاح (شلينكو) فى حدة :

- بالرفيق الرئيس مباشرة .. وبأقصى سرعة .

مضت لحظات من الصمت ، ثم ارتفع صوت الرئيس ، عبر جهاز الاتصال ، قائلًا :

- ماذا هناك أيها الرفيق (شلينكو) ؟.. هل ألقيت القبض على الجاسوس ؟

أجابه (شلينكو) بانفعال :

- ليس بعد أيها الرفيق الرئيس ، ولكن هناك تطورات بالغة الأهمية والخطورة .

واندفع يروى له كل ماسمعه من الجندى ، وأضاف إليه ما استنتجه ، ثم أنهى حديثه قائلًا فى حماس :

- لو أنك منحتنى الصلاحية أيها الرفيق الرئيس ، فسألقى تاريخ (بوشكا) كله خلف ظهرى ، وأنقض عليها وعلى رفيقها الجاسوس كالصقر ، فأمزّقهما أربًا ، وأستعيد منهما أسرارنا وكرامتنا .

مضت لحظة من الصمت ، ثم أجابه الرئيس فى حزم :

- فليكن أيها الرفيق (شلينكو) .. أمن الاتحاد السوفيتى فوق كل اعتبار .. إننى أمنحك كل الصلاحيات اللازمة ، لإعادة الأمور إلى نصابها .

تهللت أسارير (شلينكو) ، وقال فى انفعال :

- وماذا عن (بوشكا) ؟

أجابه الرئيس فى صرامة :

- قلت لك : إننى أمنحك كل الصلاحيات اللازمة .

وأنهى الاتصال فى عنف ، ولكن (شلينكو) كان يشعر فى أعماقه بسعادة لاحدود لها ..

لقد حقّق ما تمنّاه ..

وبدأت المطاردة ..

المطاردة الحقيقية ..

★ ★ ★

انطلق القطار السريع ، الذى يربط مابين (موسكـو) و (لينينجراد) ، يشق طريقه وسط الثلوج ، فوق زوج من القضبان الحديدية ، يبدو وكأنه يمتدّ إلى مالانهاية ، وبداخله تحرّك (إيزاك) ، الحارس الخاص للإسرائيلى (أندريه رابين) ، فى خطوات سريعة متوترة ، وعبر عربات القطار واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغ العربة الأخيرة ، فانزوى فى ركنها ، وتلفّت حوله فى حذر ، ثم أخرج من جيبه جهازًا لاسلكيًا صغيرًا ، أدناه من فمه ، وهو يقول :

- من الصقر إلى النسر الأكبر .. أتحدّث من داخل الهدف المقترح .. أجب .

أتاه صوت (أندريه) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

- تحدّث بحرية يا (إيزاك) . إننا نستخدم موجة سرية خاصة ، لايمكن أن يتوصّل إليها السوفيت .

اعتدل (إيزاك) ، وقال فى اهتمام :

- سيّدى .. إننى أتحدّث إليك من قطار (لينينجراد) ، وكان من الضرورى أن أتحدّث إليك الآن ، قبل أن يخرج القطار من دائرة الاتصال ، ويعجز اللاسلكى عن إتمام الاتصال .

سأله (أندريه) فى لهفة :

- أخبرنى أوّلا .. ماذا فعلت ؟

أجابه (إيزاك) :

- لقد نفذت أوامرك ياسيّدى ، وراجعت تعليماتك ، واتجهت مباشرة إلى قطار (لينينجراد) ، بافتراض أن ذلك المصرى سيفعل كما توقّعت أنت تمامًا ، ويحاول أن يستقل القطار إلى خليج (فنلندا) ، ولكننى فتشت القطار كله ، ولم أعثر له على أثر .

قال (أندريه) بسرعة :

- اطمئن يا (إيزاك) .. الفريسة بين يديك .. إنه يسافر بالفعل فى القطار ، متنكرًا فى هيئة سائق مسنّ ، يرافق الممثلة المعروفة (بوشكا) .

هتف (أندريه) :

- (بوشكا) ؟!.. أأنت واثق من هذا ياسيّدى ؟.. إنها تستقل القطار مع سائقها المسنّ بالفعل .. لقد رأيتهما بنفسى .

أطلق (أندريه) ضحكة ماكرة قصيرة ، وقال :

ـ بالطبع يافتى .. أنا واثق تمام الثقة ، فجهاز التصنت الصغير ، الذى زرعته فى مكتب صديقنا الجنرال (فاسيلوف) ، فى أثناء زيارتى له ، ينقل إلينا ـ وبمنتهى الدقة ـ كل أحاديثه مع (ناديا مينوفيتشى) .. هيا يا (إيزاك) .. باغت فريستك ، التى لا تتوقَّع هجومك ، واستعد القائمة والميكروفيلم ، ودعنا نقدمها كهدية صداقة مرة أخرى ، للجنرال (فاسيلوف) .. هيَّا .

أنهى (إيزاك) اتصاله الأخير مع رئيسه ، ودسَّ جهاز اللاسلكى فى جيبه ، ثم قبضت أصابعه على مقبض مسدسه ، واستعد .. استعد للمواجهة ..

★ ★ ★

أسبلت (بوشكا) جفنيها فى تراخ ، وضمَّت كلبتها (ميرا) إلى صدرها ، وهى تجلس مع (أدهم) ، داخل مقصورة خاصة فى القطار ، وقالت مبتسمة فى إرهاق :

ـ هل ستظلّ مستيقظًا هكذا ؟.. إنك لم تنم لحظة واحدة طوال الليل ، والمسافة إلى (لينينجراد) تبلغ ألف كيلو متر تقريبًا .

خلع معطفه ، وعلّقه على مشجب خاص داخل المقصورة ، وهو يقول فى هدوء :

ـ يمكننى احتمال السهر طويلًا .

هزّت كتفيها ، وهى تقول :

ـ أما أنا فلا .

قالتها وأطبقت جفنيها ، ولاذت بالصمت تمامًا ، حتى تصوّر أنها

قد استسلمت للنوم ، فترك جسده يسترخى قليلًا ، وهو يسترجع معلوماته الجغرافية عن المنطقة ، التى بدت أشبه بصحراء جليدية ، ينطلق وسطها القطار ، ولكنه فوجئ بها تعتدل وتفتح جفنيها فجأة ، وتقول فى اهتمام :

ـ ماذا تنوى أن تفعل ، عندما نبلغ (لينينجراد) ؟

ابتسم مغمغمًا :

ما تقتضيه الظروف ؟

مطَّت شفتيها لتعلن عدم الرضا ، ثم قالت :

ـ أليس المفروض أن تكون لديك خطة محدودة ؟

كانت لديه بالفعل خطة محدودة ومدروسة ، إلا أنه بطبيعته ، كان يفضّل الاحتفاظ بكل المعلومات لنفسه ، فقال فى اقتضاب :

ـ بالتأكيد .

بدت وكأن النشاط قد عمّ جسدها بغتة ، وهى تقول فى حماس :

ـ إننى أفكّر فى هذا الأمر ، منذ غادرنا (موسكو) ، وأسأل نفسى : هل نسرق زورقًا بخاريًا ، أم نستقل القطار الفرعى ، الذى يعبر الحدود رسميًا إلى (فنلندا) ؟

غمغم محاولًا إنهاء الحديث :

ـ سنقرِّر ذلك ، عندما نصل إلى (لينينجراد) .

قالت فى انفعال :

ـ خطأ .. المفروض أن تكون لديك ...

قاطعتها فجأة دقات هادئة ، على باب المقصورة ، فبترت حديثها ، وقالت فى لهجة تصلح كمثال للملل والضجر :

ـ من الطارق ؟
أتاها صوت مرتبك ، يقول :
ـ أيتها الرفيق (بوشكا) .. أنا رئيس القطار .. معذرة لإزعاجك ، ولكن .. احم .. ابنى يرغب فى مصافحتك .. إنه يتابع كل أفلامك ، وهذه أمنيته الوحيدة .
تطلّعت إلى (أدهم) متسائلة ، فأشار إليها بالرفض ، وأسرعت تقول :
ـ ألا يمكنه أن يأتى فى وقت آخر .. إننى نائمة تقريبًا .
قال صاحب الصوت ، فى حرج :
ـ إنه .. إنه طفل معوّق ، و ... أرجوك أيتها الرفيق (بوشكا) .. إنه يكاد يبكى قهرًا ورغبة .
ارتفع حاجباها فى إشفاق ، وقالت :
ـ يا للمسكين !
ثم قفزت إلى الباب ، وفتحته بسرعة ، و(أدهم) يعتدل ، قائلًا :
ـ حذار أن ...
قبل أن يتم عبارته ، كانت قد فتحت الباب ، ثم أطلقت شهقة ذعر ، عندما رأت المسدس المصوَّب إليها ، وفى اللحظة التالية ، كانت ذراع (إيزاك) تحيط بعنقها ، وهو يدفعها إلى الداخل ، ويلصق فوهة مسدسه بصدغها ، ويغلق الباب بقدمه من الخلف ، قائلًا فى صرامة :
ـ حركة واحدة وأنسف رأسها أمام عينيك .
نبحت (ميرا) فى غضب عصبى ، فى حين عقد (أدهم)

حاجبيه ، وقال فى حنق :
ـ هذا ما كنت أخشاه .
ابتسم (إيزاك) فى سخرية ، وقال :
ـ من سوء حظك أن رفيقتك مرهفة الحس يارجل .. كنت واثقًا من أنها لن تحتمل دموع طفل معوق .
هتفت (بوشكا) فى غضب :
ـ أيها الحقير .
التقى حاجباه فى صرامة ، وشدَّد من ضغط ذراعه على عنقها ، وهو يقول :
ـ اخرسى يا امرأة ، وإلا نسفت رأسك بحق .
قال (أدهم) فى حزم :
ـ حاول أن تمس شعرة واحدة من رأسها ، وسوف أجعلك تندم على ...
ـ قاطعه (إيزاك) فى حدة :
ـ أعطنى القائمة والميكروفيلم .
قال (أدهم) فى سخرية :
ـ آسف .. قائمة الطعام لدينا لا تحوى هذه الأصناف .. ما رأيك فى فيلم عادى بالتوابل والبصل ؟!
هتف (إيزاك) فى غضب :
ـ فليكن .. سأنتزعها من جثتك .
وأدار فوهة المسدس نحو (أدهم) .
وأطلق النار ..

وكان هذا بالضبط ما ينتظره (أدهم) ..

وما يأمله ..

لقد انتظر حتى اللحظة الأخيرة ، ثم مال جانبًا فى رشاقة ، وترك رصاصة (إيزاك) تتجاوزه ، وتحطِّم زجاج النافذة ، ثم قفز يركل المسدس من يد غريمه فى دقة وسرعة ومهارة ..

واندفع الهواء المثلَّج عبر النافذة المكسورة ، وصرخت (بوشكا) فى رعب ، وقفزتِ (ميرا) تختبئ أسفل المقاعد ، وهى تنبح مذعورة ، فى حين تراجع (إيزاك) هاتفًا :

ـ اللعنة !

ثم دفع (بوشكا) أمامه بكل قوته ، نحو (أدهم) ..

وتراجع (أدهم) بسرعة ، حتى لا ترتطم به (بوشكا) ، التى أطلقت صرخة رعب أخرى ..

ومع صرختها قفز (إيزاك) ، واعتمد بكفيه على كتفيها ، وركل (أدهم) بقدميه فى صدره ، بكل ما يملك من قوة ..

وكانت الضربة قوية وعنيفة بالفعل ، حتى أن (أدهم) ارتطم بحافة النافذة المكسورة ، ومدَّ يده ليتشبَّث بحافتها ..

وهوى (إيزاك) على صدره بضربة ثانية ..

وعندئذ فقد (أدهم) توازنه ..

وسقط ..

سقط من نافذة قطار (لينِنجراد) السريع ..

وسط الثلوج .

* * *

١١ ـ قلب الجليـد ..

لم يصدِّق (إيزاك) نفسه ، عندما خلت كابينة القطار ، إلا منه ومن (بوشكا) و (ميرا) ، فظلَّ لحظات يحدِّق فى النافذة المكسورة ، دون أن يشعر بالبرد القارص ، القادم منها ، حتى صرخت (بوشكا) ، وهى تبكى فى ألم .

ـ لقد سقط .. أنت قتلته .. أنت قتلته أيها الحقير .

واندفعت نحو (إيزاك) ، وراحت تدقَّ صدره بقبضتها ، صارخة :

ـ أيها القاتل .. أيها الحقير .

وشاركتها (ميرا) ثورتها ، فراحت تنبح فى عصبية غاضبة ، ونباحها يرتجف بردًا ، إلا أن (إيزاك) صفعها فى قوة ، وهو يصرخ فى وجهها :

ـ اصمتى .

تراجعت فى ذعر ، وهى ترتجف بردًا ورعبًا ، فأمسك كتفيها فى قسوة ، وهو يقول :

ـ أين القائمة والميكروفيلم ؟

أجابته مرتجفة :

ـ لست أدرى .. لست أعلم ما الذى تتحدَّث عنه .

هزَّها فى قسوة وعنف ، صارخًا :

ـ أين هما ؟

اندفعت (ميرا) لتعقر قدمه ، وهى تنبح فى شدة ، ولكنه ركلها فى عنف ، فارتطمت بالباب ، وسقطت تعوى فى رعب وألم ، فهتفت (بوشكا) مذعورة :

- ربما تركها فى معطفه .. هاهوذا هناك .

دفعها فى عنف ، واستدار فى وحشية إلى معطف (أدهم) ، فانتزعه من مشجبه ، وفتش جيوبه فى سرعة ، ثم برقت عيناه فى لهفة وظفر ، وهو يلتقط العلبة ، وهتف :

- عظيم .

ثم استدار إلى (بوشكا) ، واستطرد فى قسوة :

- والآن ياجميلتى .

انهارت هاتفة ، وهى تخفى عينيها :

- لا .. لاتقتلنى .. أرجوك .

انحنى يلتقط مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

- سأفعل لو ارتفع صوتك لحظة واحدة .. إياك أن تغادرى مقصورتك ، أو تطلقى صرخة واحدة .

هتفت منهارة :

- لن أفعل .. أقسم لك إننى لن أفعل .

لم يدر لماذا لم يقتلها ، كما تقتضى إجراءات الأمن التى تعلمها ..

ربما لجمالها الأخاذ ..

أو فتنتها الطاغية ..

أو هو شعور الظفر ، الذى ملأ كيانه ، بعد أن حصل على بغيته ، فلم يترك فى نفسه مكانًا للمزيد من القسوة .

المهم أنه مطّ شفتيه فى زهو ، ثم غادر المقصورة ، وأغلق بابها خلفه فى عنف ..

وهنا تفجّرت دموعها فى غزارة ، وهى تنكمش فى مقعدها ، وتضمّ معطفها من شدة البرد ، وقفزت (ميرا) بين ذراعيها ، فاحتضنتها فى قوة ، وهى تقول من بين دموعها ..

- لقد سقط يا (ميرا) .. سقط الوسيم .

وانهمرت دموعها أكثر وأكثر ..

★ ★ ★

فقد (أدهم) توازنه ، ووجد جسده يندفع عبر نافذة القطار إلى الخارج ، ثم يسقط فوق طبقة سميكة من الجليد ، ويتدحرج فوقها فى عنف ، والقطار يواصل رحلته ، مبتعدًا فى سرعة ، حتى توقف جسده أخيرًا ، والثلوج تكاد تغمره ..

وعلى الرغم من الجليد المحيط به ، كان (أدهم) يشتعل غضبًا وحنقًا ، حتى ليكاد لهيب غضبه يذيب الثلوج من حوله ، لمسافة كيلو متر على الأقل .

كان يحنقه أن نجح ذلك الشاب فى مباغتته ، ودفعه خارج القطار ، ويغضبه أنه ترك معطفه فى المقصورة ، وبداخله القائمة والميكروفيلم .

وعندما نهض واقفًا ، وتطلع إلى حيث يكاد يختفى القطار ، تضاعف غضبه وحنقه ، حتى توارى القطار فى الأفق ، فهتف :

- اللعنة !.. لقد فقدت الجائزة ، واحتفظت بغضب المطاردين .

بدأ يشعر بالبرد القارس من حوله ، وخاصة بعد أن فقد معطفه ،

فعقد ساعديه أمام صدره ، وضمهما إليه فى شدة ، وهو يتمتم :

ـ رائع يا (أدهم) .. أضف إلى كشف الخسائر أنك الآن ضائع وسط الثلوج ، دون معطف أو دليل أو حتى خريطة صغيرة .

كان الجليد قد توقف عن الانهمار ، وانقشعت السحب بعض الشىء ، وتسلل بصيص من أشعة الشمس ، إلا أن درجة البرودة ظلت شديدة الانخفاض ، حتى لتكاد تتجاوز الثلاثين درجة تحت الصفر ..

حتى أنفاس (أدهم) ، كانت تتحول إلى قطرات من الجليد ، تتكثف على شفتيه ووجنتيه وأنفه ، وتزيد من إحساسه بالبرد الشديد ، فأزال تنكره ، الذى تجمد بعضه على وجهه ، وهو يواصل طريقه ..

وعلى الرغم منه ، ارتجفت الكلمات على شفتيه ، وهو يتمتم :

ـ لو استمر الحال على هذا المنوال ، ستتجمد الدماء فى عروقى ، قبل أن أبلغ أول قرية مأهولة .. لابد من وسيلة لدفع الدفء إلى جسدى .

برزت الفكرة فى رأسه ، مع نهاية كلماته ، فالتقط نفسًا عميقًا ، وانطلق يعدو بمحاذاة شريط القطار ..

كان هذا يدفع بعض الدفء فى جسده بالفعل ، إلا أن إحساس الهزيمة فى أعماقه كان يستنفد كل تلك الطاقة ، ويحولها إلى مرجل يغلى من الغضب ..

وفجأة ، برز ذلك الجواد ..

جواد أبيض ، ولونه يمتزج بلون الثلوج المحيطة ، ويمتطيه

شيخ أشيب الشعر ، له لحية بيضاء كثة ، وشارب ضخم ، ويكاد جسده كله يختفى داخل معطف من الفراء الأبيض ، وغطاء رأس من نفس اللون والنوع ، وقد انعقد حاجباه الكثان فى شدة ، وهو يتطلع إلى (أدهم) فى صمت وصرامة ، ويصوب إليه بندقية ضخمة ، يبدو من طريقته فى حملها ، أنه يجيد استخدامها بشكل جيد ..

وتوقف (أدهم) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ صباح الخير يا والدى .. أرجو ألا يزعجك وجودى هنا ، كما أرجو ألا يزعجنى وجودك أيضًا .

ظل الرجل لحظات صامتًا ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مماثلة ، وهو يقول :

ـ المهم أن تخبرنى ، ماالذى تفعله بالضبط ، وسط هذه الثلوج ، وبهذا الزى ؟.. هل ترغب فى الانتحار ؟

أجابه (أدهم) بسرعة :

ـ بل هى نزهة الصباح ، ولكنك محق بشأن الزى .. لقد نسيت ارتداء ثوب الاستحمام .

صمت الرجل لحظات أخرى ، ثم قال :

ـ ألأنت هارب منهم ؟

لم يذكر من هم بالضبط ، ولكن (أدهم) شد قامته ، وهو يقول :

ـ نعم .

مط الرجل شفتيه لحظة ، ثم خفض فوهة بندقيته ، وقال :

ـ هلم إذن .. إنك تحتاج إلى الدفء والغذاء .

أجابه (أدهم) .

ـ كل ما احتاجه فى الحقيقة هو معطف من الفراء ، وخريطة لخطوط السكك الحديدية .

عقد الرجل حاجبيه ، وهو يسأله :

ـ لماذا ؟.. هل ستستقل القطار للفرار منهم ؟

قال (أدهم) :

ـ بل سأعود إلى القطار ، فالواقع أن احدهم لم يرق له وجودى هناك ، فدفعنى عبر النافذة ، واستولى على بعض الأشياء الهامة منى ، وأرغب فى استعادتها ، وتلقينه درسًا قاسيًا .

اتسعت ابتسامة الرجل بغتة ، وتحوّلت إلى ضحكة عالية ، قبل أن يقول :

ـ إنك تروق لى يا فتى .. تروق لى بحق .

ولم تمض دقائق معدودة على هذا الحوار ، حتى كان (أدهم) داخل كوخ من الخشب ، يشفّ كل ركن فيه عن أن الرجل يعمل بصيد الفراء ، ولقد ناوله الرجل معطفًا ثقيلًا ، وهو يسأله :

ـ متى سقطت من القطار بالضبط ؟

أجابه (أدهم) :

ـ منذ ثلث الساعة تقريبًا .

مطّ الرجل شفتيه ، وقال :

ـ آه .. لست أظنك تنجح فى اللحاق به إذن ، فهو قطار سريع .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ألا يوجد طريق مختصر ؟

صمت الرجل قليلًا ، وكأنه يدرس شيئًا ما ، ثم هزّ رأسه ، قائلًا :

ـ لا .. مستحيل !

سأله (أدهم) :

ـ ماهو المستحيل ؟!.. أخبرنى مالديك ، واترك لى أنا مهمة تقييم الموقف .

تطلّع إليه الرجل لحظة أخرى فى صمت ، ثم قال :

ـ الوسيلة الوحيدة لاختصار الطريق هى الانطلاق عبر الجبال ، فى اتجاه الشمال ، ولكنه طريق محفوف بالمخاطر ، و ...

هبّ (أدهم) واقفًا ، وهو يقول :

ـ أيمكنك أن تعيرنى زوجًا من الزلّاجات ؟

رفع الرجل حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أنك تنوى الانزلاق على الجليد ، عبر الجبال ؟.. لا يافتى .. هذا مستحيل !.. إنك ستواجه عقبات شتّى ، وأخطرها دوريات الجليد .. إنك هارب من الشرطة ، وباجتيازك جبال الثلج ستقابل دوريتين من دوريات شرطة الجبال على الأقل .

قال (أدهم) فى حزم :

ـ هل ستعيرنى الزلاجات أم لا ؟

تطلّع إليه الرجل لحظة أخرى ، ثم هتف :

ـ ألم أقل لك إنك تعجبنى يا فتى ؟.. هيا .. خذ مايحلو لك ، ولكن أسرع ، فذلك الطريق المختصر سيدخر ساعة واحدة من رحلة القطار ، وهذا يعنى أن عليك أن تقطع طريق الجبال فى نصف الساعة على الأكثر ، وإلا فقدت القطار إلى الأبد .

التقط (أدهم) الزلّاجات الخشبية الطويلة ، وعصى الانزلاق ، وهو يبتسم قائلًا :

ـ اطمئن .. سأبذل قصارى جهدى .

ربّت الرجل على كتفه ، وهو يقول :

ـ أنا واثق من هذا .

ارتدى (أدهم) الزلّاجات بسرعة ، ووقف أمام الكوخ الخشبى ، وأعطاه الرجل منظارًا داكنًا ، وهو يقول :

ـ ضع هذا على عينيك ، وإلا فالجليد المرتطم بعينيك سيجمّد قرنيتك ، ويصيبك بنوع من العمى .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. أرشدنى فقط إلى الطريق .

أجابه الرجل ، وهو يشير أمامه :

ـ انطلق نحو الشمال مباشرة ، واعبر الطريق الرئيسى ، وستجد أمامك منحدرًا يبلغ طوله عشرة كيلو مترات ، وهو الذى سيقودك إلى حيث تلتقى بالقطار .

قال (أدهم) مبتسمًا :

ـ أشكرك .

نطق هذه الكلمة ، ثم اندفع ينزلق على الجليد ، بأقصى سرعة ممكنة ، فى محاولة أخيرة للحاق بالقطار ، واستعادة القائمة والميكروفيلم ..

ولم تمض لحظات ، حتى بلغ الطريق الرئيسى ، ولم يكد يقترب منه ، حتى رأى سيارة عسكرية ، تقف هناك ، وقائدها يتحدّث مع

دورية من دوريات شرطة الجبال ، التى يرتدى كل فرد فيها زلّاجات قوية ، ورأى عيون الجميع تلتفت إليه ، وقائد السيارة يهتف :

ـ هاهوذا .

وكانت مصادفة مدهشة بحق ، فلم يكن قائد السيارة هذا سوى (شلينكو) ..

(بوريس شلينكو) ..

وهذا يعنى أنها بالفعل مصادفة مدهشة ..

وقاتلة ..

★ ★ ★

« إننى أشعر بالجوع .. » .

قطع (قدرى) روايته ، ليتمتم بهذه العبارة ، وهو يربّت على كرشه الضخم ، ثم مال نحو (منى) ، وسألها فى اهتمام :

ـ هل ترغبين فى تناول شطيرة من الجبن ؟

هزّت رأسها نفيًا ، وهى تقول فى خفوت :

ـ كلّا .. لقد تناولت طعام الإفطار بالفعل .

نهض قائلًا :

ـ فليكن .. سأعد شطيرتى ، ونواصل روايتنا .

تركته يعدّ الشطيرة ، وانعقد حاجباها فى شدة ، وبدت على وجهها علامات التفكير العميق ، فسألها (قدرى) ، وهو يلتهم الشطيرة :

ـ فيم تفكرين ؟

تنهّدت وقالت :

ـ هناك نقطة تبدو لى غير منطقية ، أو أن (أدهم) لم يذكر تفاصيلها كلها فى الملف .

سألها فى اهتمام :

ـ أية نقطة ؟

قالت على الفور :

ـ ذلك الرجل ، الذى التقى به (أدهم) وسط الثلوج .. إنه لم يذكر أية تفاصيل حوله .. لا اسمه ، ولا صفته .. فقط هيئته وعمره .. هل تعتقد أنه أخفى شيئًا ؟

هزَّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ (أدهم) يذكر كل شىء فى تقاريره ، حتى أدق التفاصيل .. إنه رجل مخابرات مثالى فى هذا الجانب .

قالت فى حيرة :

ـ ولكن هذا يبدو عجيبًا للغاية .. لقد عاونه الرجل فى إخلاص وحماس ، ودون مبرِّر منطقى .

قال (قدرى) :

ـ إنك تثيرين النقطة نفسها ، التى جذبت انتباهى فى ملف هذه العملية ، لقد سألت (أدهم) أيامها عما يعنيه هذا ، فأكد لى أن الأمر أدهشه بالفعل حينذاك ، فالرجل تعاطف معه ، ومنحه كل مايمكنه منحه ، دون أن يسأله حتى عن اسمه أو تهمته ، وكأنما اعتبر أن مجرَّد الفرار من الشرطة السوفيتية يجعل من (أدهم) صديقًا .

رفعت حاجبيها فى دهشة ، هاتفة :

ـ إلى هذا الحد ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يلتهم ما تبقَّى من شطيرته ، وقال :

ـ إنه انعكاس للكراهية التى كانت تملأ نفوس السوفيت حينذاك ، تجاه النظام الديكتاتورى البوليسى الصارم ، الذى يعيشون فى ظله ، حتى أنهم كانوا يعتبرون كل من تطارده الشرطة بطلًا ، يستحق الإعجاب والمساندة .

مطَّت شفتيها ، وهى تقول :

ـ مازلت أجد الأمر غير منطقى .

ابتسم وهو يقول :

ـ ومن قال : إن الحياة تسير على وتيرة منطقية ؟

ثم اعتدل ، مستطردًا :

ـ ولكن دعينا نتجاوز هذه النقطة ، فما زال هناك الكثير لنرويه .

اعتدلت بدورها ، وقالت :

ـ فليكن .. هيا نكمل القصة .

وعاد (قدرى) يروى ..

* * *

عندما قطع (بوريس شلينكو) كل هذه الكيلو مترات ، بسيارته الجديدة ، وسط الجليد الممتدّ إلى ما لا نهاية ، كان كل ما يسعى إليه هو اللحاق بالقطار ، ومباغتة (أدهم) ، والسيطرة عليه أو التخلّص منه ، مستغلًا عامل المفاجأة ، حتى يمكنه استعادة القائمة والميكروفيلم ، وتقديمهما لرئيس الحزب ، والفوز برضاه وتأييده .

كان بهذا يضرب عصفورين بحجر واحد ، فاستعادة الأسرار المفقودة يرفع من قدره ، ويدين فى الوقت ذاته الجنرال

(فاسيلوف) وحارسته المغرورة الباردة (ناديا) ..

وفى طريقه ، التقى (شلينكو) بدورية الجبال ، وتوقف ليمنحهم نشرة بأوصاف (أدهم) ، ويطالبهم باليقظة والحذر ، وهو يزمع متابعة طريقه على الفور ، و ...

وفجأة ، رأى (أدهم) أمامه ..

رآه ينزلق من فوق التل الثلجى ، نحو الطريق الرئيسى .

ولم يصدق عينيه فى البداية ، ثم لم يلبث أن نفض الدهشة عنه ، وصاح :

ـ ها هو ذا .

واستدارت العيون كلها نحو (أدهم) ، فى حين انتزع (شلينكو) مسدسه ، وهو يستطرد فى انفعال شديد :

ـ أوقفوه .. إنه الجاسوس المنشود .

قالها وأطلق رصاصات مسدسه الآلى فى عنف نحو (أدهم) ، الذى انحرف فى مهارة ، وانحنى ليزيد من سرعة انزلاقه ، ودفع عصا التزلج فى الجليد بعنف ، وتناثرت الرصاصات من حوله ، و (شلينكو) يواصل صراخه :

ـ أوقفوه .. أوقفوه بأى ثمن .

رفع رجال دورية الثلوج مدافعهم الآلية نحو (أدهم) ، الذى انطلق بأقصى سرعته نحو هدف أدهش الجميع ..

نحو سيارة (شلينكو) مباشرة .

وقبل أن تنطلق رصاصة واحدة ، من مدافع رجال الدورية ، ضرب (أدهم) عصا التزلج فى الجليد بقوة ، ووثب ..

وكانت وثبة رائعة ، مدهشة ، اتسعت لها عيون رجال دورية الثلوج فى ذهول وانبهار تامين .

لقد تجاوز بوثبته سيارة (شلينكو) ، والطريق الرئيسى كله ، وهبط على الجانب الآخر منه ، عند بوابة الطريق الشمالى المنحدر ، وانزلق فوقه بسرعة كبيرة ، فصرخ (شلينكو) فى حنق :

ـ انطلقوا خلفه .

لم يكن رجال دورية الثلوج بحاجة إلى هذه الصرخة ، فما أن رأوا (أدهم) يعبر فوق رءوسهم ، ويهبط على الجانب الآخر للطريق ، ثم ينزلق فوقه بهذه السرعة والمهارة ، حتى اندفعوا كلهم خلفه ، وهم يحملون مدافعهم الآلية ..

أما (شلينكو) ، فقد دفعه الغضب إلى ارتكاب أكبر عمل ينطوى على الشجاعة والحماقة فى آن واحد ..

لقد أدار عجلة قيادة السيارة ، وأدار محركها ، وانحرف بها عن الطريق ، واندفع فوق المنحدر الشمالى بسرعة مخيفة ..

وكانت مطاردة عجيبة ..

خمسة رجال من أمهر وأقوى المتزلجين على الجليد ، فى الاتحاد السوفيتى كله ، يحملون مدافعهم الآلية ، وخلفهم سيارة (شلينكو) ، والجميع يطاردون رجلا واحدا .

(أدهم صبرى) ..

ولم يكن هذا الأخير يملك سوى مسدسه ..

وأربع رصاصات ..

وجرأة بلا حدود ..



إلا أن (أدهم) كان ينطلق بسرعة خرافية ، وبخط متعرّج ، أنقذه من الرصاصات ، ولكنه زاد من العقبات ..

وهذه الجرأة بالذات أدهشت رجال الدورية ، فعلى الرغم من رصاصاتهم ، التى انهمرت خلفه كالمطر والطريق الشديد الوعورة ، والصخور التى تبرز من بين الجليد ، هنا وهناك ، إلا أن (أدهم) كان ينطلق بسرعةً خرافية ، وبخط متعرِّج ، أنقذه من الرصاصات ، ولكنه زاد من العقبات ، فراح يدور حول هذا ، ويقفز فوق ذاك ، والجميع خلفه فى شراسة وإصرار ..

ورجال دوريات الثلوج ، هم أفضل المتزلجين على الثلوج ، فى (أوربا) الشرقية كلها ، وأفضل الرماة فى الوقت ذاته ؛ لذا فقد أدهشهم وأحنقهم أن يبزّهم (أدهم) فى هذا المجال ، فاندفعوا خلفه بأقصى سرعة ممكنة ، على الرغم من العقبات .

ولكن أحدهم أخطأ مساره بسنتيمترات قليلة ، انزلق بها فوق الجليد ، و ...

واصطدمت زلّاجته بصخرة بارزة ، غطتها الثلوج ..

وكان هذا الاصطدام أشبه بقنبلة ، انفجرت فى الزلّاجة ، فتحطمت فى عنف ، واندفع جسد الرجل إلى الأمام كالصاروخ ، وسقط وسط الجليد ، وراح يتدحرج فوقه بشدة ، دون أن يتوقّف أحد زملائه لمعاونته أو إسعافه ..

لقد واصل الأربعة اندفاعهم خلف (أدهم) ، وقال قائدهم للآخرين ، عبر جهاز اتصال يربط أعضاء الدورية ببعضهم :

- إنه يتجه مباشرة إلى الممر الضيق .. انفصل يا (ياكوف) ، وأنت يا (ميكالوتشى) .. عليكما بالدوران حول المنعطف ، وانتظراه فى نهاية الممر .

انفصل الاثنان بحركة رشيقة ، لتنفيذ خطة قائدهم ، الذى واصل اندفاعه خلف (أدهم) مع الرجل المتبقى ..

ورأى (أدهم) الممر أمامه مباشرة ..

كان يمكنه أن يتجنّب عبور الممر ، لو أنه دار حول المنعطف كله ، ولكن القائد وزميله راحا يمطران ماحوله بالرصاصات ، ليمنعاه من الإقدام على هذا ، فلم يعد أمامه سوى أن يعبر الممر ..

ولقد فعل ..

كان الممر ضيقًا بالفعل ، ولكنه عبره بسرعة مدهشة ، وخلفه القائد وزميله ، و ...

وفجأة ، رأى (ياكوف) و (ميكالوتشى) يعترضان الطريق ، عند نهاية الممر ، ويصوّبان إليه مدفعيهما ..

وصاح (ياكوف) ..

- أطلق النار يا (ميكالوتشى) .

ولكن (أدهم) انتزع مسدسه أوّلًا ..

وأطلق النار ..

واتسعت عينا (ياكوف) و (ميكالوتشى) ذهولًا وارتياعًا ..

لقد أصابت رصاصتا (أدهم) مدفعيهما ، وألقتهما بعيدًا فى عنف ، فى حين لم تخدشا الرجلين أدنى خدش ..

ولكنهما كانا يعترضان الطريق ..

ومن خلف (أدهم) كان القائد يرفع فوهة مدفعه الآلى ، ويصوّبها إلى ظهر (أدهم) ..

وضغط الزناد ..

وفى اللحظة نفسها ، وبعناية الله سبحانه وتعالى وحده ، ودون تخطيط مسبق ، كان (أدهم) يثب فى الهواء ، ويدور بجسده دورة رأسية مدهشة ، ليعبر مخرج الممر ، فوق رأسى (ياكوف) و (ميكالوتشى) ، اللذين رفعا عيونهما إليه فى ذهول ..

وانطلقت رصاصات القائد ..

ولكنها لم تجد (أدهم) ..

كان فى هذه اللحظة يحلّق فى سماء الممر ..

ولكن صرخات الموت انطلقت عبر الممر ..

لقد أصابت رصاصات القائد رجْليه ، (ياكوف) و (ميكالوتشى) ، وأسقطتهما صريعين ، وسالت دماؤهما على الجليد ، فى نفس اللحظة التى هبط فيها (أدهم) على زلّاجتيه خلفهما ، ودفع عصوى التزلج أرضًا ، ثم انطلق يواصل طريقه ..

وتفجّر غضب عارم ، فى أعماق القائد وزميله ، وراحا يطلقان نيران مدفعيهما نحو (أدهم) فى ثورة ، و (أدهم) ينطلق فى خطّ متعرّج ، لتفادى الرصاصات .

وفجأة ، ظهرت سيارة (شلينكو) ..

كان يندفع بها بأقصى سرعة ، محاولًا اعتراض طريق (أدهم) ، وهو يمسك مسدسه بيسراه ، ويطلق منه النيران فى شراسة ..

وأصبح (أدهم) محاصرًا بحق ، بين المطرقة والسندان ..

ومن بعيد ، لاح له القطار ، وهو يقترب من الموقع المفترض ..

وهنا ، لم يعد هناك مجال للتردّد أو التراجع ..

وبسرعة ، صوَّب (أدهم) مسدسه إلى سيارة (شلينكو) ، وأطلق رصاصتيه ..

آخر رصاصتين فى جعبته ..

وانفجر إطارا سيارة (شلينكو) الأماميين ..

وانحرفت سيارته بعنف ، ثم انقلبت على جانبها ، وراحت تزحف نحو (أدهم) بسرعة خطيرة .

وفى اللحظة الأخيرة ، وبما لايزيد على سنتيمترات عشرة ، تجاوز (أدهم) السيارة المندفعة نحوه ، وسمع من خلفه صوت اصطدام قائد الدورية وزميله بها ، ولكنه لم يحاول التوقُّف ، أو حتى الاستدارة لرؤية ما حدث ..

لقد كانت مشاعره كلها موجهة نحو الهدف ، الذى يسعى إليه منذ ما يقربُ من نصف الساعة ..

القطار ..

قطار (لينتجراد) السريع ..

وانحنى (أدهم) ، وضمَّ ركبتيه إلى صدره ، ليزيد من سرعة اندفاعه فوق المنحدر ، فى محاولة للحاق بالقطار ..

وراحت المسافة تقصر ، وتقصر ، وتقصر ..

وبسرعة مذهلة ..

وخفق قلب (أدهم) فى عنف ..

كان من الواضح أنه والقطار لن يلتقيا قطُّ ، كما كان يتوقَّع ..

لقد تأخَّر دقيقة واحدة .

أو أقل ..

وأمام عينيه ، رأى القطار يعبر نفقًا من أنفاق الطريق ، فى طريقه إلى (لينتجراد) ، دون أن يتوقَّف لحظة ، ليمنحه الأمل فى اللحاق به ..

لقد فشل هذه المرة ..

فشل تمامًا ..

* * *



١٢ ـ واحد فى المليـون ..

اندفع النقيب (حازم) إلى حجرة مدير المخابرات المصرية ، وهو يلوّح بورقة فى يده ، والانفعال يغمر كل خلية من خلاياه ، وكل نبرة من نبراته ، هاتفًا :

ـ سيّدى المدير .. لن تصدّق مافعله (أدهم) فى (موسكو) .. لقد وصلت التفاصيل من رجلنا هناك .

أشار إليه المدير ، وهو يقول :

ـ انتظر لحظة .. أريد أن أستمتع بفنجان قهوة الصباح أوّلا ، وأتناول القرص الخاص ، الذى يعالج ضغط دمى المرتفع ، قبل أن تشنّف أذنىّ ، بسماع ما فعله ذلك المتهوّر هناك .

قال (حازم) فى حماس :

ـ ولكنه فعل ماكان ينبغى أن يفعله .

عاد المدير يشير إليه بالصمت ، وارتشف فنجان قهوته فى بطء ، ثم تناول القرص ، وجرعة من الماء ، قبل أن يقول :

ـ هيا .. أسمعنى ما لديك .

قال (حازم) بسرعة :

ـ لقد تسلّل (أدهم) إلى المبنى الرئيسى للمخابرات السوفيتية ..

قفز حاجبا المدير إلىٰ أعلى ، واتسعت عيناه فى شدة ، وهو يهتف :

ـ ماذا فعل ؟!

كرّر (حازم) :

ـ تسلّل إلى مبنى الـ (كى . جى . بى) ياسيدى ، بل استولى منهم على قائمة تحوى أسماء كل عملائهم هنا ، بالإضافة إلى عدد من أفلام الميكروفيلم ، التى تحوى صور هؤلاء العملاء واحدًا واحدًا .

هبّ المدير من خلف مكتبه ، هاتفًا :

ـ ماذا تقول يا (حازم) !.. كيف فعل (أدهم) هذا وحده ؟

بدا صوت (حازم) مفعمًا بالحماس ، وهو يقول :

ـ لقد فعلها ياسيّدى ، وبمواجهة عنيفة وسافرة ، ثم نجح بعدها فى الفرار من المبنى ، ومن مطاردة فريق كامل من رجال الأمن .

قال المدير فى انفعال :

ـ إذن فهذا ماحدث .. لهذا ثارت ثائرتهم ، وجنّ جنونهم ، وفعلوا كل مايفعلونه الآن .

ثم التفت إلى (حازم) ، وسأله بسرعة :

ـ ولكن أين هو الآن ؟

أجابه (حازم) :

ـ لا أحد يدرى .. لقد اختفى تمامًا ، أو أن رجلنا هناك يجهل أين هو ، ولا كيف سيواجه الموقف .. كل ما يثق به هو أنه ، وحتى لحظة إرساله البرقية ، لم يتم إلقاء القبض عليه .

هتف المدير :

ـ عظيم .. لقد حصل على كنز بالنسبة إلينا ، فتلك القائمة ، مع أفلام (الميكروفيلم) ، ستحطّم كل التواجد السرى السوفيتى فى (مصر) ..

صحيح أنهم يستطيعون تكوين شبكات أخرى قوية فى المستقبل ، ولكن هذا سيحتاج إلى وقت أطول ، وجهد أعظم .. كما أنهم سيحطمون جهد سنوات عديدة ، وسيخسرون عددًا من العملاء القدامى ، الذين خبروا العمل ، وأتقنوا أساليب التعامل ، ووسائل جمع المعلومات .. إنه نصر عظيم ولا شك .

ثم أضاف فى اهتمام :

ـ ولكن كم تبلغ نسبة احتمال نجاحه فى الفرار منهم .. هل سألت الخبراء ؟

أومأ (حازم) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ هذه هى أسوأ نقطة فى الأمر كله ، فهناك فرق الأمن ، ورجال الحدود ، ودوريات الشرطة ، ولو أضفنا إلى هذا أهمية ما حصل عليه ، وغضب المسئولين ، وشراسة رجال الـ (كى . جى . بى) ، و ...

قاطعه المدير فى حدة :

ـ لا أريد التفاصيل .. أريد جوابًا مباشرًا .. كم تبلغ النسبة فى رأيهم ؟

صمت (حازم) لحظة ، قبل أن يجيب فى خفوت :

ـ واحد فى المليون .

وانهار الأمل فى قلب المدير ..

* * *

كان القطار يبتعد ، حاملًا معه أمل (أدهم) الأخير فى اللحاق به ، واستعادة القائمة وأفلام (الميكروفيلم) ..

ولكن لا ...

إن (أدهم صبرى) لم يستحق لقب (رجل المستحيل) عبثًا ..

إنه رجل من طراز خاص ونادر ..

طراز يرفض الفشل ..

يرفض كلمة المستحيل ..

طراز يتضاعف الحماس والإصرار فى أعماقه ، كلما تعقَّدت الأمور ، أو تشابكت الأحداث ..

وكلما تصوَّر الجميع أن هذا مستحيل !..

وبهذه الروح المفعمة بالعناد والحزم ، زاد (أدهم) من سرعته أكثر وأكثر ، ووثب بزلاجته فى الهواء ، ليهبط فوق النفق ، ثم يواصل انزلاقه حتى نهايته ، بكل مايملك من سرعة ..

وعبر القطار النفق ..

وقفز (أدهم) إلى سطحه ..

كان قرارًا جريئًا ، بالغ الخطورة والتهوّر ..

ولكن (أدهم) لم يتردَّد لحظة واحدة ..

ولثانية أو ثانيتين ، سبح جسده فى الهواء ، وهو يندفع نحو سطح القطار ..

ثم هبط ..

وكان هذا الهبوط هو أخطر ما فى الأمر كله ..

لقد هبط بزلَّاجتيه فوق سطح القطار ، الذى تغطى ببقايا الجليد ، الذى انهمر طوال الليل ، وكان يدرك جيدًا مايعنيه هذا ، فضمَّ صدره إلى ركبتيه ، واتخذ وضعًا استعداديًا متحفزًا ، وما أن لامست

الزلاجتان السطح ، وبدأتا الانزلاق فوقه ، حتى دفع جسده إلى الوراء ، وترك نفسه يسقط على ظهره ، فوق سطح القطار ..

وانزلق جسده كله فوق سطح القطار ، بسرعة مخيفة ..

ثم اندفع خارجه ..

خارج سطح القطار ..

وبكل مايملك من سرعة وقوة ومرونة ، انثنى (أدهم) على نحو عجيب ، وقفزت يداه تتشبثان بحافة السطح ..

وكانت معجزة حقيقية ..

لقد تعلق بالحافة فى اللحظة الأخيرة ، وارتطمت زلاجتاه بجانب القطار ، وتحطمتا ، وسقطت أطرافهما ، ولكنه تشبث بالسطح بكل قوته ، وهو يلهث فى شدة ، من فرط المجهود الرهيب فوق البشرى ، الذى بذله فى تلك اللحظات الرهيبة ، ثم لم يلبث أن دفع جسده إلى أعلى ، وصعد إلى السطح ، ثم استلقى فوقه يلهث ..

لم يكن يصدق أنه فعلها ..

لقد عاد إلى القطار ..

عاد بمعجزة من الله (سبحانه وتعالى) ، جعلته يغمغم ، وهو يستلقى فوق السطح ، وسط هذا البرد القارص ، ويخلع عن قدميه بقايا الزلاجتين :

- حمدًا لله .. حمدًا لله .

بقى لحظات ، حتى استرد أنفاسه ، ثم نهض فى حماس ، وانطلق يعدو فوق أسطح عربات القطار ، ويقفز من واحدة إلى الأخرى ، والهواء الشديد البرودة يهب فى وجهه بعنف ، ويكاد يجمد أطرافه ،

على الرغم من معطف الفراء الذى يرتديه ، أو يطيح به من فوق الأسطح ، حتى بلغ ثالث العربات بعد القاطرة الرئيسية ، فتحرك فوقها فى حذر ، إلى أن بلغ النافذة المكسورة ، للمقصورة التى كان فيها مع (بوشكا) ، فتعلق مرة أخرى بالحافة ، ووثب عبر النافذة إلى داخل المقصورة ..

واتسعت عيناه فى دهشة وجزع ..

كان يتوقع أن يرى المقصورة خالية ، بعد تحطم نافذتها ؛ لذا فقد أدهشه أن يرى (بوشكا) ، وقد انكمشت فى الركن البعيد للمقصورة ، وضمت إليها (ميرا) فى قوة ، وقد بدت بشرتها مزرقة ، ودموعها متجمدة على وجنتيها ، وقد أغلقت عينيها ، وبدت له وكأنها قد لقيت حتفها ..

ولأول مرة ، منذ التقى بها ، شعر نحوها بمزيج ضخم من الشفقة والحنان ، فاندفع نحوها وتحسس وجنتها الباردة كالثلج ، وهو يقول :

- (بوشكا) .. أجيبى يا صغيرتى .. أأنت بخير ؟

مضت لحظات ، دون أن تستجيب إليه ، ثم لم تلبث أن فتحت عينيها فى بطء ، وتطلعت إليه فى دهشة ، وهى تهتف فى تهالك :

- أهو أنت ؟!.. إذن فقد نجوت .. كيف فعلت هذا ؟

همس مشفقًا :

- كانت معجزة .

ثم حاول أن يعاونها على النهوض ، وهو يستطرد :

- هيا .. سننتقل إلى مقصورة أخرى .. لقد أصبح المكان هنا

أشبه بيراد كهربى .

نبحت (ميرا) فى ضعف ، وانكمشت أكثر بين ذراعى سيدتها ، التى ردَّدت فى تهالك :

- مقصورة أخرى .

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- نعم يا صغيرتى .. أنت تحتاجين إلى هذا كثيرًا .

تبعته فى استسلام ، وهى تحمل (ميرا) ، ولكنه لم يكد يمسك مقبض الباب ، حتى استعادت نشاطها فجأة ، وهتفت :

- لا .. مستحيل !

سألها فى قلق وسرعة :

- لماذا ؟.. أما يزال ذلك الوغد فى الجوار ؟

اعتدلت قائلة :

- لست أدرى أين هو ، ولكن لا يمكننى الخروج من المقصورة ، بهذه الهيئة الزرية .. ناولنى علبة أدوات الزينة أولًا .

حدَّق فى وجهها بدهشة ، ثم هزَّ رأسه ، مغمغمًا فى حنق :

- يا للنساء !!

خُيِّل إليه أن كل ماعانته فى الساعة الماضية قد تلاشى دفعة واحدة ، وهى تلتقط علبة أدوات الزينة من حقيبتها ، وتضع لمساتها منها بسرعة ، وهى تقول :

- إنها مسئولية جسيمة .. كيف يرى جمهورى هذا ؟

جذبها من يدها ، وهو يقول فى صرامة :

- لا وقت لهذه السخافات .. هيًا .

دفعها خارج المقصورة ، وهى تهتف معترضة :

- ليس من حقك أن تفعل هذا .

فتح المقصورة المجاورة ، ووجدها خالية ، فقال وهو يقودها إليها :

- أكملى عملك هنا .

استعادت (ميرا) نشاطها بدورها ، مع دفء المقصورة الثانية ، فى حين قالت (بوشكا) فى حدة :

- ماذا أصابكم اليوم أيها الرجال ؟.. أنت تدفعنى فى خشونة ، وذلك الحقير يصفعنى على وجهى ، و ...

قاطعها (أدهم) فى غضب :

- هل صفعك ذلك الوغد ؟

مطَّت شفتيها ، قائلة :

- نعم .. لقد فعل ، ولكننى لم أسكت .

سألها :

- وماذا فعلت ؟

ابتسمت فى ارتباك ، وهى تقول :

- بكيت .

اعتدل وهو يتطلَّع إليها لحظة ، ثم قال فى حزم :

- فليكن .. لقد منحتنى سببًا آخر لتمزيقه إربًا .

ومال نحوها ، وهو يستطرد :

- والآن اسمعينى جيدًا .. لا تغادرى هذه المقصورة قط ، مهما كان السبب .. هل تفهمين هذا ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ نعم .. أفهم .. ولتعلم أننى لم أكن أنوى مغادرتها ، دون أن تأمرنى بهذا .

قال فى اقتضاب :

ـ عظيم .

ثم غادر المقصورة ، وأغلق بابها خلفه ، وتحرك بسرعة فى الممر ، باحثًا عن غريمه ..

ولم تكن بالمهمة السهلة ..

كان عليه أن يفتش قطارًا بأكمله ..

ولقد فعل ..

لم يترك عربة من عربات القطار ، أو مقصورة من مقصوراته ، إلا وألقى عليها نظرة فاحصة ..

حتى بلغ العربة قبل الأخيرة ..

عربة المطعم ..

وهناك وجد (إيزاك) أمامه ..

كان يجلس إلى مائدة ، فى منتصف العربة ، ويتبادل الحديث مع شابة سوفيتية جميلة ، وهو يبتسم ، ويجرع كأسًا من الفودكا ..

وفى هدوء ، تحرك (أدهم) فى اتجاهه ، وهو يراقبه فى حذر ..

وكان (إيزاك) منهمكًا فى الحديث مع الفتاة ، ولكن لاحت منه التفاتة إلى ممر العربة ، ووقع بصره على (أدهم) ، فبتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى ذهول ، وهتف بصوت مختنق :

ـ مستحيل !

وهنا تحرك (أدهم) بسرعة أكبر ، ولكن (إيزاك) تخلص من

أثر المفاجأة بسرعة ، ودفع مقعده فى عنف ، وهو يهبّ واقفًا ، وينتزع مسدسه ، صارخًا :

ـ هذا مستحيل !

أطلق رصاصات مسدسه بلا تردّد ، وقفز (أدهم) جانبًا ، ليتفادى الرصاصات الثلاث ، فى حين تفجّر الرعب والذعر فى العربة ، وراح الجميع يتدافعون ويصرخون ، وسقط أحدهم صريع الرصاصات ، وانطلق (إيزاك) يعدو مبتعدًا ، وخلفه (أدهم) ، وعبر الأول عربة المطعم ، إلى عربة القطار الأخيرة ، التى انتقلت إليها موجة الرعب والذعر ، عندما شاهد ركّابها المسدس فى يده ، واندفعوا يحاولون الفرار ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها (أدهم) ، داخل العربة ، فاستدار إليه (إيزاك) ، وأطلق رصاصتين أخريين ، استقرتا فى جسد راكب مسكين ، سقط مضرجًا فى دمائه ، فقفز (أدهم) يتعلّق بحامل الحقائب ، وتجاوز الزحام بوثبة واخدة ، ليواصل مطاردته للإسرائيلى ، الذى أسرع يفتح الباب الخلفى للعربة ، ولكنه فوجئ ، بأن هذا الباب يقود إلى خارج القطار مباشرة ، فاستدار يواجه (أدهم) مرة أخرى ، وأطلق رصاصة جديدة ، تفاداها (أدهم) بانحناءة بارعة ، وهو يهتف :

ـ أنت تسرف كثيرًا فى إطلاق النيران أيها الوغد .

نطق (أدهم) هذه العبارة وهو يعتدل واقفًا ، ويواجهه بشكل واضح ، فصوّب (إيزاك) مسدسه إلى منتصف جبهة (أدهم) تمامًا ، وهو يصيح :

ـ النتائج هى المهمة يا صاح .

وضغط الزناد ..
ولم يتحرَّك (أدهم) قيد أنملة ..
ولم تصبه الرصاصة ..
كل مافعله مسدس (إيزاك) ، هو أن أطلق تكة معدنية ، دون نار أو دخان ..
وهنا ابتسم (أدهم) فى سخريةٍ ، وهو يقول :
ـ هل أدركت الآن أنك تسرف فى إطلاق النار أيها الوغد .. لقد ميَّزت أنا طراز مسدسك ، منذ النظرة الأولى ، وأنا أعرف أن خزانة هذا الطراز تحوى ست رصاصات فقط ، ولو أضفنا إليها رصاصة متأهبة ، فى ماسورة المسدس ، يكون المجموع سبع رصاصات فحسب ، ولقد أطلقتها كلها .. أليس كذلك ؟
شحب وجه (إيزاك) ، وتراجع بحركة حادة ، ثم استجمع شجاعته ، وانقضَّ على (أدهم) ، إلا أن هذا الأخير عاجله بلكمة كالقنبلة ، وهو يقول :
ـ ليس هذا هو الطريق الصحيح أيها الوغد .
تراجع (إيزاك) مرة أخرى ، مع عنف اللكمة ، ثم اندفع فجأة نحو باب العربة الخلفى المفتوح ، ووثب عبره ، ليتعلَّق بحاجز العربة الخارجى ، ودفع جسده إلى سطح القطار ..
وبلا تردد ، لحق به (أدهم) ، وهو يقول :
ـ إلى أين أيها الحقير ؟.. ألا تعلم أن القانون يحظر السفر ، فوق أسطح القطارات ؟
استدار (إيزاك) ، وركله فى عنف ، محاولًا إسقاطه ، ولكن

(أدهم) أمسك قدمه ، ودفعه فى قوة ، فأسقطه فوق السطح ، ثم دفع جسده إلى أعلى ، قائلًا فى سخرية :
ـ والآن ، هل تعود إلى القطار ، أم تدفع فارق السعر ؟
تراجع (إيزاك) بسرعة ، وانطلق يعدو فوق عربات القطار ، و (أدهم) يعدو خلفه ، فوق طبقة جليدية رقيقة ، يكفى خطأ واحد ، لتنزلق القدم فوقها ، ويسقط المرء من القطار ..
وعلى الرغم من أن (إيزاك) كان يعدو بكل سرعته ، إلا أنه شعر بوقع قدمى (أدهم) يقترب منه فى سرعة ، وأدرك أنه لا فائدة من محاولة الفرار ، فاستدار يواجه (أدهم) ، وهو يستلّ من حزامه خنجرًا ماضيًا ، ويقول فى حدة وعصبية :
ـ فليكن .. أنت الذى ..
ولكن قدم (أدهم) قفزت بأسرع من كلماته ، وركلت الخنجر بعيدًا ، ثم قبضت أصابعَ يدى (أدهم) على ذراعى (إيزاك) ، فهتف الأخير :
ـ اللعنة !
جذبه (أدهم) فى قسوة ، وهو يقول :
ـ ستحلّ هذه اللعنة على رأسك ، فى التو واللحظة ، لو لم أستعد ما سلبته منى .
صاح (إيزاك) فى غضب :
ـ هذه الأشياء تخصّنا نحن ، وأنت سلبتها منا .
قال (أدهم) فى سخرية :
ـ فليكن .. أنا رجل غير منطقى ، يروق لى أن أعكس كل

القواعد ، وأريد القائمة و (الميكروفيلم) حالًا .

هتف (إيزاك) :

ـ مستحيل !

لم يكد ينطق آخر حروف كلمته ، حتى هوت قبضة (أدهم) على فكه كالقنبلة ، وحطّمت اثنتين من أسنانه ، قبل أن يلوى (أدهم) ذراعه فى قوة ، جعلته يطلق صرخة ألم ، تناثرت معها الدماء من فمه ، ثم دسّ (أدهم) أصابع يده الأخرى فى جيوب معطفه وسرواله بسرعة ومهارة ، حتى التقط العلبة ، التى تحوى القائمة والميكروفيلم ، وفتحها بسبّابته وإبهامه ، ليتأكد من وجود الأشياء داخلها ، قبل أن يضعها فى جيبه ، وهو يبتسم فى سخرية ، قائلًا :

ـ شكرًا جزيلًا يا ملك الأوغاد .. سأرسل إليك برقية شكر خاصة ، عندما أعبر الحدود .

صرخ (إيزاك) :

ـ على جثتى .

ثم دار حول نفسه بحركة شديدة المهارة ، جعلته يتخلّص من قبضة (أدهم) ، ثم كال له لكمة أودعها كل قوته ، وهو يهتف :

ـ سيعود الطرد إلى صاحبه .

أصابت اللكمة فك (أدهم) مباشرة ، فتراجع لحظة ، أحسن (إيزاك) استغلالها ، وهو يركله فى صدره بعنف ، صائحًا :

ـ سأنتزعه من جثتك .

أفقدت الركلة (أدهم) توازنه ، وزلّت قدمه فوق طبقة الجليد ، وانزلق جسده بحركة عنيفة ، ووجد نفسه يسبح فى الهواء لحظة ،

قبل أن تقفز يداه للتشبث بحافة السطح ، فى اللحظة الأخيرة ..

وأطلق (إيزاك) ضحكة عصبية ، وهو يهتف :

ـ أرأيت يا رجل ؟.. من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

وأخرج مدية صغيرة من جيبه ، وهو يستطرد :

ـ والآن وداعًا أيها المتحزلق .

هتف به (أدهم) :

ـ لن تستعيد العلبة قط ، لو أنك أسقطتنى .

صاح (إيزاك) :

ـ خطأ .. سأعود لانتشال جثتك واستعادتها .

ثم هوى بمديته على يد (أدهم) ، صارخًا :

ـ إنها النهاية يا رجل .

ولكن (أدهم) ترك يده اليسرى تتخلّى عن الحافة فجأة ، وتقفز إلى أعلى ، لتلتقى بمعصم (إيزاك) ، ثم جذبه بكل قوته ، وهو يتشبّث بالحافة بيمناه ..

وفقد (إيزاك) توازنه بغتة ، فاتسعت عيناه فى ذعر ، وأطلق صرخة تجمع ما بين الدهشة والهلع ، ثم هوى جسده فى الفراغ ، وضرب الهواء بذراعيه لحظة ، قبل أن يرتطم بالجليد فى عنف ، وينزلق فوقه لعدة أمتار ، ثم يستقر جسده هناك ..

أما (أدهم) ، فقد عاد إلى سطح القطار ، وهو يبتسم قائلًا فى سخرية :

ـ الآن يمكنك تعديل الحكمة أيها الوغد .. من يسقط أخيرًا يسقط طويلًا .

كان يمكنه أن يعود إلى تلك العربة ، فى مؤخرة القطار ، إلا أنه كان يدرك أن رجال أمن القطار سيكونون هناك حتمًا ، بعد الرصاصات التى أطلقها (إيزاك) ، والضحايا التى سقطت ، فواصل طريقه ، فوق عربات القطار ، حتى عاد إلى نافذة المقصورة المحطَّمة ، وتشبَّث بالحافة ، ليثب داخل المقصورة ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة .

كان هناك جندى داخل المقصورة ، يصوِّب إليه مدفعه الآلى ، قائلًا :

ـ توقف وإلا ...

ولكن (أدهم) لم يتوقَّف ..

ولم يمنحه حتى الفرصة لإكمال حديثه ..

لقد دفع ماسورة المدفع بساعده ، وانقض على الجندى ، الذى هتف فى دهشة :

ـ قف أيها الرفيق ، أو ...

وهنا أخرسته لكمة ساحقة ، من قبضة (أدهم) الفولاذية ، فارتطم بجدار العربة ، وارتدّ عنه ، ليستقبله (أدهم) بلكمة أخرى أسقطته فاقد الوعى ..

والتقط (أدهم) أنفاسه ، وهو يغمغم :

ـ ترى ما سر وجودك هنا أيها السوفيتى ؟

نفض يديه وغادر المقصورة ، وأغلق بابها خلفه جيدًا ، ثم فتح باب المقصورة المجاورة ، التى ترك داخلها (بوشكا) ، وهو يقول :

ـ كيف حال الممثلة الأولى ؟..

واجهته فجأة فوهتا مدفعين آليين ، من جنديين سوفيتيين ، وقف ضابطهما فى نهاية المقصورة ، إلى جوار (بوشكا) ، التى هتفت محنقة :

ـ هل رأيت ماالذى فعلته بى أيها الوسيم ؟ لقد أصدروا أمرًا باعتقالى .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وتساءل عن السرّ فى إصدار قرار عنيف كهذا ، ضد الممثلة الأولى فى (الاتحاد السوفيتى) ، فى حين ابتسم الضابط وهو يقول :

ـ عظيم .. لقد اصطدنا عصفورين بضربة واحدة .

ثم التفت إلى (بوشكا) ، مستطردًا فى زهو ظافر :

ـ لست أظنكما تبلغان (لينينجراد) .. فالمحطة القادمة ستكون محطتكما الأخيرة .

ومع اتساع ابتسامته ، أدركت (بوشكا) أنه على حق ..

إنها النهاية ..

نهاية المطاف .

* * *



١٣ ـ اختطـــاف ..

انعقد حاجبا الجنرال (فاسيلوف) ، وهو يستقبل (أندريه رابين) فى مكتبه ، للمرة الثانية خلال بضع ساعات ، وقال فى لهجة تخلو من الترحيب والود :

ـ عجبًا يا (أندريه) !.. إنك تنقطع عن زيارتنا لسنوات طوال ، ثم ينتابك الشوق إلينا فجأة ، فإذا بك تغرقنا بزيارات لا حصر لها ، فى عشية وضحاها .. هل هبطت محبتنا فى قلبك فجأة ، أم أنك تسعى لكسب ودّنا ؟

ابتسم (أندريه) فى مكر ودهاء ، وهو يقول :

ـ لا هذا ولا ذاك ياعزيزى الجنرال .. كل مافى الأمر أننى أعتبر نفسى مسئولًا عما حدث ، وأحاول المساعدة فى إصلاح ما تلف .

مطّ (فاسيلوف) شفتيه ، وقال :

ـ عظيم .. هل توقّع إقرارًا رسميًا بهذا ؟

أطلق (أندريه) ضحكة صفراء ، وقال :

ـ دعنا من الرسميات ياجنرال .. إننى أحمل إليك خبرًا سعيدًا .

قال (فاسيلوف) فى برود :

ـ حقًا ؟!

اتجه (أندريه) إلى البار الصغير ، الملحق بمكتب (فاسيلوف) ، وصبّ لنفسه كأسًا من الفودكا ، وهو يقول بلهجة خاصة ، أراد أن يفجّر بها التأثير المنشود ، فى نفس الجنرال السوفيتى :

ـ لقد عرفنا مكان الجاسوس .

ارتسمت على شفتى (فاسيلوف) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ـ هكذا ؟!.. ياللعبقرية والدهاء !.. كيف يمكننا أن نكافئ عبقريتك الفريدة هذه ؟.. هل يكفيك الوسام الأحمر ، أم قلادة (لنين) ؟(★) .

انعقد حاجبا (أندريه) ، وهو يقول فى دهشة :

ـ جنرال .. هل تسخر منى ؟

ازدادت ابتسامة (فاسيلوف) سخرية ، وهو يقول :

ـ أسخر منك ؟!.. أى قول هذا يارجل ؟.. هيًا .. هات ما لديك بشأن ذلك الجاسوس .. كلى آذان صاغية .

بدا الغضب لحظات على وجه (أندريه) ، ثم لم يلبث أن تراجع ، وهو يقول فى ضيق :

ـ لقد استنتجت الخطوة التالية للجاسوس ، وقدّرت أنه سيحاول الفرار من الاتحاد السوفيتى كله ، كوسيلة للنجاة .. أو بمعنى أدق ، كأمل وحيد فى إنقاذ نفسه .. وكان السؤال الثانى هو أين ؟.. أين ينبغى له أن يجتاز الحدود ؟.. أو بمعنى أصح ، ماهى أضعف نقطة فى حدودكم كلها ؟..

(★) فلاديمير اليتش لنين : (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤ م) ، ثائر روسى ، ومؤسس الاتحاد السوفيتى ، نفى مرتين إلى (سيبيريا) ، هو المسئول عن انشقاق الحزب الاشتراكي إلى بلشفية ومنشفية ، عاد إلى (روسيا) بعد الثورة (فبراير ١٩١٧ م) ، وبعد الحرب الأهلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠ م) ، أسس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، ويرجع إليه تأسيس (الكومنترن) ، ولقد رأس الحزب الشيوعى ، ومجلس القوميساريين الشعبى ، وبعد وفاته ، حدث تنافس شديد على السلطة ، انتهى بفوز (ستالين) .

- تراجع (فاسيلوف) ، وقال فى برود :
- الحدود السوفيتية التركية .
التقى حاجبا (أندريه) ، وكأنما أحنقه الجواب ، ثم قال :
- ربما كانت أضعف نقطة من وجهة نظرك ، بسبب تعاطف القرى السوفيتية المتاخمة لتلك الحدود مع الأتراك ، بسبب عقيدتهم الإسلامية المشتركة ، ولكن تلك المنطقة بعيدة للغاية عن (موسكو) ، ويصعب الوصول إليها بسرعة ، أما النقطة التى أقصدها فهى فى الشمال .. (فنلندا) ياجنرال .
مط (فاسيلوف) شفتيه ، وهز رأسه على نحو لايحمل أية تعبيرات ، وأشار بيده ، قائلا :
- استمر .
خيل لـ (أندريه) أن الأمر قد حاز اهتمام (فاسيلوف) وانتباهه ، فتابع فى حماس :
- وأبسط وسيلة للوصول إلى خليج (فنلندا) ، هى القطار .. قطار (لينينجراد) السريع ، الذى يمكنه قطع المسافة ، من (موسكو) إلى (لينينجراد) فى ست ساعات فحسب ، ومن (لينينجراد) ، يمكنه بلوغ الخليج ، وتدبير وسيلة لعبوره إلى (فنلندا) .
قال (فاسيلوف) فى سخرية :
- هل تظن حدودنا مفتوحة إلى هذا الحد ؟
تجاهل (أندريه) السؤال ، حتى لايخسر التأثير المنتظر لحديثه ، وقال :

- وهنا لم أضع لحظة واحدة .. لقد استدعيت حارسى الخاص ، وأمرته أن يستقل ذلك القطار على الفور ، مؤكدا له أنه سيجد ذلك الجاسوس هناك .
قال (فاسيلوف) :
- عظيم .. لاتقل لى : إن حارسك الخاص يدعى (إيزاك) .
احتقن وجه (أندريه) ، وقال فى توتر :
- إنه هو ، ولكن كيف ..
قاطعه (فاسيلوف) ، وهو يلتقط ورقة صغيرة من أمامه :
- لقد وصلتنى ، قبل وصولك بلحظات ، إشارة عاجلة ، من إحدى نقاط المراقبة الخاصة بنا ، والمنتشرة عبر خط السكك الحديدية ، تفيد بحدوث اشتباك عجيب بين رجلين ، فوق سطح القطار ، انتصر فيه أحدهما على الآخر ، وألقاه من القطار .. ومن حسن حظ ذلك الساقط ، أن الجليد خفف كثيرا من وقع السقوط ، فلم يصب جسده إلا بكدمات محدودة ، وبعض الرضوض ، فى صدره وذراعيه ، ولقد ألقى رجالى القبض عليه فورا ، وعرفوا منه أنه أحد رجال سفارتكم ، ويدعى (إيزاك) .
ثم ابتسم فى سخرية شديدة ، قبل أن يستطرد :
- من الواضح أن رجلك يعرف كيف يؤدى عمله ، ياعزيزى (أندريه) .
احتقن وجه (أندريه) ، وهو يقول :
- (إيزاك) هو أفضل رجالنا .
قال (فاسيلوف) متهكما :

ـ حقًا ؟

أجابه (أندريه) فى عنف غاضب :

ـ نعم ياجنرال .. (إيزاك) هو أفضل رجالنا .. إنه على الأقل ، الوحيد الذى استطاع الوصول إلى الجاسوس الهارب .

تراجع (فاسيلوف) فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ هل تظن هذا حقًا ؟.. لماذا وجدتنى إذن شديد الاهتمام بقطار (لينتجراد) السريع ؟.. من الواضح أنك تجهل من نحن حقًا أيها الرفيق (أندريه) .

قال (أندريه) فى حدة :

ـ بل أعرف جيدًا من أنتم ياجنرال (فاسيلوف) ، وأعرف أيضًا أن تعقيداتكم وبيروقراطيتكم(*) تضع الكثير من العوائق أمامكم ، فى كل أمر .

أجاب (فاسيلوف) فى حزم :

ـ إلا الأمن .

قال (أندريه) :

ـ حقًا ؟!.. إنه دورى لأسخر منكم ياجنرال .. عن أى أمن تتحدث ؟.. أهو ذلك الأمن ، الذى قتلت قائده ؟ أم هو أمن حارستك الخاصة ، التى أرسلتها خلف الجاسوس ثم لم نسمع عنها شيئًا بعد ذلك .

(*) بيروقراطية : مجموع الأشخاص والهيئات الذين يتولون الوظيفة التنفيذية فى الدولة ، وتأتى الشكوى من تضخم هذه الهيئات ، وازدياد نفوذها ، على حساب الهيئات النيابية ، المعبّرة عن الإرادة الشعبية .

ابتسم (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ قولك هذا يؤكد أنك تجهل من هى (ناديا مينوفيتشى) .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ هذه الفتاة ليست فتاة عادية يارجل .. إنها واحدة من أقوى وأنجح أفراد فرقة خاصة ، تم إعدادها منذ عشرة أعوام ، بوسائل تجهلونها أنتم تمامًا ، ياشعوب الرأسمالية المغرورة .. لقد علمناها كيف تقاتل بلا كلل أو ملل أو هوادة ، ومهما كان الثمن أو كانت الظروف ، حتى لو اقتضى الأمر التضحية بحياتها نفسها ، لتنفيذ ما يأمرها به رئيسها .

قال (أندريه) محنقًا :

ـ بل قل سيدها .

هزّ (فاسيلوف) كتفيه ، وعاد بظهره إلى مقعده ، وهو يقول :

ـ هذه المسميات لا تعنى لنا شيئًا .. المهم أنها الطراز الذى نحتاج إليه بالضبط ، وعندما تظهر على الساحة ، سيصنع وجودها فارقًا .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

ـ فارقًا ضخمًا .

تطلّع إليه (أندريه) فى دهشة ، ونبت فى أعماقه سؤال واحد هام ..

ما الذى يمكن أن تفعله (ناديا مينوفيتشى) ، فى مواجهة رجل كهذا الذى رآه يعمل أمام عينيه ؟

وتمنى لحظتها لو عرف الجواب ..

عمليًا ..

* * *

كانت المفاجأة قوية بالنسبة لـ (أدهم) ، فهو يتوقَّع ، منذ نزع تنكره ، أن يواجه الكثير من المخاطر ، إلا أنه لم يتصوَّر أبدًا أن يصدر أمر باعتقال (بوشكا) ، ممثلة (الاتحاد السوفيتى) الأولى ..

كان من الواضح أن الضابط فخور بالإيقاع بهما ، مما يوحى بأن أمر اعتقال (بوشكا) قد صدر من أحد كبار رجال الحزب ، على نحو تتلاشى معه صداقاتها واتصالاتها ..

وعلى الرغم من دهشته ، بدا صوت (أدهم) هادئًا تمامًا ، وهو يتجاهل الضابط السوفيتى ، ويتطلَّع إلى (بوشكا) ، قائلًا :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

كانت تبكى فى حرارة ، وهى تقول :

ـ إنهم أوغاد .. لقد أذاعوا أننى جاسوسة وخائنة ، وأصدروا أمرًا عامًّا بإلقاء القبض علىَّ .. ياإلهى !.. إنهم سيعذبوننى حتى ألقى مصرعى .

ابتسم الضابط فى تشفٍّ ، وقال :

ـ هذا لو أنك سعيدة الحظ .. أما لو كان الأمر كما أتوقَّعه ، فهم سيكتفون باستجوابك ، ثم يرسلونك إلى (سيبيريا) ، حيث يذوى جمالك ويذوب وسط الثلوج ، وتتجمَّد أطرافك ، وتتساقط أصابعك من شدة البرد ، و ...

كان الهلع والذعر والارتياع يرتسمان فى ملامحها ، وفى اتساع عينيها ، وهو يتوغَّل فى حديثه ، وابتسامته تتسع أكثر وأكثر ،

وكأنما يتلذذ بتعذيبها ..

ولم يرق هذا لـ (أدهم) ..

لم يرق له قط ..

صحيح أنه لم يلتق بـ (بوشكا) إلا منذ ساعات قلائل ، ولا تربطه بها أية عاطفة خاصة .

ولكنها امرأة ..

امرأة ضعيفة ..

وفى شريعة (أدهم صبرى) ، كل امرأة تستحق حمايته ، إذا ما تعرَّضت للخطر ..

ومن هذا المنطلق ، اعتدل (أدهم) ، وقال فى صرامة :

ـ واصل حديثك أيها الوغد ، لو أنك مللت التعامل مع لسانك القذر ، وترغب فى أن أنتزعه من حلقك ، وألقيه طعامًا لهذه الكلبة الصغيرة .

نبحت (ميرا) ، وكأنها تؤيِّد حديثه ، فى حين اتسعت عينا الضابط السوفيتى ، وكأنما لايصدِّق أن يجرؤ مخلوق واحد على التحدث إليه بهذا الأسلوب ، وخاصة لو كان أسيرًا ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه فى غضب هادر ، وهو يقول :

ـ كيف تجرؤ ؟

أجابه (أدهم) :

ـ هكذا .

قالها وهو ينقضّ بقبضته على أنف الضابط ، ويحيله فى لحظة واحدة ، إلى كتلة من اللحم والعظام ، بلا معالم محدودة ، ويدفع



ثم دار حول نفسه فى هذا الحيز الضيق ، وحطَّم فك الجندى بلكمة كالقبلة ، قبل أن يلكم الثانى فى معدته وصدره ..

الضابط كله إلى الخلف ، وكأنما أصابته قذيفة مدفع ، وهو يطلق صيحة ألم عنيفة ، والدماء تتناثر من أنفه المحطَّم فى غزارة ..

وصرخت (بوشكا) ..

ومع صرختها غاصت قدم (أدهم) فى معدة أحد الجنديين ، فى نفس اللحظة التى رفعت فيها يده ماسورة مدفع الجندى الآخر عاليًا ، والرصاصات تنطلق منها ، وتخترق سقف القطار ، ثم دار حول نفسه فى هذا الحيز الضيق ، وحطَّم فك الجندى بلكمة كالقنبلة ، قبل أن يلكم الثانى فى معدته وصدره ، ويسقط الجنديان فاقدى الوعى ..

أما الضابط ، فصرخ وهو ينتزع مسدسه ، ويمسك أنفه المحطَّم :

- لا أحد يفعل هذا بضابط سوفيتى ، لا أحد .

هوى (أدهم) على فكه بلكمة ساحقة ، وهو يقول ساخرًا :

- اعتبرنى إذن لا أحد .

ارتطم رأس الضابط بالنافذة ، مع عنف اللكمة ، ثم ترنَّح ، وسقط أرضًا ، وهنا تحرَّك (أدهم) فى سرعة ، فالتقط مسدس الضابط ، ودسَّه فى حزامه ، ثم حمل أحد المدفعين الآليين ، والتفت إلى (بوشكا) ، التى انكمشت فى ركن المقعد مذعورة ، وهى تحتضن (ميرا) ، وقال فى صرامة :

- هيًا .

قالت وهى ترتعد ذعرًا :

- إلى أين ؟.. لقد أصدروا أمرًا باعتقالى .

قال فى حزم :

- وماذا تنتظرين إذن ؟.. قدومهم ؟!

تطلّعت إليه مذعورة ، فجذبها مستطردًا :

ـ هيّا .. لاوقت نضيعه .

حملت (بوشكا) كلبتها (ميرا) ، وهى ترتجف ، فالتقط (أدهم) علبة أدوات الزينة الخاصة بها ، ودفعها إليها ، وهو يقول :

ـ خذى الضروريات الأساسية !

حدّقت فى وجهه لحظة ، وهمست :

ـ أشكرك .

جذبها إلى خارج المقصورة ، وتحرّك معها فى سرعة ، عبر الممر الذى يربط المقصورات ببعضها ، وهو يحمل المدفع الآلى ، ومن خلفهما تعالى وقع أقدام تقترب فى سرعة ، فحثّها على السير ، قائلًا :

ـ أسرعى .. سيهاجموننا بعد لحظات .

فتح الباب الذى يقود إلى العربة التالية ، فى نفس اللحظة التى انفتح فيها الباب ، الذى يقود إلى العربة السابقة ، فدفعها (أدهم) إلى الأمام ، ثم استدار فى سرعة ، وأطلق نيران مدفعه الآلى ، نحو الجنود ، الذين حاولوا اقتحام العربة ، فتراجعوا بسرعة ، وبدءوا يطلقون النيران بدورهم ، فجذب (أدهم) (بوشكا) ، وراح يعدو بها عبر العربة التالية ، وهى تصرخ :

ـ رويدك .. ستسقط (ميرا) .

وصل معها إلى باب العربة الأخيرة قبل القاطرة ، فدفعها إليها ، واستدار يطلق النيران على الباب الخلفى ؛ ليمنع الجنود من

مطاردتهما ، ثم واصل جريه معها ، حتى بلغا نهاية العربة ، فقالت (بوشكا) مرتعدة :

ـ إنها نهاية المطاف .. لم يعد أمامنا سوى القاطرة نفسها .

قال فى حزم :

ـ سنذهب إليها .

قالها وفتح الباب الأخير ، ودفعها عبر ممر مكشوف ، إلى حاجز ضيق ، فى مؤخرة القاطرة ، فصرخت فى رعب :

ـ النجدة .. ماذا تفعل بى ؟

قادها فى حزم إلى ذلك الحاجز ، وهو يقول :

ـ تشبّثى جيّدًا .

أمسكت الحاجز بيمناها بكل قوتها ، وضمّت إليها (ميرا) بيسراها ، فى حين استدار هو ، وراح يغلق الباب الخلفى فى إحكام ، فسألته وهى ترتجف بردًا وذعرًا :

هل تتوقّع أن يمنعهم هذا طويلًا ؟

أجاب فى حسم :

ـ أحتاج إلى عشر دقائق فحسب .

سألته فى دهشة وقلق :

ـ وماذا سنفعل بعدها ؟

تجاهل السؤال تمامًا ، وهبط على نحو مباغت إلى الحلقة الضخمة ، التى تربط القاطرة بعربات القطار ، وراح يجاهد لحلّ سلسلتها الضخمة ، ثم لم يلبث أن صعد إلى الحاجز الضيق ، فى مؤخرة القاطرة ، فسألته :

ـ ماذا فعلت بالضبط ؟

أجابها فى حزم :

ـ تشبَّثى جيِّدًا .

ثم صوَّب مدفعه الآلى إلى السلسلة ..

وأطلق النار ..

وفى الظروف الطبيعية ، لم يكن من الممكن أبدًا أن تتسبَّب هذه الرصاصات فى تحطيم سلسلة لها مثل هذه القوة ..

ولكن (أدهم) كان يجيد التصويب ..

ويجيد اختيار الأماكن ، التى يصوِّب رصاصاته إليها ..

ولكن الجنود وصلوا فى اللحظة نفسها ، واقتحموا الباب برصاصاتهم ، و ...

وانفصلت القاطرة ..

فى نفس اللحظة التى ظهر فيها الجنود ، عند باب العربة الأخيرة ، انفصلت قاطرة القطار عن العربات ، وأدَّى هذا الانفصال إلى انخفاض قوة الشد بصورة مباغتة ، وزيادة سرعة القاطرة بغتة ، فابتعدت عن العربات ، و (أدهم) يطلق رصاصاته نحو الجنود ، ليجبرهم على التراجع ، ويفسد محاولتهم لاقتناصه ..

ولكن فجأة ، انتبه إلى أن تلك الاندفاعة المفاجئة قد أفقدت (بوشكا) توازنها ، فأطلقت صرخة رعب ، وهى تهوى من القطار ، وأغمضت عينيها ، فى انتظار الموت السريع ، و ...

ولكن أصابع (أدهم) أطبقت على ذراعها فجأة ، وأعادتها إلى القطار فى حركة عنيفة ، فصرخت :

ـ آه .. إنك تؤلمنى .

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ أعتقد أننى أنقذت حياتك أيضًا .

قالت فى حدة :

ـ هذا لايبرِّر إيلامى على هذا النحو .

ثم انكمشت على نفسها ، وهمست متراجعة :

ـ ولكنه يستحق الشكر .

هزَّ رأسه ، وهو يغمغم :

ـ يا للنساء !!

ثم استدار إلى باب القاطرة الخلفى ، ودقَّه فى صرامة بمدفعه الآلى ، قائلًا :

ـ افتح أيها السائق .. هناك خلل أمنى .

صاح السائق من الداخل :

ـ مستحيل !.. أنت جاسوس .. أنا أعرفك .. لقد وزعوا نشرة بأوصافك .

قال (أدهم) فى حزم :

ـ افتح أو أطلق النار .

جاءه صوت مهندس القطار من الداخل ، قائلًا :

ـ هذا الباب مصفَّح .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ دعنا نختبر هذا .

وصوَّب مدفعه إلى رتاج الباب ..

ودوت الرصاصات ..

وأطلقت (بوشكا) صرخة رعب هائلة ، فتلك الرصاصات لم تنطلق من مدفع (أدهم) ، ولكن من هليوكوبتر حربية ، ظهرت فجأة فى السماء ..

هليوكوبتر تقودها (ناديا) ..

(ناديا مينوفيتشى) .

★ ★ ★



١٤ ـ المطاردة الشرسة ..

التف مدير المخابرات المصرية ، مع عدد من معاونيه ، حول خريطة ضخمة للاتحاد السوفيتى ، تغطى منضدة ضخمة ، وراحوا يناقشون موقف (أدهم) ، ومناطق الحدود السوفيتية ، وقال أحد الخبراء :

ـ من الواضح أن أفضل احتمالين للفرار ، هما عبر الحدود التركية أو الفنلندية ، وبالنسبة للاحتمال الأوّل ، سيكون على (أدهم) أن ينتقل من (موسكو) إلى (كييف) أو (خاركوف) ، ومنها إلى (جورجيا) أو (أرمينيا) ، أو (أذربيجان) ، ثم يجد وسيلة لعبور الحدود إلى (تركيا) ، أما بالنسبة للاحتمال الثانى ، فعليه أن ينتقل إلى (لينينجراد) ، ومنها عبر الخليج إلى (فنلندا) ، أو يعبر بحيرة (لاروجا) إلى (بتروزافرسك) ، أو الحدود الفنلندية مباشرة .

قال آخر :

ـ فى هذه الحالة أعتقد أنه سيختار الحدود التركية ، فالسفر إلى الشمال يزيد من الصعوبات ، ومن حدة البرودة ، كما أن (تركيا) ستكون أكثر أمنًا .

اندفع ثالث يقول :

ـ خطأ .. هناك مثل أمريكى يقول : إن عدد الجواسيس السوفيت فى (تركيا) ، يفوق عدد الأتراك أنفسهم .

قال رابع مؤيّدًا :

ـ هذا صحيح ، مما يعنى أنه سيختار الحدود الفنلندية .

وهتف خامس :

ـ أشعر بالحنق ، ونحن نتحرَّك هكذا كالعميان .. ألا توجد وسيلة للاتصال بـ (أدهم) هذا ، أو معرفة خطواته .

هزَّ المدير رأسه نفيًا ، وقال :

ـ ليس فى الوقت الحالى ، ولكننا على أية حال ، سنواصل استنتاج وتخمين خطواته القادمة .

ثم أشار إلى الخريطة ، مستطردًا :

ـ ولكننى أميل إلى اختيار الحدود الفنلندية .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت مدير مكتبه ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول :

ـ سيّدى .. النقيب (حازم) يطلب رؤيتك على الفور .

ضغط المدير زرّ الاتصال ، وهو يقول :

ـ دعه يدخل .

استدارت عيون الجميع إلى (حازم) الذى دلف إلى الحجرة فى هدوء ، واتجه بخطوات واسعة إلى المدير ، وقال :

ـ أعلنت الإذاعة السوفيتية أن سلطات الأمن عثرت على وثائق ، تدين الممثلة الأولى (بوشكا) ، بتهمة الخيانة العظمى ، وأنه صدر أمر باعتقالها ؛ لأنها عاونت جاسوسًا على الفرار .

هتف المدير فى انفعال :

ـ (أدهم) !

أومأ (حازم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ على الأرجح ، ولو كان استنتاجنا صحيحًا ، فهذا يعنى أننا نعرف ـ تقريبًا ـ إلى أين يتجه (أدهم) .

سأله المدير فى اقتضاب واهتمام :

ـ كيف ؟

أشار (حازم) إلى الخريطة ، وقال :

ـ تبعًا لما نشرته (البرافدا)(*) من قبل ، فمن المفروض أن تستقل (بوشكا) قطار الفجر ، من (موسكو) إلى (لينينجراد) ؛ لحضور حفل افتتاح فيلمها الجديد هناك ، وأعتقد أن سبب صدور أمر باعتقالها ، هو أنها اصطحبت (أدهم) معها ، على نحو أو آخر ، مما يشير إلى أنه قد انتقى الحدود الفنلندية ، لمغادرة (الاتحاد السوفيتى) .

اعتدل مدير المخابرات ، وزفر فى ارتياح ، وهو يقول :

ـ عظيم .

ثم التفت إلى أحد معاونيه ، واستطرد :

ـ اتصل بمندوبنا فى (فنلندا) ، واطلب منه أن يتأهب لاستقبال (أدهم) ، وأن يحصل على القائمة والأفلام منه ، ويرسلها إلينا على الفور ، بالحقيبة الدبلوماسية ، أو بأسرع وسيلة ممكنة .

(*) (البرافدا) : صحيفة يومية سوفيتية ، اسمها يعنى (الحقيقة) ، وهى لسان حال الحزب الشيوعى ، صدرت عام ١٩١٢ م فى (بطرسبرج) ، و أصبحت صحيفة اللجنة المركزية ، ولجنة الحزب الشيوعى فى (موسكو) عام ١٩١٧ م ، ثم انتقلت إلى (موسكو) ، وشارك فى تحريرها (لنين) ، و (ستالين) ، و (مولوتوف) ، و (كالينين) ، وهى أوسع الصحف السوفيتية انتشارًا .

أسرع الرجل لتنفيذ الأمر ، فى حين بدأ الخبراء جولة جديدة من المناقشات ، على ضوء المعلومات الجديدة ، وغمغم المدير فى توتر :

ـ ربّاه !.. كم أشعر بالقلق ، كلما تصوّرت أنه يوجد الآن ، وفى هذه اللحظة بالذات ، فريق مماثل ، فى مبنى الـ (كى . جى . بى) ، يقوم بدراسة الموقف مثلنا تمامًا ، ويمكنه أن يتوصّل إلى نفس ما نتوصّل إليه من معلومات ، ولكن على نحو أكثر سرعة ودقة .

قال (حازم) :

ـ ربّما كان هذا صحيحًا ، ولكن ليس لديهم حتمًا رجل مثل (أدهم) .

رمقه المدير بنظرة ثاقبة ، ثم أشاح عنه بوجهه ، وغمغم :

ـ فلنتأمل هذا يا رجل .. فلنأمل هذا .

★ ★ ★

جاء ظهور (ناديا) ، وتدخّلها مباغتًا حقًّا ، حتى أن (أدهم) رفع حاجبيه فى دهشة ، قبل أن يعقدهما فى شدة ، ويهتف فى (بوشكا) :

ـ ابتعدى .

لم تدر (بوشكا) أين تذهب بالضبط ، وإلى أين تبتعد ، وهى تقف أمام ذلك الحاجز الضيق ، فوق شريط معدنى ، لا يتجاوز عرضه خمسة عشر سنتيمترًا ، فاكتفت بأن انكمشت فى موضعها ، وراحت تصرخ فى رعب ..

أما (أدهم) ، فقد استدار إلى الهليوكوبتر ، وأطلق نحوها نيران مدفعه ..

وفى الهليوكوبتر ، ابتسمت (ناديا) فى برود ، وتمتمت :

ـ من يتصوّر نفسه ؟.. هل سيواجه هليوكوبتر حربية سوفيتية ، بمدفع آلى واحد ؟!

ثم انقضّت مرة أخرى ، وأطلقت نيران مدفع الهليوكوبتر ..

وصرخت (بوشكا) فى رعب أكثر ، وهى تسمع صوت ارتطام الرصاصات بالباب المعدنى ، على الرغم من أن (أدهم) ظلّ قويًا متماسكًا ، وهو يطلق النيران نحو الهليوكوبتر ..

ولكن جسم الهليوكوبتر كان مصفّحًا بحق ..

أو أنه كان يحتاج إلى سلاح أكثر قوة ..

ولواحدة من المرات النادرة فى حياتها ، أطلقت (ناديا) ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

ـ حاول يارجل .. أطلق نيرانك أكثر وأكثر .. كل هذا مجرّد عبث .

وشعر (أدهم) بهذا بالفعل ، على الرغم من أنه لم يسمع عبارتها ، فقد كانت رصاصات مدفعه ترتطم بجسم الهليوكوبتر المصفّح ، ثم ترتدّ عنه فى عنف ، كما لو كانت كرات من المطاط تضرب جدارًا قويًا ..

وصاحت (ناديا) :

ـ الآن حصلت على فرصتك كاملة .. والآن حان دورى .

وأحسنت تصويب مدفع الهليوكوبتر هذه المرة ، و ...

وبلغت القاطرة أحد أنفاق الطريق ، فى اللحظة نفسها ، واختفت

داخله ، فهتفت (ناديا) فى غضب عصبى :

ـ اللعنة !

ثم أضافت فى حزم :

ـ فليكن .. إنها دقيقة واحدة ، ونعود لنلتقى .

وزادت من سرعة الطائرة ، حتى تتجاوز النفق ، قبل أن تعبره القاطرة ، ثم استدارت فى نهايته لتواجه القاطرة ، التى غادرته بعد دقيقة كاملة بالفعل ، وواصلت طريقها بسرعة أكبر ، ولكن الهليوكوبتر دارت حولها ، وهمّت (ناديا) بإطلاق نيران مدفعها مرة أخرى ، و ...

واتسعت عيناها فى دهشة .

لقد اختفى (أدهم) و (بوشكا) من خلف القاطرة ..

اختفيا تمامًا ..

وجنّ جنون (ناديا) ، وهى تقول فى غضب :

ـ اللعنة !.. لقد قفزا من القطار داخل الممر .

أحنقها أن ينجح (أدهم) فى خداعها ، بعد أن تصوّرت أنها صاحبة اليد الطولى ، فاستدارت بالهليوكوبتر عائدة إلى النفق ، وانخفضت بها ، بحيث أصبح النفق فى مستوى نظرها ، وانعقد حاجباها فى شدة ، وهى تحاول اختراق حجب الظلمة ، فى أعماق النفق ، ثم تألّقت عيناها فى ظفر ، عندما لمحت شبح جسدين ، يتحركان داخل الممر ، وهتفت شامتة ظافرة :

ـ مهما فعلت أيها المتحزلق .. (ناديا) هى التى ستضع مشهد النهاية .

وضغطت زرّ إطلاق مدفع الهليوكوبتر ..

وانطلقت الرصاصات عبر النفق ..

وأصابت أهدافها ..

وعلى الرغم من الضوء الخافت ، شاهدت (ناديا) رصاصاتها تخترق الجسدين ، وتنتزعهما من مكانهما ، ثم تلقيهما أرضًا ، فواصلت إطلاق النيران بضع لحظات ، وكأنها تصرّ على التيقّن من مصرعهما ، حتى امتلأ النفق بدخان النيران ، فاعتدلت فى اعتداد ظافر ، وقالت :

ـ هكذا تكون النهاية .

وهبطت لتستقر بالهليوكوبتر على الأرض ، إلى جوار شريط القطار ، ثم غادرتها ، وانتزعت مسدسها الآلى فى حذر ، وهى تتقدّم داخل النفق ..

كانت ترغب فى أن تتأكّد بنفسها من مصرع (أدهم) و (بوشكا) ، مما دفعها إلى اختراق نصف النفق الطويل ، قبل أن تتوقّف أمام الجثتين ، وتشعل مصباحها اليدوى ، وتسقط ضوءه على وجهيهما ، وهى تقول :

ـ نظرة أخيرة قبل الرحيل .

ولم يكد ضوء مصباحها اليدوى يسقط على الوجهين ، الذين لوّثتهما الدماء ، حتى انعقد حاجباها فى شدة ، وصرخت :

ـ لا .. لا .. مستحيل !.. مستحيل !

وردّد النفق صرختها الغاضبة ..

ردّدها طويلًا .

* * *

ما الذى حدث بالضبط ؟!..

ما سر صرخة (ناديا) ، وغضبها ؟!..

لو أردت معرفة الجواب ، فمن المحتم أن نعود بالأحداث إلى الماضى ..

إلى تلك الدقيقة ، التى استغرقتها القاطرة ، فى عبور النفق ..

لقد أيقن (أدهم) منذ البداية ، أن التغلّب على هذه الهليوكوبتر الحربية السوفيتية مستحيل ! ، مادام لا يمتلك سوى مدفع آلى واحد ..

ولكنه لم يشعر باليأس ..

كل ما شعر به ، هو ضرورة البحث عن وسيلة جديدة للنجاة ..

وفى نفس الوقت ، كانت (بوشكا) تصرخ فى انهيار :

- إنها النهاية .. إنها النهاية .

و (ميرا) تنبح مذعورة ، وكأنها تشارك سيدتها رعبها وانهيارها ..

ثم دخلت القاطرة النفق ..

وهنا تحرّك (أدهم) ..

تحرّك بسرعة مذهلة ، اتسعت لها عينا (بوشكا) ، وانحبس لها النباح فى حلق (ميرا) ..

ولكنه لم ينتبه إلى هذا ..

كان عقله كله مشغولاً بإعداد خطته ، حتى يمكنه الإفادة من الوقت القصير ، الذى ستعبر فيه القاطرة النفق ..

وفى خفة مدهشة ، قفز (أدهم) إلى سطح القاطرة ، وزحف فوقه بسرعة ، حتى بلغ موضع النافذة الجانبية ، فتشبّث بالسطح

بيسراه ، ومال على نحو مخيف ، ليطلق رصاصات مدفعه الآلى على النافذة الزجاجية ..

وتراجع سائق القطار ومهندسه فى ذعر ، عندما رأيا الرصاصات تخترق النافذة ، وتحيلها إلى حطام ، وقفز أوّلهما يحاول التقاط مسدس الطوارئ ، إلا أنه فوجئ بـ (أدهم) يثب عبر النافذة ، وينتزع المسدس من يده ، ثم يلكمه لكمة كالقنبلة ، بلغت من قوتها أن انتزعته من مكانه ، وألقته عبر النافذة المحطّمة إلى الممر ..

وانقضّ المهندس على (أدهم) ، وحاول أن يلكمه فى فكه ، ولكن (أدهم) انحنى متفاديًا لكمته ، ثم اعتدل ليلكمه فى معدته ، قبل أن يحمله بحركة سريعة ، ويلقى به عبر النافذة ..

ودون أن يضيع (أدهم) لحظة واحدة ، اندفع إلى الباب الخلفى المصفّح ، وجذب رتاجه ، ثم فتحه ، ومد يده يجذب (بوشكا) إلى الداخل ..

واتسعت عينا (بوشكا) فى دهشة ، وهى تهتف :

- كيف فعلت هذا أيها الوسيم ؟

قال وهو يجذبها بسرعة :

- أقنعتهما بأن يتركا لنا القاطرة ، مقابل توقيع أنيق فى دفتريهما .

نبحت (ميرا) ، وتملّصت من ذراع (بوشكا) ، لتقفز إلى الداخل ، ولكنها انزلقت ، وهوت خارجًا ، فصرخت (بوشكا) فى ارتياع :

- (ميرا) ؟.

فوثب (أدهم) فى خفة ، والتقط الكلبة الصغيرة ، قبل أن تسقط ، وجذبها إلى الداخل ، وهو يدفع (بوشكا) ، قائلًا :

ـ أسرعى .. لا وقت لدينا .

ولم يكد يغلق الباب الخلفى ، حتى كانت القاطرة تعبر النفق ، فى وجه الهليوكوبتر مباشرة ..

وتوقف قلب (بوشكا) عن النبض ..

لقد تصورت أن (ناديا) ستنقض على القاطرة ، وتمطرها بالرصاصات ، التى تخترق النوافذ ، وتقتلهم جميعًا ..

ولكن (ناديا) لم تفعل ، وإنما تراجعت عائدة إلى النفق ، كما سبق أن روينا ، فتنفست (بوشكا) الصعداء ، وهى تقول :

ـ لقد نجونا .

أجابها (أدهم) ، وهو يتجه إلى أجهزة القيادة :

ـ ليس بعد .. كنت أتوقع مافعلت ، فهى ستتصور أننا قفزنا من القاطرة داخل النفق ، وستعود حتمًا للتأكد من ذلك ، إلا أنها لن تلبث أن تدرك الحقيقة ، وعندئذ ستنطلق خلفنا غاضبة .

شحب وجه (بوشكا) ، وهى تقول :

ـ وماذا سنفعل حينذاك ؟

هز رأسه ، وهو يقول فى هدوء أدهشها :

ـ لست أدرى .. إننا محاطون بالثلوج من كل جانب ، وأفضل ما نفعله هو أن نبتعد عن هنا بقدر الإمكان ، فكل كيلومتر نقطعه ، يجعلنا نقترب من خليج (فنلندا) ، ومن الحرية .

قالها بكل الثقة ، على الرغم من أنه ، فى أعماقه ، بدأ يشعر

بالشك ، فى قدرتهما على بلوغ الخليج ..

وعلى النجاة ..

★ ★ ★

لو أننا أردنا وصف كل ذلك الغضب ، الذى ملأ قلب (ناديا) ، عندما كشفت الخدعة ، التى أوقعها فيها (أدهم) ، لما وجدنا الكلمات المناسبة ، فذلك الغضب كان يفوق البركان ثورة ، والعاصفة عنفًا ..

ولكنها تماسكت ..

تمالكت أعصابها ، على الرغم من كل هذا ، والتقطت نفسًا عميقًا ، وهى تقول :

ـ لن يفلت .. لن يفلت مهما فعل .

وانطلقت تعدو عبر الممر ، عائدة إلى الهليوكوبتر ، وقفزت داخلها ، ثم جذبت عصا القيادة ، وارتفعت بها على نحو بالغ الخطورة والسرعة ، وانطلقت تطارد القاطرة مرة أخرى ..

كانت الدماء تغلى فى عروقها ، من فرط الغضب ، مما جعلها تزيد من سرعة الهليوكوبتر إلى أقصى حد ، متتبعة شريط القطار ، حتى لمحت القاطرة من بعيد ، فكشرت عن أنيابها ، وقالت فى غضب :

ـ فى هذه المرة ، لن تكون هناك أخطاء .

كانت القاطرة تنطلق بأقصى سرعة ، تسمح بها محركاتها ، إلا أن هذه السرعة لم تكن تكفى أبدًا ، للإفلات من هليوكوبتر حربية ، مما سمح لـ (ناديا) باللحاق بها بسرعة ، فهتفت وهى تضغط زر مدفعها :

- لا أخطاء .

وانهمرت الرصاصات كالمطر ..

وفى القاطرة ، صرخت (بوشكا) ، مع صوت الرصاصات ، التى تنهال على جدار المقطورة ، وهتفت :

- أنت على حق .. لقد عادت .

لم يلتفت إليها (أدهم) ، وأولى كل اهتمامه للانطلاق بأقصى سرعة ، فى حين زادت (ناديا) من سرعتها ، وتجاوزت القاطرة ، وراحت تنهال عليها مرة أخرى بالرصاصات ، التى اخترقت زجاجها الأمامى ، ونثرته على جسدى (بوشكا) و (أدهم) ، اللذين احتميا منه ومن الرصاصات ، فور رؤيتهما الهليوكوبتر تتجاوزهما ، ثم التقط (أدهم) مدفعه ، وراح يطلق النار على الهليوكوبتر ، عبر النافذة المكسورة ، فجاوبته (ناديا) بمزيد من النيران ، وصاحت (بوشكا) منهارة :

- إنها أكثر قوة منا ، وستنالنا حتمًا .

قال (أدهم) فى حزم :

- لست أميل إلى روح الإحباط هذه .. من حسن حظنا أن جدران القاطرة قوية ، ويمكنها احتمال الرصاصات .

قالت باكية :

- وماذا عن النافذة المحطّمة ؟

انهمر سيل آخر من الرصاصات على القاطرة ، فصرخت مذعورة ، ولكن (أدهم) جذبها إلى حيث يجلس ، وتركها تحتضن

(ميرا) فى رعب ، وهو يجيبها بصوت هادئ ، فى محاولة لتهدئة أعصابها :

- من حسن حظنا أيضًا أن القاطرة تسير فوق قضبان ، ولا نحتاج إلى قيادة فعلية ، كما لاتوجد تحويلات فرعية ، تخرجنا عن خط سيرنا على الرغم منا ، ثم إننا نجلس فى ركن محاط بالجدران ، التى تحمينا من الرصاصات ، و ...

قطع عبارته مع دوى انفجار هائل ، أصاب جانب القاطرة ، وكاد يخرجها عن القضبان ، بعد أن شقّ جزءًا من جدارها الأيمن ، فهتف (أدهم) :

- الصواريخ .

ارتجفت (بوشكا) ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وهى تقول بصوت شاحب مرتعد :

- أية صواريخ ؟

أجاب ، وقد انعقد حاجباه فى صرامة :

- هذا الطراز من طائرات الهليوكوبتر مزوّد بصاروخين قويين ، من الصواريخ المضادة للدبّابات ، ولو أن تلك الملعونة أحسنت إصابة الهدف ، لانشطرت القاطرة إلى نصفين .

صرخت (بوشكا) :

- ماذا ؟!.. إلى نصفين ؟!.. هل يعنى هذا أن .. أن ...

ثم هبّت واقفة ، وهى تواصل صراخها :

- أخرجنى من هنا .. لا أريد أن أموت .

جذبها إليه ، هاتفًا :

- اجلسى .

أنقذتها جذبته من سيل الرصاصات ، عبر القاطرة ، وأصاب جدرانها من الداخل ، فحدقت (بوشكا) فى وجهه لحظة ، ثم انفجرت باكية ، فتركها تفرغ دموعها وانفعالاتها فى ركن القاطرة ، والتقط مدفعه ، وهو يغمغم :

- من سوء حظنا هذه المرة ، أن تلك الهليوكوبتر من أقوى الطرازات ، التى أنتجها السوفيت ، فجدرانها مصفحة أو شبه مصفحة ، وحتى زجاجها من النوع المضاد للرصاصات ، ومروحتها مدعمة بعوازل من شبكات الصلب .. باختصار .. هى من ذلك الطراز ، الذى يستحيل إسقاطه ، إلا بمدفع ضخم ، أو صاروخ مضاد للطائرات .

هتفت فى حنق :

- هل تقول هذا لتسعدنى ؟

نهض مغمغمًا :

- بل أتحدث إلى نفسى .

أطلق دفعة أخرى من الرصاصات نحو الهليوكوبتر ، دون أدنى أمل ، فى حين انهارت (بوشكا) ، قائلة :

- لاداعى لكل هذا .. دعنا نجلس فحسب ، وننتظر الموت فى استسلام .

سمعته يقول فى صرامة :

- لست أعتقد هذا .

رفعت رأسها متسائلة ، فقال بصوت يفوح برائحة الأمل :

- هناك نفق آخر .

لم يكد ينتهى من نطقها ، حتى أحاط بهما الظلام ، والقاطرة تعبر النفق الثانى ، ورأت (بوشكا) (أدهم) يجذب فرامل القاطرة فى قوة ، قبل نهاية النفق ، فهتفت :

- ماذا تفعل ؟

أجابها فى حماس :

- سنتوقف قليلًا .

سألته حائرة :

- وبم يفيد هذا ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

- من يدرى ؟

لم تفهم مايعنيه ، ولكنها رأته يوقف القاطرة ، ويبقى المحركات دائرة ، فتساءلت فى نفسها عما يقصده ، ولم تلبث أن عجزت عن كتمان السؤال فى صدرها الفضولى ، مما جعلها تعتدل ، وتنسى الخطر المحيط بهما ، وهى تسأله فى اهتمام :

- هل تخطط لأمر ما ؟

تمتم فى خفوت :

- بالتأكيد .

وجلس ينتظر فى صمت .

أما (ناديا) ، فقد أطلقت صاروخها الأول نحو القاطرة ، وهى تنوى نسفها ، إلا أن القاطرة كانت تسير بأسرع مما توقعت ، فانحرف الصاروخ بمقدار سنتيمترات قليلة ، وأصاب طرف الجدار

الأيمن للقاطرة ، بدلًا من أن يخترق منتصفها تمامًا ، وانفجر فى عنف ، وشقّ الجدار ، وكاد يخرج القاطرة عن قضبانها ..

إلا أن هذا لم يرض (ناديا) ..

إنه ـ على العكس ـ أحنقها ، وأغضبها ، فضغطت أزرار الاستعداد ؛ لإطلاق الصاروخ الثانى ، وهى تقول فى غضب :

ـ ماذا دهاك يا (ناديا) ؟.. قلنا لا أخطاء .

مالت بالهليوكوبتر ؛ استعدادًا لإطلاق الصاروخ الثانى ، إلا أن القاطرة بلغت النفق الجديد هذه المرة ، فصاحت :

ـ لا .. ليس ثانية .

وزادت من سرعتها لتتجاوز النفق ، ثم أدارت الهليوكوبتر ، وهبطت لتواجه مخرج النفق مباشرة ، وما أن لمحت القاطرة داخله ، حتى هتفت :

ـ ها هو ذا .

وضغطت أزرار الاستعداد بسرعة ، ثم هتفت ، وهى تستعد لضغط زر الإطلاق :

ـ الوداع أيها الجاسوس .

وأصبح من الواضح أن مطاردة القاطرة والهليوكوبتر قد بلغت مرحلة جديدة ..

مرحلة النهاية .

★ ★ ★

١٥ ـ خارج الخط ..

« كفى .. » .

نطقت (منى) الكلمة فى حزم صارم ، وعلى نحو أثار دهشة (قدرى) ، وجعله يميل نحوها ، قائلًا فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟.. هل أصابك شىء ما ؟

تنهّدت فى عمق ، وهى تفرد ذراعيها عن آخرهما ، وتدفعهما إلى ماخلف ظهرها ، مجيبة :

ـ نعم .. الإرهاق .

نهض قائلًا فى حماس :

ـ هل نتبادل المقاعد ؟.. مقعدى أكثر ليونة ، و ...

قاطعته وهى تبتسم ابتسامة باهتة :

ـ اطمئن .. ليس المقعد ما يرهقنى .

تراجع قائلًا فى حيرة :

ـ ماذا إذن ؟

لوّحت بكفها ، قائلة :

ـ كل هذه الأحداث .

ثم اعتدلت ، مستطردة :

ـ ألم تنتبه إلى أن هذه العملية بالذات ، كانت أحداثها تسير على نحو بالغ السرعة ، حتى أنك تلهث لمجرّد سماعها ، ويتضاعف توترك مع كل خطوة فيها ؟

ضحك (قدرى) ، وهو يقول :
- إلى هذا الحد ؟!.. ماذا كان يفعل (أدهم) إذن ، وهو يواجه كل هذا وجهًا لوجه ؟
تنهّدت مرة أخرى ، وقالت :
- (أدهم) من طراز مختلف .. إنه يبدو لى أحيانًا وكأنه يستطيع أن يقاتل بشكل متواصل ، وبلا توقف أو هوادة .
ابتسم (قدرى) ، وهو يقول :
- هذه إحدى أفضل خصاله .
لوّحت بكفها ، قائلة بابتسامة مرهقة :
- إن مواهبه لاتنتهى ، وهى تبهر كل من يتعامل معه .
قال فى حماس :
- بل تبهر كل من يسمع عنه .
ابتسمت وهى تسترخى فى مقعدها ، قائلة :
- هل تعتقد أنهم يصدقون ؟
قال فى حيرة :
- يصدقون ماذا ؟
أجابته فى تراخ :
- وجود رجل مثل (أدهم صبرى) .. إننا نتعامل مع وجوده بانبهار ، على الرغم من أننا بالنسبة إليه زملاء عمل ، نواجه المخاطر مثله ، وندرك أنه هناك جانب مظلم من الحياة ، ولكن أى شخص عادى يجهل هذا الجانب تمامًا ، بل إنه لايؤمن حتى بوجوده ، ويتصوّر أن المطاردات والقتال اليدوى ، والانفجارات ، وتبادل

النيران ، كلها لاتحدث إلا فى أفلام السينما .. والسينما الأمريكية وحدها .
هزّ كتفيه ، وقال :
- هذا أمر طبيعى ، فكيف يمكنك إقناع مواطن عادى ، يعمل من الثامنة صباحًا ، وحتى الثانية بعد الظهر ، ثم يعود ليتناول طعام الغداء ، ويشاهد التليفزيون حتى منتصف الليل ، بوجود مواطن آخر ، يقضى ليلته فى طائرة مقاتلة ، ونهاره فى أعماق البحر ، ويطارده قتلة محترفون ، من الظهر إلى المساء ؟
ضحكت قائلة :
- لايمكنك إقناعه أبدًا .
ابتسم متسائلًا :
- هل تعنى هذه الضحكة الصافية أنك قد استعدت نشاطك ؟
أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت وهى تعتدل فى مجلسها :
- هذا صحيح .. والآن أخبرنى ماذا فعل (أدهم) ، لينجو من الصاروخ الثانى ، الذى أطلقته عليه (ناديا) .
سألها فى شغف :
- ماذا تتوقعين أنت ؟
حرّكت أصابع كفيها ، وهى تقول :
- أن تنسف (ناديا) القاطرة بصاروخها ، ثم تكشف بعدها أن (أدهم) و (بوشكا) قد غادراها قبل نسفها ، وعادا أدراجهما إلى مدخل النفق .
ابتسم وهو يسألها :

ـ وما الذى يفعله (أدهم) بعد ذلك ؟.. هل يعدو أمام الهليوكوبتر ، وهى تطارده ، وتطلق عليه نيرانها ؟

عقدت حاجبيها ، واستغرقت لحظات فى التفكير ، ثم قالت :

ـ لا .. لا يمكنه أن يفعل هذا .

ضحك (قدرى) فى جذل ، وكأنها أخطأت حل مسابقة طريفة ، وقال :

ـ هذه أفضل صفات (أدهم) .. لا يمكنك توقُّع خطواته أبدًا .

ابتسمت قائلة :

ـ حسن أيها المتحذلق .. ما الذى فعله (أدهم) هذه المرة ؟

رفع سبَّابته أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ لقد فاجأ (ناديا) .

سألته فى فضول :

ـ كيف ؟

اعتدل فى مقعده ، والتقط نفسًا طويلًا ، و ...

وواصل روايته ..

★ ★ ★

كانت مسألة وقت ..

وفى مثل هذه المواقف ، يكون الرابح عادة هو من يجيد استغلال الوقت ، والتعامل معه على أفضل وجه ممكن ..

و (أدهم) أستاذ فى هذا المجال ..

لقد انتظر فى صمت وسكون ، وهو يراقب نهاية الممر فى انتباه كامل ، وشاركته (بوشكا) و (ميرا) صمته ، دون أن يدركا

ما ينوى الإقدام عليه . .

ثم ظهرت هليوكوبتر (ناديا) ..

ظهرت عندما انخفضت ، لتضع النفق فى مستوى بصرها ، وتحدِّد هدفها ، قبل أن تطلق نحوه صاروخها الثانى .

وفى نفس اللحظة التى ظهرت فيها ، هتف (أدهم) :

ـ الآن .

ودفع ذراع الحركة إلى الأمام ..

وبأقصى سرعة ..

وفى المعتاد ، تحتاج القاطرة إلى بضع لحظات لتتحرَّك ، ولكنها ـ فى هذه المرة ـ كانت قاطرة منفصلة ، لا تجر أية عربات ، ومحرِّكاتها تعمل بالفعل ..

لذا فقد استجابت له على الفور .

وفوجئت (ناديا) بالقاطرة تندفع نحوها ، فارتفع حاجباها ، وهتفت وهى تجذب عصا القيادة ، فى محاولة للارتفاع ، فرارًا من القاطرة :

ـ لقد كانت خدعة .

وارتفعت الهليوكوبتر بالفعل ..

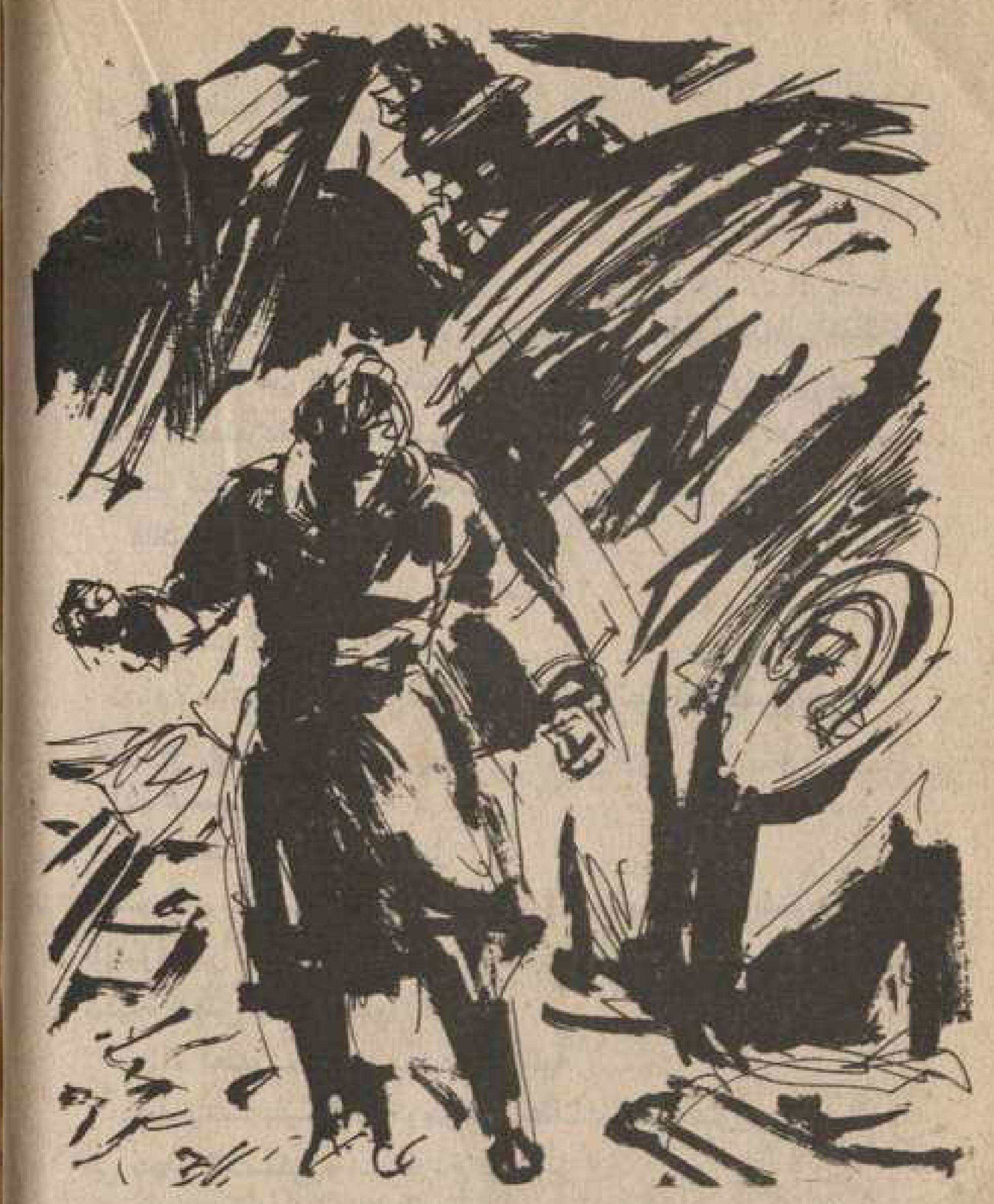
ولكن ليس إلى الحد الكافى ..

لقد بلغت القاطرة قاعدتها ، فى اللحظة الأخيرة ، واصطدمت بها فى عنف ، ثم دفعتها أمامها بضعة أمتار ، قبل أن تقذفها جانبًا ، وتواصل طريقها بسرعة كبيرة ، ومن داخلها تمتدّ صرخة متصلة من (بوشكا) ، تبدو وكأنها بلا نهاية ..

(ناديا) أيضًا أطلقت صرخة عنيفة طويلة ..

ولكنها لم تكن صرخة رعب ..
كانت صرخة غضب ..
وهزيمة ..
لقد حاولت الفرار بالهليوكوبتر ، عندما انتبهت إلى الخدعة ، ولكنها لم تنجح فى الارتفاع بالقدر المناسب ، وشعرت بارتطام القاطرة بقاعدة الهليوكوبتر يرجّها فى عنف ، فصرخت ثائرة :
ـ لا .. ليس مرة أخرى .
ردّدت صرختها طوال الوقت ، وامتزجت بصرخة (بوشكا) ، حتى سقطت الهليوكوبتر جانبًا ، وتحطّمت مروحتها العلوية ، وانقلبت على جانبها وسط الثلوج ..
ولكنها لم تنفجر ..
وفى فرحة عارمة ، هتفت (بوشكا) :
ـ أنت عبقرى أيها الوسيم .. إننى لم أتوقّع هذا قط .. أنت أوّل رجل فى العالم يهزم هليوكوبتر بقاطرة .. أنت جعلتنا ننجو .
وشاركت (ميرا) سيّدتها فرحتها ، فراحت تتقافز حولها وتنبح فى سعادة ، فقال (أدهم) فى رصانة :
ـ أظن أنه من القسوة أن أفسد سعادتك يا (بوشكا) ، ولكن الواقع أن النجاة أمر ما يزال بعيد المنال ، حتى وقتنا هذا .
تلاشت فرحتها دفعة واحدة ، وهى تسأله :
ـ لماذا ؟
أجابها فى خفوت :
ـ الرحلة إلى (لينينجراد) تستغرق ست ساعات فى المتوسط ،

لم نقطع منها أكثر من ساعتين حتى الآن .
بدت عليها خيبة الأمل ، وهى تقول :
ـ حقًا ؟!
أجاب بسرعة :
ـ هذا لا يعنى أننا نحتاج إلى أربع ساعات ، حتى نصل إلى هناك ، فلقد تخلّصنا من كل عربات القطار ، ونحن ننطلق بأقصى سرعة للقاطرة المنفردة ، وهذا يعنى أننا نستطيع ادخار ساعة على الأقل ، أى أننا نحتاج إلى ثلاث ساعات ، لبلوغ (لينينجراد) .
قالت فى أسى :
ـ وهل تظنهم يمنحوننا هذه المهلة ؟
هزّ رأسه نفيًا ، وقال :
ـ ولا ساعة واحدة ، ولكننا سنواصل الانطلاق بأقصى سرعة ، حتى نجد وسيلة أخرى .
ثم ابتسم ، مستطردًا :
ـ ما دامت القضبان تحتمل .
لم يكن يدرى لحظتها أن (ناديا) قد نجحت فى الخروج من الهليوكوبتر المحطّمة ، ببعض الرضوض والكدمات فحسب ، وبدت شديدة الحنق ، وهى تقول :
ـ لقد فعلها .. فعلها معى مرة ثانية .
ثم انتزعت باب الهليوكوبتر فى عنف ، وضغطت زر الاتصال ، فى جهاز اللاسلكى ، مستطردة فى توتّر :
ـ أرجو أن يكون هذا اللاسلكى اللعين سليمًا ، بعد كل هذا .



لم يكن يدرى لحظتها أن (ناديا) قد نجحت فى الخروج من الهليوكوبتر المحطَّمة ، ببعض الرضوض والكدمات فحسب ، وبدت شديدة الحنق ..

رأت مصباح إتمام الاتصال الصغير يتألق ، أعلى الجهاز ، فضغطت الأزرار بسرعة ، وقالت :

ـ هنا (ناديا مينوفيتشى) .. أريد الفرقة التاسعة ، من دوريات الثلوج .

مضت لحظات ، كرَّرت خلالها النداء ، قبل أن يأتيها صوت جاف ، عبر جهاز اللاسلكى ، قائلًا :

ـ من الفرقة التاسعة إلى الرفيق (ناديا) .. تم الاتصال ، ماذا تريدين ؟

قالت وقد استعادت صوتها البارد الجاف :

ـ أريد سيارة على وجه السرعة ، لتلتقطنى من المنطقة ألف وسبعة ، إلى جوار شريط القطار السريع ، أو هليوكوبتر ، لو توافر هذا .. وفى الوقت نفسه أرسل عددًا من رجالك فورًا ، لنسف شريط القطار ، فى المنطقة رقم ألف وسبعة عشر .

قال قائد الفرقة التاسعة فى صرامة :

ـ ينسفون ماذا ؟!.. هل تدركين ما تطلبينه بالضبط أيتها الرفيق ؟.. إن نسف شريط القطار هذا يعنى توقُّف رحلات السكك الحديدية ليومين على الأقل ، و ...

صرخت فيه :

ـ نفذ ما آمرك به أيها الرفيق العقيد ، فأنا أحمل تفويضًا رسميًا شاملًا ، بفعلِ كل ما أراه صوابًا ، مهما كان الثمن ، وكل ما عليك هو التنفيذ فحسب ، وسأتحمَّل أنا المسئولية كاملة .. هل تفهم ؟

مضت لحظة من الصمت ، ثم أتاها صوته ، وهو يقول فى صرامة :

- فليكن .. أنت ستتحملين المسئولية كاملة .. سأرسل لك الهليوكوبتر بعد قليل .

أنهت الاتصال بعنف ، ثم عدّلت زيها العسكرى ، وهى تتطلّع فى نقمة إلى شريط القطار ، الذى يبدو وكأنه يمتدّ إلى قلب الجليد بلانهاية ، وقالت فى غضب :

- فليكن أيها الجاسوس .. لقد أثبت أنك لست رجلًا عاديًا ، بل داهية يفوق الفهد قوة ، والذئب عنادًا ، والثعلب مكرًا ، ولكن هذا لايعنى أنك ستربح المعركة فى النهاية ، فأنت تلعب فى ملعبنا ، ومهما بلغت مهارتك ، فالنهاية واحدة .. إننى سأسحقك .

وأطبقت سبّابتها وإبهامها ، مضيفة فى كراهية :

- أسحقك سحقًا ..

★ ★ ★

لم يرفع (أدهم) عينيه عن الطريق لحظة واحدة ، وهو ينطلق بالقاطرة بأقصى سرعة ..

كان يدرك تمامًا أنه سيتعرّض حتمًا لهجوم فى أية لحظة ، ولكنه لايدرى ماالذى يمكن أن يفعله بالضبط ، لو تحقّق هذا ؟!..

كان فى رأيه يرتكب أكبر حماقة فى حياته ، ولكن جبال الجليد ، التى تحيط به من كل جانب ، والتى تمتدّ إلى مرمى البصر ، لم تكن تمنحه حلًا بديلًا .

أما (بوشكا) ، فقد احتضنت (ميرا) ، وانكمشت معها فى ركن القاطرة ، وكلتاهما ترتجف بردًا ، بعد أن تحطّمت نوافذ القاطرة ،

وصارت أشبه ببرّاد كهربى ..

وفى ضعف ، قالت (بوشكا) :

- من يصدّق هذا ؟.. من يصدق أن (بوشكا) ، الممثلة الأولى ، التى كانت فى طريقها لحضور العرض الأوّل لفيلمها الجديد ، ينتهى بها الأمر داخل قاطرة محطمة النوافذ ، مطاردة من الجميع ، ومتهمة بالخيانة العظمى ؟!

غمغم فى خفوت :

- لايمكنك توقع مستقبلك ، فى بلد مثل (الاتحاد السوفيتى) .

قالت فى حنق :

- كلهم أوغاد .

ومسحت دمعة مريرة ، سالت على وجنتها الجميلة ، قبل أن تستطرد غاضبة :

- هل تعرف كل هؤلاء الذين يتشدقون بالمبادئ الشيوعية ، والمساواة ، وملكية الدولة ؟.. لقد عايشتهم بنفسى ، ورأيت كيف يغرقون فى ترف بلا حدود ، يفوق حتى مايتمتّع به أعتى الرأسماليين ، فى الغرب .. نفس الترف الذى يهاجمونه فى شراسة ، عندما يتحدّثون إلى الشعب المسكين .

قال (أدهم) فى إشفاق :

- تبدين وكأنك قد عانيت منهم الكثير .

قالت فى غضب :

- بل الكثير جدًا .

وتركت دموعها تنهمر بضع لحظات ، قبل أن تضيف :

- لقد مات أبى فى (سيبيريا) .

لم تكن تحتاج لقول المزيد ، ليفهم (أدهم) مأساتها كلها ..

ولم يسألها هو المزيد ..

لقد اكتفى بمشاركتها صمتًا ثقيلًا ، ران على العربة ، بعد أن نطقت جملتها ، إلى أن قطعته هى ، قائلة :

- والعجيب أنه لم يكن مناهضًا للدولة ، أو لنظام الحكم ، بل كان مهندسًا طيب القلب ، حلو المعشر ، ترعرع فى ظل النظام الشيوعى ، وأفنى فيه عمره ، وهو يتعامل معه فى حماس شديد ، حتى جرؤ يومًا على مناقشة فكرة هندسية ، طرحها مسئول الحزب ، الذى انقطعت صلته بالهندسة ، منذ أنهى مرحلة دارسته المتوسّطة .. ولم تكن هذه المناقشة سياسية ، بل مجرّد رأى فنى ، طرحه وهو يبتسم ابتسامته العذبة .

وشهقت لحظة ، ثم تابعت فى حنق :

- وقبل أن تشرق شمس الصباح التالى ، كانوا قد انتزعوه من فراشه ، واصطحبوه معهم ، ثم ...

صمتت لحظة أخرى ، والتقطت نفسًا عميقًا ، ثم أضافت :

- ثم لم أره بعدها قط

سألها (أدهم) :

- كم كان عمرك ، عندما حدث هذا ؟

مسحت دموعها ، وهى تقول :

- كنت فى الخامسة من عمرى .

سألها :

- ومتى حدث هذا بالضبط ؟

فتحت فمها ، وكأنها تهمّ بقول شىء ما ، ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها ، وهى تقول فى حزم :

- لا .. لن أخبرك .

أدهشه ذلك التحوّل المباغت فى مشاعرها ، وشعر أنها ، على الرغم من سنوات عمرها ، التى لم تبلغ الثلاثين بعد ، مجرّد طفلة كبيرة متقلّبة المشاعر ، فابتسم مشفقًا ، وهو يقول :

- كان سؤالى سخيفًا ، أليس كذلك ؟

قالت فى حدة طفولية :

- بالتأكيد .

أطلق ضحكة قصيرة ، بدّدت توتر الموقف ، وقال :

- كم تدهشنى شخصيتك يا (بوشكا) .

سألته فى لهفة :

- لماذا ؟

انتظرت جوابه لحظات ، ولكنه لم يجب ، فكرّرت سؤالها :

- لماذا تدهشك شخصيتى ؟.

فوجئت به يختطف المدفع الآلى ، وهو يقول فى حزم :

- تشبثى جيدًا .

هتفت مذعورة :

- لماذا ؟.. لماذا أيها الوسيم ؟

لم يجب عن سؤالها ، وهو يصوّب مدفعه إلى فريق عسكرى من عشرة رجال ، يقفون على مسافة نصف كيلو متر ، ومدافعهم

مصوبة إلى القاطرة .

ثم سمع صيحة عنيفة تهتف :

ـ أطلقوا النيران .

كانت أصابع الجنود متحفزة لإطلاق النار ، مع آخر حرف من حروف نداء القائد ..

أما (أدهم) ، فقد بدأ مع الحرف الأول ..

وانطلقت النيران من الجانبين ..

بل من أربع جوانب ؛ فقد كشف (أدهم) ، فى لحظة إطلاق النار ، أنه يواجه عشرين رجلًا لا عشرة ، ولكن العشرة الباقين كانوا قد انقسموا إلى فريقين ، يحاصرانه من الجانبين ، ويشاركان زملاءهما إطلاق النيران ..

وكالمعتاد ، راحت (بوشكا) تصرخ فى رعب ، والرصاصات تنهمر كالمطر ، وتعبر النوافذ المحطمة ، لتصطدم بالجدران المعدنية ، وترتد عنها عشوائيًا ..

أما (أدهم) ، فراح يطلق النيران بلا هوادة ، ويصيب الأسلحة والأجساد ، آملًا أن تتجاوز القاطرة هذا الكمين ، بتلك السرعة البالغة ، التى ينطلق بها ..

وعبر الخمسمائة متر ، التى قطعتها القاطرة ، أصابت رصاصات (أدهم) سبعة من الجنود ، وأطاحت بأسلحة خمسة آخرين ، و ...

ونفدت الرصاصات ..

فجأة وبدون مقدمات ، توقف مدفعه الآلى عن الإطلاق ، وأصبح عليه أن يتلقى الرصاصات فحسب .

وليت الأمر اقتصر على هذا ..

لقد انتبه (أدهم) بغتة إلى أن القضبان لا تمتد أمامه كما ينبغى ، بل توجد على بعد عشرة أمتار منه فقط فجوة ، تقطع الطريق ، وتلتوى على جانبيها أجزاء محطمة من القضبان ، التى نسفتها الفرقة التاسعة ، بناء على أوامر (ناديا) ..

وصاح (أدهم) فى (بوشكا) :

ـ تشبثى جيدًا .. سنخرج عن الخط .

صرخت فى رعب ، ونبحت معها (ميرا) ، وجذبهما (أدهم) إليه ، فى نفس اللحظة التى بلغت فيها القاطرة نهاية القضبان السليمة ..

ثم قفزت لتتجاوزها ..

خارج الخط .

★ ★ ★



١٦ ـ مرحلة الثلوج ..

حلّقت هليوكوبتر صغيرة ذات مقعدين ، فوق شريط السكك الحديدية ، وتطلّع قائدها إلى (ناديا) ، التى وقفت إلى جوار طائرتها المحطّمة ، تشير إليه بيدها ، فلوّح بإبهامه ، ودار دورة ضيقة ، ثم هبط على بعد أمتار قليلة منها ، وهو يقول :

ـ مرحبًا أيتها الرفيق .. لقد حضرت بأقصى سرعة ممكنة .

أسرعت إليه ، وهى تقول فى صرامة :

ـ هذه السرعة القصوى أضاعت نصف ساعة كاملة ، ثم ما هذه الهليوكوبتر .. إنها لاتصلح حتى لصيد الثعالب .

هزّ كتفيه ، وقال :

ـ نحن لانستخدمها بالتأكيد لصيد الثعالب ، ثم إنها ليست هليوكوبتر حربية ، وإنما تستخدم للمراقبة فحسب .

احتلّت مقعدها إلى جواره ، وربطت حزام المقعد ، وهى تقول :

ـ هل يوجد مطار حربى قريب ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. على مسيرة ساعة واحدة .

عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ـ أتعشّم أن نجد به هليوكوبتر حربية .

هزّ الطيّار كتفيه مرّة أخرى ، واستعد للإقلاع ، ولكنها هتفت به بغتة :

ـ انتظر .

رفع عينيه إلى حيث تتطلّع هى ، ورأى سيارة تقترب فى سرعة ، و (ناديا) تتابعها فى اهتمام شديد ، ثم رآها تحل حزام المقعد ثانية ، وتنتزع مسدسها ، ثم تهبط من الهليوكوبتر ، وتنتظر قدوم السيارة ، التى واصلت مسيرتها بنفس السرعة ، حتى توقّفت على قيد متر واحد منها ، وبرز منها رجل يرتدى الثياب العسكرية السوفيتية ، ابتسم فى برود ، وهو يقول :

ـ آه .. يالها من مفاجأة طريفة !.. كيف حالك ياعزيزتى (ناديا) ؟

انعقد حاجباها ، وضاقت عيناها ، وهى تقول :

ـ أفضل منك بالتأكيد أيها الرفيق (شلينكو) .

ابتسم فى سخرية ، وقال :

ـ ماذا أصاب طائرتك القوية أيتها الرفيق (ناديا) ؟.. هل اصطدمت بحاجز الواقع ، ولم تحتمل الحقيقة ؟

قالت فى صرامة :

ـ بل اشتمَمت رائحتك عن بعد ، فانهارت من فرط الاشمئزاز .

أطلق ضحكة قصيرة ، وقال :

ـ عظيم .. إذن فالرفيق (ناديا) تمتلك القدرة على السخرية والمزاح .. ياله من تطوّر رائع !.. ولكن ماذا عن ذلك الجاسوس ؟.. هل يرتبط وجوده برائحتى ، أم أنك أسقطت طائرتك بالجهود الذاتية ؟

بدا الغضب على ملامحها ، وهى تقول فى حزم :

ـ ماذا تفعل هنا يا (شلينكو) ؟

لوّح بكفه ، قائلًا :

أفعل مثلما تفعلين أيتها الرفيق .. أطارد الجاسوس .

ازداد انعقاد حاجبيها فى غضب شديد ، وهى تقول :

ـ ومن منحك هذا الحق ؟

مال نحوها ، حتى شعرت بأنفاسه ترتطم بوجهها ، وهو يقول فى لهجة مستفزة ، تجمع مابين السخرية والشماتة :

ـ الرئيس .. الرفيق الرئيس شخصيًا .

احتقن وجهها فى حنق غاضب ، فى حين تراجع هو مبتسمًا ، وهو يستطرد :

ـ هل من اعتراض ؟!

مضت لحظات ، وكل منهما يتطلّع إلى عينى الآخر فى تحد وصرامة ، ثم أجابته (ناديا) :

ـ كلّا .

قالتها واستدارت عائدة إلى مقعدها فى الهليوكوبتر ، وربطت حزام مقعدها فى حزم ، وهى تستطرد :

ـ ولكننا سنشترك فى مطاردة واحدة ، والمفروض أن يكون بيننا نوع من التنسيق والتعاون

عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يسأل :

ـ وماذا تقترحين ؟

ارتسمت على ركن شفتيها ابتسامة ساخرة ، وهى تجيب :

ـ أن تنطلق بسيارتك بأقصى سرعة ممكنة ، حتى يمكنك اللحاق بدورك فى السباق ، فلن يمكننا نحن أن نخفض سرعة الهليوكوبتر .

وأشارت إلى الطيّار ، قائلة :

ـ هيا .. لقد أضعنا الكثير من الوقت .

انعقد حاجبا (شلينكو) فى غضب ، عندما رأى الهليوكوبتر ترتفع ، وقال فى حدة :

ـ وماذا عن التعاون والتنسيق ؟

ابتسمت فى سخرية ، قائلة :

ـ ألم تقل : إننى أصبحت قادرة على المزاح ؟

تفجّر الغضب من عينيه ، والهليوكوبتر تبتعد بسرعة ، ثم عاد إلى سيارته فى خطوات سريعة ، وقفز داخلها ، هاتفًا فى حنق :

ـ فليكن أيتها الرفيق (ناديا) .. من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .

وانطلق بالسيارة بأقصى سرعة بالفعل ، وقد تضافرت مشاعره كلها ضد هدف واحد ..

(أدهم صبرى) .

★ ★ ★

اندفعت القاطرة خارج القضبان ، وانطلقت لدقيقة أو يزيد فوق الجليد ، الذى تناثر من حولها فى عنف ، والجنود يواصلون إطلاق النيران نحوها فى شراسة ، ثم لم تلبث أن مالت على جانبها ، ثم سقطت بدوى عنيف ، وانزلقت عدة أمتار أخرى ، قبل أن توقّف تمامًا ، وسط غبار جليدىّ أبيض ، تساقط فوقها فى بطء ..

وران صمت رهيب ..

الجنود توقّفوا عن إطلاق النيران ، والقاطرة استقرّت على جانبها ، لاينبعث منها أدنى صوت ، حتى نباح (ميرا) .

وفى حزم ، أشار القائد لمن تبقى من جنوده ، فالتف بعضهم حول القاطرة ، ووقف البعض الآخر على بعد أمتار منها ، والجميع يصوبون إليها مدافعهم فى تحفز ..

وقال القائد فى لهجة آمرة :

- (بابيلوف) .. استطلع الأمر .

انفصل أحد الجنود عن رفاقه ، واتجه نحو القاطرة ، وتعلق بها ، ثم صعد إلى الجانب العلوى منها ، وانحنى فى حذر يتطلع عبر نافذتها المحطمة ، ومدفعه متأهب للانطلاق ، و ...

وفجأة ، امتدت يد (أدهم) عبر النافذة ، وأمسكت ماسورة المدفع ، ثم جذبت الجندى إلى الداخل ، و (أدهم) يقول فى سخرية :

- مرحبًا أيها الوغد .

ولم يكد الجندى يسقط داخل القاطرة المقلوبة ، حتى حطمت قبضتا (أدهم) أنفه وفكه ، وأسقطتاه فاقد الوعى .

وفى الخارج ، رأى الجنود زميلهم يختفى داخل القاطرة ، وصاح بهم قائدهم :

- أطلقوا النار .

وهنا أطلق خمسة عشر جنديًا نيران مدافعهم الآلية بلا هوادة ، نحو القاطرة المقلوبة ، وقد أصابهم اختفاء زميلهم بغضب لامثيل له ..

ولكن جسم القاطرة كان مصنوعًا من الصلب القوى ، الذى احتمل الرصاصات ، فهتف القائد :

- القنابل .. استخدموا قنابلكم .

انتزع الجنود قنابلهم اليدوية من أحزمتهم ، و ...

وبرز (أدهم) من نافذة القاطرة المقلوبة ، وهو يحمل المدفع الآلى ، وانهمرت رصاصاته على الجنود ، قبل أن يستخدموا قنابلهم اليدوية ..

وانفجرت القنابل فى أيدى الرجال ، وأطاحت بهم فى لحظات ، ولم يجد معظمهم الفرصة المناسبة لإلقاء قنبلة ..

ولكن بعضهم وجدها

ثلاثة رجال بالتحديد ، ألقوا قنابلهم نحو القاطرة ، فاستدار (أدهم) إلى القنابل الثلاثة فى سرعة ، وأطلق نيران مدفعه نحو واحدة منها ، فنسفها فى الهواء ، قبل أن تصل إليه ، وارتطمت الثانية بجدار القاطرة ، وتدحرجت فوقه ثم استقرت أمامه ، فى حين سقطت الثالثة داخل القاطرة ..

وكان (أدهم) يعلم أن أمامه ثلاث ثوان فحسب ، قبل أن تنفجر القنبلة ، فقفز إلى القاطرة من الداخل ، والتقط القنبلة ، ثم ألقاها بكل قوته عبر النافذة ..

وانفجرت القنبلة فى الهواء ، فى نفس اللحظة التى انفجرت فيها القنبلة الثانية ، إلى جوار الجدار الخارجى للقاطرة ، ورجتها فى عنف ..

ثم كان ذلك الهدير القوى ..

هدير عنيف ، ملأ المكان كله ، وكاد يصم الآذان ، فارتفعت عيون الجميع إلى أعلى ، وصرخ أحد الجنود :

- القنابل .. لم يكن ينبغى أن نستخدمها .

وصاح آخر ، وهو يعدو مبتعدًا ، محاولًا الفرار :

ـ الانهيار .. لقد انهار الجليد .

حاول المتبقون من الفرقة التاسعة الفرار ، من انهيار جليدى ، أحدثه دوى قنابلهم ، عندما انفجرت عند سفح الجبل ، ولكن الجليد سقط فوق رءوسهم بكميات ضخمة ، وراح يدفنهم تحته بلا رحمة ..

ولم يستغرق الانهيار الجليدى سوى ثوانٍ معدودة ، تحوّلت المنطقة بعده إلى مقبرة جماعية ثلجية ، يسيطر عليها الصمت ..

ومن وسط الانهيار ، برزت يد قوية ..

يد (أدهم) ..

لقد حمته القاطرة مع (بوشكا) و (ميرا) من ذلك الانهيار ، الذى دفن الباقين ، فراح يزيح الجليد عن النافذة ، ثم حمل (بوشكا) الفاقدة الوعى ، و (ميرا) التى أخرسها الذعر ، عبر النافذة ، وقفز بهما إلى الأرض ..

وعلى مسافة عشرين مترًا ، وعلى الجانب الآخر من شريط القطار ، رأى سيارة نصف مدرّعة تحمل شعار الفرقة التاسعة ، فأسرع إليها ، وفحصها فى اهتمام ..

كانت السيارة تتكوّن من مقصورة القيادة ذات المقعدين ، وخلفها صندوق مصفح ، معدّ لجلوس الجنود ، فوق أريكتين خشبيتين ، تمتدّان على جانبيه ..

وبلا تردّد ، عاد (أدهم) ليحمل (بوشكا) و (ميرا) ، وأرقد الأولى داخل الصندوق الخلفى ، ووضع (ميرا) إلى جوارها ، فنبحت لأوّل مرة ، منذ سقطت القاطرة ، والتصقت بسيدتها فى

خوف ، فتمتمت (بوشكا) :

ـ (ميرا) .. ماذا أصابك ؟.. لماذا تنبحين ؟.. ألم تعدّ لك (مارتينا) طعامك ؟

ثم ضمّت ركبتيها إلى صدرها ، وهى تستطرد كالحالمة :

ـ لماذا أشعر بالبرد هكذا ؟.. أشعلى المدفأة يا (مارتينا) .. أرجوك .. إننى أرتجف .

شعر نحوها بشفقة شديدة ، وغمغم فى تعاطف ، وهو يضمّ معطفها على صدرها :

ـ سنشعل المدفأة .. اطمئنى .

ثم انتقل إلى مقعد القيادة ، وأشعل المحرّك ، وانطلق بالسيارة ..

كان الطريق أمامه مايزال طويلًا ، وسط جليد بلا نهاية ، يحيط به من كل جانب ، كما لو كان أسوارًا عالية ، تمنحه الشعور بأنه مجرّد أسير ..

أسير الثلوج .

* * *

« ماهذا بالضبط ؟.. »

نطق طيّار الهليوكوبتر هذا السؤال فى توتر شديد ، عندما تناهى إلى مسامعه هدير قوى ، وارتفعت من بعيد سحابة بيضاء كثيفة ، فالتفتت إليه (ناديا) ، وسألته فى قلق :

ـ ماذا حدث ؟

قال فى عصبية :

ـ كارثة .

سألته فى صرامة :

ـ ماالذى تقصده بهذا المصطلح ؟

أجابها وهو يزيد من سرعة الهليوكوبتر :

ـ من الواضح أنك لم تعملى أبدًا فى دوريات الجليد .. هذا الهدير الذى سمعناه هو انهيار جليدى .. هل ترين تلك السحابة الكثيفة هناك ؟.. إنها قطرات من الثلج ، لا تستغرق كثافتها وقتًا طويلًا ، بل تهبط بسرعة ، وينتهى كل شىء فى لحظات ، ولكنه لايعود أبدًا كما كان .

قالت فى قلق :

ـ وماالذى يصنع انهيارًا جليديًا الآن ؟

أجاب بسرعة :

ـ هذا يتراوح من منطقة إلى أخرى ، فهناك مناطق لا تحدث فيها انهيارات جليدية قط ، لأن جبالها تنحدر انحدارًا بسيطًا ، يمتدّ لمسافات طويلة ، وفى مناطق أخرى يكفى إطلاق رصاصة واحدة ، ليحدث انهيار جليدىّ عنيف .. وبين هذا وذاك ، تختلف درجات الانهيار ومسبباته .

انعقد حاجباها لحظات ، ثم قالت فى حزم :

ـ أسرع أيها الرفيق .. أسرع .

قال فى عصبية :

ـ وماالذى تتصوّرين أننى أفعله ؟

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كانت الهليوكوبتر تحلق فوق منطقة الانهيار ، وهتف الطيّار فى ارتياع :

ـ الفرقة كلها .. لقد دفن الانهيار الفرقة كلها .

وأشارت هى إلى نقطة فى منتصف المكان ، مضيفة :

ـ أليست هذه هى القاطرة ؟.. إنها مقلوبة .. أراهن أن وجودها يرتبط بسبب الانهيار .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ لو أنهم استخدموا قنابلهم .. نعم .. ربما .

هبط بالهيلوكوبتر على الجانب الآخر لشريط القطار ، وأسرع مع (ناديا) إلى حيث انهار الجليد ، وراح يحفر الجليد بكفيه ، هاتفًا :

ـ ياللكارثة !.. الفرقة كلها انتهت .. الفرقة كلها .

أما (ناديا) ، فقد اتجهت مباشرة إلى القاطرة المقلوبة ، وقفزت صاعدة إليها ، وتطلّعت داخلها ، ثم قالت فى غضب :

ـ اللعنة !.. إنه ليس هنا .

أدارت عينيها فى المكان بسرعة ، حتى توقّفتا عند آثار أقدام (أدهم) على الثلوج ، فقفزت من فوق القاطرة ، وراحت تتابع الآثار ، وهى تقول :

ـ آثار غائرة .. لقد كان يحمل شيئًا .. أظنه (بوشكا) على الأرجح .. ولقد عبر شريط القطار ، و ...

توقّفت متطلّعة إلى آثار السيارة ، التى تبتعد بمحاذاة القضبان ، ثم التفتت إلى الطيّار ، وقالت :

ـ أسرع أيها الرفيق .. لابد أن نلحق به .

هتف الطيار فى انفعال :

ـ ليس الآن .. شقيقى وكل رفاقى هنا ، تحت الثلوج .

صاحت به :

- لقد لقوا مصرعهم جميعًا .. ألا تدرك هذا ؟.. تخلَّ عن غبائك هذا ، وهلم بنا نطارد ذلك الجاسوس ونلحق به ، قبل أن يبتعد كثيرًا .

قال فى حدة :

- لن أتحرَّك من هنا ، قبل وصول فريق الإنقاذ .

انعقد حاجباها فى غضب ، وهى تقول فى صرامة :

- ستنطلق بالهليوكوبتر على الفور .. هذا أمر .

تجاهلها تمامًا ، وهو يواصل الحفر فى عصبية ، فقالت :

- فليكن .. سأذهب وحدى .

استدارت متجهة إلى الهليوكوبتر ، ولكنه هبَّ واقفًا ، وانتزع مسدسه ، قائلًا فى حدة عصبية :

- لن أسمح لك .

التفتت إليه فى بطء ، وهى تقول فى لهجة قاسية :

- هل تجرؤ على مخالفة الأوامر ؟

قال فى توتر شديد :

- لست أتلقى الأوامر إلا من قائدى ، وهو مدفون الآن تحت الجليد .

قفزت فجأة تركل مسدسه ، هاتفة :

- فلتلحق به إذن .

حاول الطيَّار استعادة مسدسه ، ولكنها ركلته فى عنقه بعنف ، ثم لكمته فى أنفه ، وانتزعت مسدسها تلصقه بصدغه ، وهو يلهث قائلًا :

- فليكن .. إننى أستحق محاكمة عسكرية .

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

- كلَّا يافتى .. أنا امرأة عملية ، أصدر الأحكام وأنفذها مباشرة .

اتسعت عيناه ، وهو يهتف :

- ولكن ...

ولم يتم عبارته قط ..

لقد أخرسته (ناديا) بشكل وحشى مباشر ، عندما ضغطت زناد مسدسها ، ونسفت رأسه بلا رحمة .

وفى هدوء ، أعادت مسدسها إلى غمده ، فى نفس اللحظة التى سمعت فيها من خلفها صوت تصفيق ، فالتفتت إلى مصدره فى سرعة ، وهى تهمَّ بانتزاع مسدسها مرة أخرى ، ولكنها رأت أمامها (شلينكو) ، يقف إلى جوار سيارته ، وهو يقول ساخرًا :

- ياللروعة !.. أهكذا تتعامل الحارسة الخاصة مع من يرفض طاعة الأوامر..

انتزعت مسدسها بالفعل ، وصوَّبته إليه ، قائلة :

- ومع كل من يثير حنقى .

قال فى سخرية :

- هل تنوين قتلى أيضًا ؟

قالت فى صرامة :

- الفكرة تبدو جذَّابة .

قال فى بطء وحزم :

- بالتأكيد .. ولهذا اتخذت الاحتياطات اللازمة ، وأحضرت هذا معى .

وانتزع بحركة سريعة مدفعًا ضخمًا من سيارته ، وهو يستطرد :

ـ ما رأيك ؟.. مسدسك أمام مدفعي .

بدا عليها الغضب لحظة ، قبل أن يستعيد وجهها برودته التقليدية ، وتعيد مسدسها مرة ثانية إلى غمده ، قائلة :

ـ ليس لدى وقت لك الآن .. سننهى مهمتنا ، ثم نصفى حساباتنا فيما بعد .

واتجهت إلى الهليوكوبتر ، فقفز إلى سيارته ، وقال :

ـ أما يزال السباق مستمرًا ؟

أدارت محرّك الهليوكوبتر ، وارتفعت بها ، قائلةً فى برود :

ـ سينتهى فوق جثة ذلك الجاسوس .

انطلقت بالهليوكوبتر ، وانطلق هو بسيارته ..

وبدأت مطاردة جديدة ..

* * *

تسلل القلق إلى أعماق (أدهم) تدريجيًا ، وهو ينطلق بالسيارة نصف المصفّحة ، بمحاذاة شريط القطار ..

لم يعد الأمر ممكنًا ، كما كان من قبل .

لقد كشفوا معاونة (بوشكا) له ، وأصدروا أمرًا باعتقالها ، وطاردوه طوال الطريق ، بكل قوتهم وشراستهم ..

وهذا يعنى الكثير .

يعنى أن الخطر سيتضاعف فى كل خطوة ..

وأن الجميع يعرفون وجهته ..

وهذا يفسد كل شىء أيضًا ..

لم يعد من الممكن أن يمضى فى طريقه كما كان ، بل عليه أن يجد طريقًا آخر ، ووسيلة جديدة للخروج من هذا الموقف ..

ولكن كيف ؟!..

وأين ؟!..

راح يسترجع معلوماته الجغرافية عن (الاتحاد السوفيتى) وحدوده ، ويحاول البحث عن وسيلة جديدة ، أو ...

وفجأة توقّفت أفكاره كلها ، وقفزت قدمه إلى فرامل السيارة ، مع صوت مباغت ، صك مسامعه بلا مقدمات ..

وكان هذا الصوت هو صرخة ..

صرخة انطلقت من الصندوق الخلفى ، حاملة صوت الممثلة السوفيتية الأولى ..

صوت (بوشكا) .

* * *



١٧ ـ عضة الثلج ..

وقف (إيزاك) جامدًا كالتمثال ، أمام رجل الأمن السوفيتى ، الذى راجع جواز سفره الدبلوماسى للمرة الخامسة ، قبل أن يهزّ رأسه فى حنق ، قائلًا :

ـ إذن فأنت تحوز حصانة ديبلوماسية ، بحكم منصبك .

أجابه (إيزاك) فى صلابة :

ـ هذا صحيح .

مطّ رجل الأمن شفتيه محنقًا ، وهو يقول :

ـ كم أكره هذه القواعد الديبلوماسية السخيفة ، التى تعطى وغدًا مثلك حق العبث فى بلادنا ، وارتكاب مالا يجرؤ على فعله أى مواطن سوفيتى عادى ، ثم يبرز جواز سفر أحمر ، ويعود إلى سفارته لامباليًا ، دون أن نمتلك حق قطع رقبته ، وإلقائه خلف القضبان .

هزّ (إيزاك) كتفيه ، وقال :

ـ الجميع يتمتعون بهذه الحقوق ، فى كل بقاع العالم ، فالقواعد واحدة للكل .

قال رجل الأمن فى حدة :

ـ للأسف .

ثم مال نحو (إيزاك) ، مستطردًا :

ـ ولكن هذا لايعنى أنك الرابح .. لقد اتصلت بالرؤساء فى (موسكو) ، وأخبرتهم بأمرك ، وقالوا : إنهم سيرسلون خطابًا

شديد اللهجة إلى سفارتك ، يعلنون فيه أنك شخص غير مرغوب فيه ، مما يحتّم رحيلك إلى وطنك بأقصى سرعة .

بقى (إيزاك) صامتًا جامدًا ، وكأنما لا يعنيه الأمر ، فاعتدل رجل الأمن ، وأشار إلى أحد رجاله فى صرامة ، وهرع إليه الرجل ، فأشار إلى (إيزاك) ، وهو يقول :

ـ خذ هذا الرجل ، وعد معه إلى (موسكو) مباشرة ، تحت حراسة خاصة ، وسلّمه إلى سفارته .

أدى الرجل التحية ، وأسرع يعد السيارة لنقل (إيزاك) ، الذى ابتسم فى سخرية أحنقت رجل الأمن أكثر ، فقال فى حدة :

ـ أريد أن تعرف أننى لا ألجأ إلى هذا إلا مرة واحدة ، ففى المرة القادمة سنطلق النار عليك مباشرة ، ثم نرسل اعتذارًا رقيقًا لسفارتك ، نقول فيه : إننا لم نعثر على جواز سفرك الديبلوماسى ، إلا بتفتيش جثتك .. هل تفهم ؟

أجابه (إيزاك) فى برود :

ـ هذا لو كانت هناك مرة أخرى .

احتقن وجه رجل الأمن السوفيتى ، وهتف برجاله :

ـ هيًا .. خذوه من هنا .. لقد سئمت النظر إلى وجهه .

اصطحب رجلان من رجاله (إيزاك) إلى سيارة حربية ، يقودها جندى ، ويجلس فى مقعدها الخلفى جنديان ، وجلس (إيزاك) إلى جوار السائق ، الذى انطلق بالسيارة على الفور ، فى حين صوّب الجنديان مدفعيهما إلى (إيزاك) .

ولم تكد السيارة تبتعد عن مرمى بصر مكتب الأمن ، حتى التفت

(إيزاك) فى هدوء إلى أحد الجنديين خلفه ، وسأله :

ـ ألديك سيجارة جيّدة الصنع ؟

أجابه الجندى فى حذر :

ـ لدى سجائر سوفيتية فقط .. إنها أفضل أنواع السجائر ، و ...

قاطعه (إيزاك) :

ـ لا بأس .. احتفظ بوطنيتك لنفسك ، وأعطنى السيجارة .

خفض الجندى فوهة مدفعه لحظة ، ليلتقط سجائره من جيبه ، ولم يكد يفعل ، حتى تحرّك (إيزاك) فى سرعة ، وارتفعت يده تقبض على ماسورة مدفع الجندى الآخر ، وألصق فوهتها بصدر الجندى الأوّل ، فى حركة مباغتة عنيفة ، جعلت الجندى يضغط زناد مدفعه ، لتنطلق رصاصاته ، وتخترق صدر زميله ، دون أن يقصد ..

وجحظت عينا الجندى ، الذى لم يجد الوقت ليلتقط علبة السجائر من جيبه ، فى حين انتزع (إيزاك) المدفع من الآخر ، وضربه بكعبه فى فكه بأقصى قوة ، ثم أداره فى يده ، وأطلق نيرانه لينسف رأس الجندى ..

وجحظت عينا السائق ، وهو يرى (إيزاك) ، يقتل زميليه ، بهذه السرعة والقسوة ، وهتف فى رعب شديد :

ـ أنا لم أفعل شيئًا .. لست مسلّحًا .

صاح به (إيزاك) فى صرامة :

ـ أوقف السيارة .

ضغط السائق (فرامل) السيارة على الفور ، وهو يكرّر :

ـ لست مسلّحًا .. أقسم لك .

توقّفت السيارة على جانب الطريق ، فصاح به (إيزاك) :

ـ انزل .

قفز الرجل خارج السيارة ، ووقف يرتجف ، فقال (إيزاك) :

ـ هيا .. أخرج هاتين الجثتين من هنا .

أسرع الرجل يخرج جثتى الجنديين ، وهو يقول مرتجفًا :

ـ كما تأمر أيها الرفيق .. كما تأمر .

انتقل (إيزاك) إلى مقعد القيادة ، ثم صوّب مدفعه إلى السائق ، الذى ارتعد هاتفًا :

ـ أرجوك أيها الرفيق .. لا تقتلنى .. أرجوك .

ولكن (إيزاك) أطلق النار بلا تردّد ، وقتل الرجل بلا رحمة ، ثم انطلق بالسيارة فى هدوء ، ودون أن يطرف له رمش ، حتى بلغ أحد المطاعم الصغيرة ، فى بلدة شبه ريفية ، فأوقف السيارة ، ودخل المطعم ، الذى توقّف روّاده عن تناول الطعام ، عندما رأوا سيارته الحربية ، وتصوّروا أنه أحد رجال الأمن ، وخاصة عندما سأل صاحب المطعم فى صرامة :

ـ أين الهاتف ؟

أشار الرجل مرتجفًا إلى الهاتف ، فاتجه إليه (إيزاك) مباشرة ، وطلب رقم حجرة (أندريه) فى السفارة ، ولم تمض لحظة ، حتى سمع صوت (أندريه) ، يقول :

ـ من المتحدّث ؟

أجابه بسرعة :

ـ إنه أنا ياسيّدى .. (إيزاك) .. لقد تخلّصت من السوفيت ،

واستوليت منهم على سيارة ، وسأواصل مطاردة ذلك الجاسوس .

قال (أندريه) فى توتر :

ـ اختصر حديثك .

ازدرد (إيزاك) لعابه ، وقال :

ـ فليكن .. قل لى يا سيِّدى .. ألم ينقل إليك جهازنا الصغير حديثهم ، حول آخر موقع لذلك الـ ...

قاطعه (أندريه) فى حدة :

ـ اصمت .

أطبق (إيزاك) شفتيه على الفور ، وشاركه (أندريه) صمته لحظات ، ثم قال :

ـ دعك من كل هذا ، وعد إلى هنا مباشرة .

قال (إيزاك) فى دهشة :

ـ ولكن يا سيِّدى .. ذلك الـ ...

قاطعه (أندريه) مرة أخرى :

ـ إنه لن يذهب حيث يتوقعون .. لقد درست الأمر جيِّدًا ، ولدى فكرة مختلفة .

ثم أضاف فى حزم صارم :

ـ المهم أن تعود على الفور إلى هنا ، قبل موعد الطائرة .

قال (إيزاك) فى حيرة :

ـ هل سأعود إلى (إسرائيل) ؟

أجابه (أندريه) :

ـ كلَّا يا (إيزاك) .. لن تعود إلى (إسرائيل) ، بل ستسافر إلى

منطقة أخرى .. إلى حيث سيذهب الهدف ، وسنكون نحن الفائزين يا (إيزاك) .. نحن سنأكل التفَّاحة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حسم :

ـ حتى آخر قضمة ..

* * *

لم يكد (أدهم) يسمع صرخة (بوشكا) المدوية ، حتَّى ضغط (فرامل) السيارة بقوة ، جعلت السيارة تنزلق فوق الأرض المغطاة بالجليد لحظات ، قبل أن تستقر بعرض الطريق الموازى لشريط القطار ، وقفز منها حاملًا المدفع الآلى ، وقنبلة انتزعها من حزام الجندى السوفيتى ، الذى أفقده الوعى ، واندفع إلى الصندوق الخلفى ، ووثب داخله ، وهو يقول متحفِّزًا :

ـ ماذا حدث ؟

كانت (بوشكا) قد استعادت وعيها ، وجلست فى أرضية الصندوق ، وهى تتطلَّع إلى كفيها ، وتواصل صراخها ، ولم تكد تراه ، حتَّى هتفت :

ـ كارثة .. كارثة .

كرَّر سؤاله ، وهو يدير عينيه فيما حولها حائرًا :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

بدا صوتها غاضبًا ثائرًا ، وهى تقول :

ـ لقد فقدت إظفرين من أظفارى .. لقد تحطَّما .

شعر بمزيج من الحنق والغضب ، جعله يصرخ فى وجهها :

ـ أأنت حقًّا بهذه الحماقة ؟



واندفع إلى الصندوق الخلفى ، ووثب داخله ، وهو يقول متحفزًا :
ــ ماذا حدث ؟

تطلعت إليه ذاهلة ، وهى تقول :
ـ حماقة ؟
صاح بها :
ـ هذا أقل مايمكن أن توصف به سخافاتك هذه .. ألاتدركين ما نحن فيه بالضبط ؟!.. إننا نقاتل للبقاء على قيد الحياة ، وسط جليد لا ينتهى ، وخلفنا فريق كامل من رجال الأمن السوفيت ، يستخدم كل الوسائل الممكنة ، لتدميرنا ، وانتزاع روحينا من جسدينا ، وأنت تفكرين فى أظفارك المكسورة ؟!
كان يتوقع منها ندمًا أو تراجعًا ، ولكنه فوجئ بها تصيح فى وجهه :
ـ بالطبع .. الأظفار جزء من جمال المرأة ، وإلا فلماذا اخترعوا طلاء الأظفار ، بكل أنواعه وألوانه ؟
صاح بها :
ـ هذا لو بقيت على قيد الحياة .
عقدت حاجبيها الجميلتين ، وهى تقول فى حدة :
ـ لو لم يكن هناك مفر من الموت ، فأنا أفضل أن أموت جميلة .
تضاعف حنقه ، وأدرك أنه لا فائدة من مناقشتها ، فشد قامته ، وقال فى صرامة :
ـ اسمعى يا (بوشكا) .. الموقف لايحتمل حتى مثل هذه المناقشات .. إننى أقود الموقف منذ البداية ، وسأقوده حتى آخر لحظة ، مادام فى صدرى نفس يتردد ، وليس أمامك سوى طاعتى ، وإلا فسألقيك مع كلبتك وسط الثلوج ، وأواصل طريقى وحدى .

هتفت فى غضب :

ـ يالك من متوحش !

ثم ضمّت إليها (ميرا) ، مستطردة فى استنكار :

ـ كيف تجرؤ على إلقاء كلبة مسكينة وسط الثلوج ؟

شعر أنه سيصاب بارتفاع فى ضغط الدم ، لو واصل حديثه معها ، فهتف فى حدة :

ـ لن نناقش هذا .. إنه أمر .

صاحت محتدّة :

ـ لست جندية تحت إمرتك ، ولست ..

قطعت حديثها بغتة ، مع أزيز مروحة الهليوكوبتر ، الذى اتضح فجأة ، فهتفت فى شحوب :

ـ إنهم يواصلون مطاردتنا .

تركها (أدهم) قبل أن تتم عبارتها ، وقفز خارج الصندوق ، ووثب داخل مقصورة القيادة ، وانطلق بالسيارة مباشرة ، فى حين هتفت (ناديا) ، عندما لمحته :

ـ ها هو ذا .

وانتزعت مدفعًا آليًا ، كان الطيّار يثبته إلى جواره ، وأسرعت نحو السيارة ، وهى تقول فى انفعال :

ـ ارتجف أيها الجاسوس .. لقد جاءت (ناديا) .

قالتها وأطلقت النار ..

وزاد (أدهم) من سرعة السيارة ، والرصاصات ترتطم بجسمها ، وتتناثر من حوله ، و (ناديا) تميل بالهليوكوبتر يمينًا

ويسارًا ، بحثًا عن زاوية مناسبة ؛ لإصابة (أدهم) داخل السيارة ، فى حين راح هذا الأخير ينطلق فى خط متعرّج ؛ ليجعل إصابته أكثر صعوبة ، ولكن (ناديا) لم تكن بالمقاتلة العادية ..

لقد تعلّمت ، منذ نعومة أظفارها ، أن تقاتل خصمها بلا هوادة ، وأن تستغل كل الظروف والإمكانيات المتاحة للظفر به وهزيمته ، دون التقيّد بقواعد سابقة ..

لا قانون ، ولا قواعد ..

ولا رحمة ..

ثم أنها تلقّت تدريبات عنيفة قاسية ، علّمتها كيف تقاتل بأعنف وسيلة ممكنة ، وكيف تريق الدماء أنهارًا ، دون أن يطرف لها جفن ..

ولأنها خبيرة بكل ماهو حربى سوفيتى ، فقد أدركت أنها لن تنجح فى إيقاف السيارة أو إتلافها ، من هذه الزاوية ؛ لذا فقد زادت من سرعتها ، حتى تجاوزت السيارة ، ثم استدارت ؛ لتنقضّ عليها من الأمام ، وهى تطلق نيرانها على نقطة ضعفها الوحيدة ..

الزجاج الأمامى ..

وأدرك (أدهم) ماتخطط له (ناديا) فأمسك مقود السيارة بيمناه ، وأخرج يده اليسرى من النافذة المجاورة ، وهى تحمل المدفع الآلى ، واستعد ..

استعدّ للمواجهة ..

وفى شراسة ، انقضّت (ناديا) بالهليوكوبتر على السيارة ، وأطلقت نيرانها على زجاجها الأمامى ، هاتفة :

- إنها النهاية أيها الجاسوس .

ولكن (أدهم) كان يطلق نيران مدفعه بدوره ..

وتهشم زجاج السيارة الأمامى ، وتناثر فى وجه (أدهم) ، الذى شعر بإحدى الرصاصات تحتك بكتفه ، وثانية تجرح عنقه ، ولكنه واصل إطلاق النيران نحو الهليوكوبتر بلا توقف .

أما (ناديا) فقد أطلقت رصاصاتها بثقة شديدة فى البداية ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بالرصاصات ترتطم بالزجاج الأمامى ، والمروحة ، وخزان الوقود ، فأدركت أنها تواجه أستاذًا فى الرماية ، وانعقد حاجباها فى توتر شديد ، وهى تهتف :

- اللعنة !.. هذه الهليوكوبتر لا تصلح للمواجهة .

قالتها ، وجذبت عصا القيادة ، فارتفعت الهليوكوبتر ، قبل لحظات من ارتطامها بالسيارة وعبرت فوقها ، وهى تصرخ :

- ولكنه لن ينتصر .

إلا أن (أدهم) لم يتوقف عن إطلاق النار ، وإنما رفع فوهة مدفعه الآلى إلى أعلى ، وهو يطلق رصاصاته على جسم الهليوكوبتر ..

واستدارت (ناديا) لتهاجمه مرة أخرى ، وهى تصرخ فى غضب ثائر :

- أى شيطان يبارك خطوات هذا الرجل .. بل أى شيطان هو ؟!

انقضت مرة أخرى على السيارة ، وأطلق (أدهم) نيران مدفعه ..

ثم اشتعلت النيران ..

اشتعلت فى خزان وقود الهليوكوبتر ، الذى ثقبته رصاصات

(أدهم) ، فى مواقع عديدة ، وصاحت (ناديا) ، وقد بلغت ثورتها مبلغها :

- لا .. ليس ثانية .

أما (أدهم) ، فقد أطلق صيحة ظافرة ساخرة ، وهو يهتف :

- مرحى .. يبدو أنه موسم ناجح لصيد الطائرات .

قالها وواصل طريقه بأقصى سرعة ، على الرغم من الهواء المثلج ، الذى يرتطم بوجهه ، ويكاد يجمد أطرافه ، فى حين ابتعدت (ناديا) بالهليوكوبتر ، وأسرعت تهبط بها أرضًا ، ثم غادرت مقعدها ، وانطلقت تعدو مبتعدة ، و ...

ودوى الانفجار ..

ومعه انفجر بركان جديد من الغضب ، فى أعماق (ناديا) ..

لقد فعل بها (أدهم) مالم يفعله بها أى رجل آخر منذ بدأت عملها ..

لقد هزمها ..

وأكثر من مرة ..

وبكل الغضب الهادر فى نفسها ، لوحت (ناديا) بقبضتها ، وهى تصرخ :

- إنها ليست نهاية المطاف أيها الجاسوس .. إنك لن تنتصر .. لن تنتصر أبدًا .

ورددت الجبال صرختها الغاضبة ، فى نفس الوقت الذى هتفت فيه (بوشكا) داخل السيارة ، وهى تحتضن (ميرا) فى سعادة :

- لقد انتصر يا (ميرا) .. لقد انتصر الوسيم مرة أخرى .. إنه

رجل رائع يا (ميرا) .. رجل يستحق قلب (بوشكا) .. أليس كذلك ؟

سمع (أدهم) حديثها ، ولكنه تجاهله تمامًا ، وهو يحاول دراسة خط سيره الجديد ..

إنه لن يستطيع الذهاب إلى (لينينجراد) .

لم يعد من الحكمة أن يفعل ، بعد أن عرف السوفيت موضعه واتجاهه ، وخط سيره ..

إنهم سيطاردونه حتمًا طوال الطريق إلى (لينينجراد) ، وسيضاعفون من حراساتهم وأمنهم حول الميناء ، وفى كل نقطة يمكن أن تقود إلى خليج (فنلندا) ..

ثم إنه لا يملك وسيلة مناسبة لتجاوز كل هذا ..

أضف إلى ذلك وجود (بوشكا) ..

شعر لأول مرة ، منذ بدأت الأحداث ، أن وجود (بوشكا) يضاعف من العقبات والمشكلات ، فالقافلة تسير بقدر احتمال أضعفها ، وضعف (بوشكا) يفرض عليه المسير بخطة متواضعة ، لا تناسب قدراته الفعلية ، فى حين سينطلق السوفيت خلفه بكل قوتهم وطاقتهم ..

ولكنه لن يتخلى عنها ..

لا يمكنه أبدًا أن يفعل ..

إنها ضعيفة ، ورقيقة ، على الرغم من عنادها وإصرارها الطفولى ..

وهو يشعر نحوها بالكثير من العطف والشفقة ، كما لو كانت طفلة

صغيرة ضائعة ، حُرِمَتْ من رعاية أبويها ، ولم يعد لها سواه ..

حاول أن يطرد من ذهنه مشكلة (بوشكا) ، ويركِّز تفكيره على خط السير الجديد ، الذى يمكن أن يقوده إلى الحرية ..

وفى حزم ، انحرف بالسيارة يسارًا ، واتخذ طريقه وسط الثلوج ، فهتفت به (بوشكا) ، عبر نافذة صغيرة ، تربط ما بين الصندوق الخلفى والمقصورة :

ـ إنك تتجاوز الطريق .

أجابها فى حسم :

ـ أعلم هذا .

قالت فى حدة :

ـ وهل تعلم أن هذا التجاوز قد يقودنا إلى الضياع ؟

أجابها فى ضجر :

ـ اطمئنى .. إننى أحمل بوصلة صغيرة ، وتلك الخريطة التى أعطيتنى إياها .

هتفت :

ـ ولو .. إنك تتوغَّل فيما نطلق عليه اسم الصحراء الجليدية ، وهى منطقة مخيفة ، تمتدّ إلى ما لا نهاية ، ويمكننا أن نضل فيها بمنتهى السهولة ، ولكنها لن تقودنا أبدًا إلى (لينينجراد) .

قال فى حزم :

ـ لن نذهب إلى (لينينجراد) .

بُهِتَتْ للجواب ، وقالت فى قلق :

ـ إلى أين سنذهب إذن ؟

صمت لحظة ، ثم قال فى صرامة :

ـ إلى أى مكان آخر .

قالت فى عصبية :

ـ ولماذا لا تخبرنى ؟

أجابها فى هدوء :

ـ من الأفضل ألا تعلمى .

صاحت فى حنق :

ـ لماذا ؟.. هل تقودنا إلى الجحيم ؟

كان يشعر بالضجر والملل ، من أسلوبها العصبى المتواصل ، وإصرارها على مجادلته فى كل مرحلة ، فتجاهل سؤالها تمامًا ، إلا أن هذا أصابها بالمزيد من الحنق والغضب ، وهتفت :

ـ لماذا تتجاهلنى ؟

لم تكد تتم عبارتها ، حتى أصدر المحرِّك قرقعة خافتة ، ثم زمجر فى خشونة ، فغمغم (أدهم) :

ـ اللعنة !

صاحت (بوشكا) غاضبة :

ـ هل تلعننى ؟.. هل تلعننى بعد كل مافعلته من أجلك ؟

شعرت بالسيارة تتوقَّف ، فتراجعت خائفة ، وضمَّت (ميرا) إليها ، وهى ترتجف قائلة :

ـ هل .. هل أغضبتك ؟!.. إنك لن تتركنى هنا وسط الثلوج .. أليس كذلك ؟

سمعته يزفر فى عمق ، ويقول :

ـ بل سنبقى كلنا هنا .

ثم أضاف فى ضيق :

ـ لقد نفد الوقود .

اتسعت عيناها فى هلع ، وسرت فى جسدها قشعريرة باردة مخيفة .

إن نفاد الوقود يعنى أنهما أصبحا ضائعين فى هذه المنطقة المخيفة ..

فى صحراء الموت الجليدية .

★ ★ ★



١٨ ـ طريق اليأس ..

عقد الجنرال (فاسيلوف) كفيه خلف ظهره ، وهو يقف أمام نافذة مكتبه الكبيرة ، المطلّة على الساحة الخلفية لمبنى المخابرات ، وذهنه يراجع كل تلك الأحداث ، التى جرت فى الساعات القليلة الماضية ، منذ اقتحم (أدهم) مكتبه ، وحتى هذه اللحظة ..

كان يشعر بحنق بالغ ، بسبب عجز رجاله عن اقتناص (أدهم) ، على الرغم من قدراتهم وكل مامنحهم إياه من إمكانات ..

وكان يخشى فى الوقت ذاته أن يفلت (أدهم) ، وهو يحمل هذه الوثائق البالغة الخطورة ..

إن هذا يعنى نهاية كل شبكاتهم فى (مصر) ..

ونهايته بالتبعية ..

لن يغفر له رؤساؤه قط ما سيحدث ..

وتصاعد غضب هادر فى أعماقه ، وهو يلعن ذلك الإسرائيلى ، الذى تسبَّب فى كل هذا ، وامتدّ غضبه إلى (ناديا) ، فغمغم فى سخط :

ـ أين ذهبت هذه اللعينة ؟.. كان من المفروض أن تتصل لاسلكيًا ، كل نصف ساعة ، لتبلغنى بتطورات الموقف أوّلًا فأوّلًا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى سمع طرقات ، منتظمة على باب مكتبه ، فقال فى حدة :

ـ ادخل يا (سباسكى) .

كان يعلم أن سكرتيره الخاص هو الشخص الوحيد ، الذى يمكنه

أن يطرق باب مكتبه مباشرة ، وكان على حق فى هذا ، فقد دلف سكرتيره (سباسكى) إلى الحجرة ، وهو يقول :

ـ معذرة أيها الرفيق الجنرال ، أعلم أنك طلبت عدم إزعاجك ، إلا فى حالة الضرورة القصوى ، ولكننى أعتقد أن الأمر الذى جرؤت على اقتحام خلوتك من أجله ، يدخل فى عداد الضرورة القصوى ، من وجهة نظرى .

سأله (فاسيلوف) ، وهو يلتفت إليه بجسده كله :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟

تردَّد (سباسكى) ، وهو يتلفَّت حوله ، ثم حسم أمره ، وقال :

ـ إنه شىء أحتفظ به فى مكتبى المتواضع أيها الرفيق الجنرال .

قال (فاسيلوف) فى عصبية :

ـ ولِمَ لا تأتى به إلى هنا ؟

صمت (سباسكى) لحظة ، ثم أشار بيده إشارة متفق عليها ، وهو يقول :

ـ إنه صعب الحمل أيها الرفيق الجنرال .

أدرك (فاسيلوف) مايرمى إليه سكرتيره ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى حذر :

ـ فليكن .. دعنا نطالعه فى مكتبك .

انتقل معه إلى مكتبه الصغير ، الملحق بالمكتب الرئيسى ، ولم يكد يستقر بهما المقام هناك ، حتى سأله فى توتر :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟.. إشارتك كانت تعنى أنه من الخطر التحدث داخل مكتبى .. لماذا فعلت هذا ؟

ناوله (سباسكى) شريط تسجيل صغير ، وهو يقول :

ـ لقد سجل رجالنا محادثة هاتفية ، أجراها الإسرائيلى (إيزاك) ، من مطعم صغير ، بالقرب من شريط القطار ، عند (ياروسلافل) ، مع رئيسه (أندريه رابين) ، فى السفارة الإسرائيلية ، وهذه المحادثة تحوى أمورًا بالغة الأهمية ، كان من الضرورى أن تستمع إليها بنفسك .

قالها ووضع الشريط داخل جهاز خاص ، وضغط زر التشغيل ، وراح (فاسيلوف) يستمع بانتباه كامل إلى نصّ المحادثة ، بين (إيزاك) و (أندريه) ، حتى انتهت ، فازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يحك ذقنه بسبابته ، قائلًا :

ـ ما الذى يقصده ذلك الإسرائيلى ، وهو يتحدّث عن الجهاز الصغير ، الذى ينقل إليهم تفاصيل تحركات الجاسوس الهارب ؟

تنحنح (سباسكى) ، وقال :

ـ معذرة أيها الرفيق الجنرال ، ولكننى أعتقد أن هذا الجهاز هنا .

التفت إليه (فاسيلوف) ، قائلًا فى حدة :

ـ هنا ؟!

أجابه (سباسكى) بسرعة :

ـ هل تسمح لنا بفحص مكتبك أيها الرفيق الجنرال ؟.. إننى أنتظر أوامرك .

قال (فاسيلوف) على الفور :

ـ بكل تأكيد .. اتصل بفريق الفحص على الفور ، ولو كشفوا وجود أيه أجهزة تصنت هنا ، فسيدفع (أندريه) الثمن غاليًا .

وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يضيف :

ـ أغلى مما تتصوّر ..

وأطلّ من عينيه الغضب ..

كل الغضب ..

★ ★ ★

ارتسمت على شفتى (شلينكو) ابتسامة ساخرة ، وهو يوقف سيّارته أمام (ناديا) ، ولوّح بكفه متهكّمًا ، وهو يقول :

ـ مرحى أيتها الرفيق (ناديا) .. ماذا أصاب طائرتك هذه المرة ؟.. أراهن أنها لم تحتمل ثقل ظلك ، فهوت أرضًا .

أجابته فى برود ، وهى تتجه إلى سيارته :

ـ وصلت فى الوقت المناسب يا (شلينكو) .

قال متهكّمًا :

ـ إننى أصل دائمًا فى الوقت المناسب أيتها الرفيق (ناديا) ، والأهمّ أننى أجيد المحافظة على وسيلة مواصلاتى .

ثم مال نحوها ، مستطردًا فى سخرية :

ـ والآن ما رأيك ؟.. من سيربح السباق ؟

بدا على طرف شفتيها ابتسامة ، وهى تقول :

ـ مارأيك أنت ؟

قال فى شماتة واضحة :

ـ رأيى أنك خسرت أيتها الرفيق ، فلست أنوى اصطحابك معى ، وكل ماقد أفعله من أجلك ، هو أن أبلغ دوريات الثلوج بموقفك ، ليرسلوا من يلتقطك من هنا ، وأعدك أن أذكر فى تقريرى ، بعد أن

أقتنص ذلك الجاسوس ، أنك قمت بواجبك خير قيام .

قالت وابتسامتها تبدو أكثر وضوحًا :

ـ ولكنك لم تختبر كل وسائلى بعد .

قال ساخرًا :

ـ وما الجديد لديك ؟

رفعت فوهة مدفعها الآلى فى وجهه بغتة ، وهى تقول :

ـ هذا .

حدّق فى فوهة المدفع لحظة فى دهشة ، ثم انعقد حاجباه فى غضب ، وهو يقول :

ـ ماذا تفعلين أيتها الرفيق ؟

قالت فى صرامة :

ـ لا تحاول التقاط مدفعك أيها الرفيق الغبى ، لأننى سأطلق النار بدون تردّد ، لو بدرت منك بادرة واحدة .

قال غاضبًا :

ـ لقد أصابك الجنون .

بدت له قاسية صارمة كعادتها ، وهى تقول :

ـ فليكن .. هيّا .. غادر السيارة ، حتى لا تضطرنى إلى سحب جثتك منها .

قال فى حدة :

ـ أتعلمين أننى أستطيع تقديمك إلى محاكمة عسكرية ؛ بسبب هذا التصرّف الأرعن الطائش .

أجابته فى صرامة :

ـ غادر السيارة .

كان يدرك جيدًا أنها لن تتردّد فى إطلاق النار عليه ، لو لم ينفذ أوامرها ، فغادر السيارة فى سخط ، وهو يقول :

ـ ستدفعين ثمن هذا غاليًا .

أجابته فى برود :

ـ لا تعتمد على هذا كثيرًا ، فالتقرير الذى سأناله حتمًا ، عندما ألقى القبض على ذلك الجاسوس أو أقتله ، وأستعيد منه الوثائق والأفلام ، سيمحو إلى جواره صرخاتك الغاضبة ، وتقاريرك السخيفة .

انتابه جنون الغضب ، مع أسلوبها الاستفزازى ، ولم يعد يبالى بمدفعها الآلى ، فانقضّ عليها صارخًا :

ـ هذا ما تتوهمينه .

وبركلة قوية ، أزاح مدفعها الآلى بعيدًا ، ولكمها فى فكّها ، إلا أنها تفادت لكمته فى مهارة ، ولكمته هى فى معدته ، وهى تقول :

ـ هل تفضّل القتال ؟.. عظيم .. أنا أيضًا أميل إلى هذا .

هاجمها مرة أخرى فى شراسة ، وهو يقول :

ـ ليس القتال فحسب ، بل والقتل أيضًا ، لو لزم الأمر .

استقبلته بلكمة كالقنبلة فى أنفه ، وهى تقول :

ـ لا تتحدّث عن القتل .. إنه هوايتى .

وأعقبت لكمتها بأخرى فى أسنانه ، متابعة :

ـ وأنا أستاذة فيه .

سقط متألمًا غاضبًا ساخطًا ، وقد أحنقه أنه تهزمه امرأة على هذا

النحو ، فصاح فى ثورة :

ـ لن تربحى أيتها المتحذلقة المغرورة .. لن تربحى أبدًا .. سيثبت لك (شلينكو) أن من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا .. ألا تدركين لماذا كلفنى الرفيق الرئيس مهمة مطاردة ذلك الجاسوس ، ولماذا لم يصدر أمرًا بمنعك من هذا ؟

تجاهلته وهى تتخذ مقعد القيادة فى سيارته ، وتدير المحرك ، ولكنه نهض بأنف دام ، وغضب هادر ، مستطردًا :

ـ لقد ذهبت لمقابلة الرفيق الرئيس بنفسى ، واتهمتك أنت والجنرال (فاسيلوف) بالخيانة ، وبأنكما حاولتما قصر المطاردة عليكما ، ليمكنكما إخفاء ما تريدان ، دون مراجع أو رقيب ..

توقفت جامدة ، ثم أغلقت المحرك مرة أخرى ، وهو يتابع :

ـ الرفيق الرئيس أصبح يشك فى أمركما الآن .. لقد أصبحت أيامكما معدودة أيتها الرفيق .. حتى ولو كنتما بريئين .. لقد وقعتما فى خطأ فادح ، وسأبذل قصارى جهدى لكى تدفعا ثمنه غاليًا .. هل تفهمين ؟

غادرت السيارة ، ووقفت أمامه فى برود ، وهى تقول :

ـ هل تدرك ما الذى فعلته بنفسك ، أيها الرفيق (شلينكو) ؟

صاح بها :

ـ لا تقلقى نفسك بشأنى أيتها المتحذلقة .. اهتمى بأمرك وأمر جنرالك المأفون ، الذى سمح لجاسوس أجنبى بسرقة أدق وأخطر أسرارنا .. إنها أيامكما الأخيرة بيننا أيتها الرفيق ، وسأراكما بنفسى هناك ، فى (سيبيريا) تقطعان الأخشاب ، و ...

ولم تترك له (ناديا) فرصة إكمال عبارته ..

لقد رفعت فوهة مدفعها الآلى بحركة سريعة ، وأفرغت رصاصاته فى جسده ..

وجحظت عينا (شلينكو) فى ذهول وذعر وألم ، ثم هوى فاقد النطق ، فوق طبقة جليدية سميكة ، امتزجت بدمائه ، فصنعت مزيجًا ورديًا عجيبًا ، فى حين خفضت (ناديا) فوهة مدفعها فى برود ، وهى تقول :

ـ كلا أيها الرفيق (شلينكو) .. لست أظنك تحيا ، حتى ترى هذه الأوهام .

وفى هدوء ، استقلت سيارتها ، وانطلقت لتواصل المطاردة .

★ ★ ★

ضمت (بوشكا) (ميرا) إلى صدرها وراحت تنفخ بخار الثلج من بين شفتيها الجميلتين ، وهى تراقب (أدهم) ، الذى يفتش السيارة ، بحثًا عن وعاء وقود احتياطى ، قبل أن يقول فى أسف :

ـ لا توجد قطرة واحدة من الوقود .. لقد عثرت على ثلاث قنابل يدوية ، ومسدسين ، وقاذفة لهب صغيرة ، ولكن لا يوجد وقود .

سألته فى يأس :

ـ أيعنى هذا أننا انتهينا ؟

هز رأسه نفيًا ، وقال :

ـ قلت لك : لست أحب هذه النغمة المتخاذلة .

قالت فى حدة :

ـ ماذا تقترح إذن أيها العبقرى ؟

أجابها على الفور :
ـ أن نواصل طريقنا .
اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تهتف :
ـ سيرًا على الأقدام ؟!
هزَّ كتفيه ، قائلًا :
ـ هل توجد وسيلة أخرى ؟
اعتدلت قائلة فى عناد :
ـ اذهب وحدك .. لن أتحرَّك خطوة واحدة .
أجابها فى هدوء :
ـ كما يحلو لك .
ثم حمل قاذفة اللهب ، وثبَّت المسدسين والقنابل الثلاث فى حزامه ، ثم تحرَّك مبتعدًا ، فارتفع حاجباها فى دهشة ، وقالت فى عصبية :
ـ هل ستتركنى هنا ؟
أجابها دون أن يلتفت إليها :
ـ أنا رجل ديموقراطى ، لن أرغمك على فعل ما تكرهين .
قالها وواصل طريقه مبتعدًا ، فهتفت فى غضب :
ـ أيها السخيف .
ثم أسرعت تلحق به ، فابتسم فى هدوء ، وهو يعلم أن هذا ما ستقدم عليه ، وسار بخطوات بطيئة نسبيًا ، ليسمح لها بالسير إلى جواره ، ولكنها ظلَّت غاضبة ، معقودة الحاجبين ، لائذة بالصمت ، حتى نبحت (ميرا) لتقطع حبل الصمت ، فضمَّتها إلى صدرها ثانية ، وقالت :

ـ أعلم يا (ميرا) .. أعلم يا صغيرتى .
سألها فى ضجر :
ـ ماذا هناك هذه المرة ؟
أجابته فى حدة :
ـ (ميرا) المسكينة جائعة .
ثم خفضت صوتها ، مستطردة :
ـ وأنا أيضًا .
توقَّف فجأة ، وأشار إليها بالتوقُّف ، فقالت فى عصبية :
ـ حسن .. سنحتمل الجوع .
قال بصوت حازم ، يشفُّ عن خطورة الأمر :
ـ المهم أن يلتزم الجميع بهذا المبدأ ، فلست و (ميرا) وحدكما ، اللتين تشعران بالجوع .
اشرأبَّت بعنقها ، لتلقى نظرة على آثار توتره إلى هذا الحد ، ثم شهقت فى ارتياع ، وضمَّت (ميرا) إليها فى رعب ..
فهناك .. على عدة أمتار قليلة منها ، كانت هناك عشرات من العيون الصغيرة تتطلَّع إليها وإلى (أدهم) فى وحشية ..
عيون قطيع من الذئاب ..
ذئاب الجليد ..

★ ★ ★

ارتجف جسد (بوشكا) كله ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وهى تحدِّق فى قطيع الذئاب ، الذى أطلق زعيمه عواء

خافتًا ، ثم زمجر فى شراسة ، وكأنه يختبر قوة وشجاعة فريسته ، فى حين انكمشت (ميرا) فى رعب ، وراحت تصدر أصواتًا خافتة مضطربة ، وقالت (بوشكا) فى رعب :

ـ إنها .. إنها ذئاب ..

قال (أدهم) فى حزم ، دون أن يرفع عينيه عن زعيم القطيع :

ـ اصمتى .

ولكنها واصلت ، قائلة :

ـ إننى لم أشاهدها قط من قبل ، إلا فى البرامج الثقافية فى (التليفزيون) .

كرَّر (أدهم) فى صرامة :

ـ قلت .. اصمتى .

زمجر زعيم قطيع الذئاب مرة أخرى ، على نحو أكثر وحشية ، وأطلّت شراسة لا حدود لها من عينيه ، وهو يتحفّز للانقضاض ، والقطيع كله من خلفه ينتظر انقضاضته ؛ ليتبعه على الفور ، ويمزّق الفريسة بأنيابه ، وينهشها بمخالبه ..

و (أدهم) يعلم هذا .

يعلم أن الزعيم هو صاحب القرار ..

ورمز القوة ..

ولكنه لم يتحرَّك ..

لقد ظلّ ساكنًا ، صامتًا ، يتطلّع إلى الذئب فى تحفّز مماثل ..

كانا أشبه بذئبين ، يستعدّان للاشتباك فى قتال عنيف ، لزعامة القطيع ..

ثم بدأ القتال فجأة .

لقد أطلق الذئب زمجرة تفوق السابقات شراسة ووحشية ، ثم انقضّ على (أدهم) انقضاضة عنيفة ..

وأطلقت (بوشكا) صرخة رعب هائلة ، ولكن (أدهم) دفعها جانبًا بحركة سريعة ، ثم رفع ماسورة قاذفة اللهب نحو الذئب ، وأطلقها ..

وانطلق لسان اللهب يضرب جسد الذئب ، الذى تحوّل فى لحظة إلى كرة من النار ، وسقط أرضًا ، وهو يطلق عواءً رهيبًا ، وراح يعدو مبتعدًا ، والنيران تتصاعد من جسده ، وتتطاير على نحو بشع مخيف .

ودون تردّد ، لحق به أفراد القطيع ، وقد أيقن كل منهم أن السلاح الذى يحمله (أدهم) يمثّل خطورة حقيقية ..

بل أخطر ما يخشاه أى حيوان على وجه الأرض ..

النار ..

وارتجف جسد (بوشكا) وهى تهتف :

ـ أنت متوحش .

التفت إليها (أدهم) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ لقد انصرف القطيع كله ، وشطب اسمنا من قائمة طعامه .. أليس كذلك ؟

هتفت غاضبة :

ـ وماذا عن ذلك الذئب المسكين ، الذى أشعلت فيه النيران ؟.. ألم تجد وسيلة أقل وحشية لقتله ؟

قال فى برود :
ـ ماذا كنت تفضلين ؟.. أن يلتهمنا هو ورفاقه ؟
قالت فى حدة :
ـ كان يمكنك أن تكتفى بإطلاق النار عليه .
هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :
ـ لم يكن هذا ممكنًا ، فلقد رأيت بنفسك عدد الذئاب .. كانوا أكثر من ستين ذئبًا ، والرصاصات ستقتل ثمانية عشر ذئبًا ، ثم يسترد الباقون شجاعتهم ، ويهاجموننا بشراسة أكبر .
انحدرت الدموع من عينيها ، وهى تقول :
ـ ولكن ذلك كان بشعًا .
أومأ برأسه ، قائلًا فى إشفاق :
ـ أعلم هذا .. ودينى يأمرنى إذا ما قتلت ، بأن أحسن القتل ، ولكنه يقول أيضًا : إن الضرورات تبيح المحظورات .. وأعتقد أن كلمة الضرورات تنطبق ، وبشدة ، على هذا الموقف .. وصدقينى .. لقد درست كل الاحتمالات فى ذهنى ، وأنا أقف فى مواجهة قطيع الذئاب .. وكان من الضرورى أن ألجأ إلىّ وسيلة حاسمة وقوية ، تفجّر كل الخوف فى أعماق هذه الحيوانات المتوحشة ، وتدفعها إلى الفرار بأقصى سرعة ، دون أن تفكّر فى معاودة الهجوم .. ولم أجد سوى هذا الحل ، على الرغم من بشاعته .. هذا هو المقصود بالضرورات التى تبيح المحظورات فى شريعتى .
لم تناقشه هذه المرة ، وإنما انخرطت فى بكاء حار ، جعله يشعر

نحوها بشفقة كبيرة ، فاقترب منها ، وهو يقول فى خفوت :
ـ هل استوعبت الأمر ؟
أومأت برأسها إيجابًا فى صمت ، فقال مبتسمًا :
ـ حمدًا لله .
رفعت رأسها إليه ، وهمّت بالابتسام ، ولكنها فوجئت به يزيحها جانبًا ، ثم ينتزع مسدسه ، ويطلق النار ..
وشهقت (بوشكا) فى هلع ، ولكن (أدهم) وضع يده على كتفها ، وهو يقول فى صوت ، حاول أن يدفع إلى نبراته أكبر قدر ممكن من الهدوء والحنان :
ـ اطمئنى .. إنها وجبة الغداء .
استدارت بسرعة إلى حيث أطلق النار ، وتهلّلت أساريرها ، وهى تصفق بكفيها فى جذل ، هاتفة :
ـ أرنب كبير .. عظيم .. سنتناول الطعام .. سنأكل يا (ميرا)
ابتسم (أدهم) فى إشفاق ، وسار إلى حيث سقط الأرنب الكبير ، وحمله من أذنيه ، وهو يرفع ماسورة قاذفة اللهب ، قائلًا :
ـ والأجمل أننا نمتلك وسيلة الشواء .
وعادت تصفق بكفيها فى سعادة .
ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كان ثلاثتهم قد التهموا الأرنب الكبير ، وهتفت (بوشكا) فى ارتياح وسعادة :
ـ ما أعظم الشعور بالشبع ؟
قال (أدهم) مبتسمًا ، وهو يراقب الأفق ، حيث بدأت الشمس رحلة المغيب :

ـ وخاصة بالنسبة لمن لم يذق طعم الجوع قط .

التفتت إليه ، قائلة :

ـ لو أنك تقصدنى أنا ، فأنت مخطئ .. لقد ذقت طعم الجوع طويلًا .

سألها :

ـ ومتى كان هذا ؟

تنهدت ، وشاركته نظرته إلى الغروب ، وهى تقول :

ـ بعد اعتقال أبى مباشرة .. كان هذا جزءًا من العقاب .. أن نجوع ونتشرد ، ونصبح عبرة لمن يعتبر ، بحيث لا يجرؤ أى مخلوق بعدها على الاعتراض أو المناقشة ، أو حتى إبداء الرأى ، حتى ولو كان شيوعيًا وطنيًا مخلصًا .. لقد ذقت الجوع طوال عام كامل ، وبعدها عملت أمى فى المسرح ، وأصبح لها عشرات المعارف والأصدقاء ، وانتهى الجوع ، ولكننا فقدنا الأب .

زفرت مرة أخرى ، وتركت دموعها تنساب على وجنتيها ، ثم رفعت عينيها إلى (ميرا) ، التى ابتعدت ، وراحت تلهو ببقايا العظام ، بعد أن ملأت معدتها بالطعام ، وقالت فى رقة عجيبة :

ـ (ميرا) .. لا تبتعدى يا صغيرتى ، فستغرب الشمس بعد قليل ، وأخشى أن أفقدك .

نهضت متجهة إلى (ميرا) ، و (أدهم) يتابعها ببصره مشفقًا ، وهو يغمغم :

ـ يا لها من مسكينة !.. لقد عانت الكثير بالفعل ، وهذا يبرر معاونتها لى ، على الرغم مما تتمتع به من امتيازات .

راقبها وهى تعدو خلف (ميرا) هاتفة :

ـ كفى لهوًا يا (ميرا) .. إننا لن نبقى هنا طويلًا ، ومن الضرورى أن ...

وفجأة ، رآها تهوى إلى أسفل ، وتختفى داخل حفرة جليدية ، وهى تطلق صرخة مفزعة ..

صرخة إنسان يحتضر .

* * *



١٩ ـ الجيش ..

رفع قائد الفرقة العاشرة من دوريات الثلوج حاجبيه فى دهشة ومرارة ، وهو يتطلّع إلى أكوام الثلوج ، التى تبرز من بينها القاطرة المقلوبة ، وقال فى أسى :

ـ لقد أبيدت الفرقة التاسعة كلها .. يالها من كارثة !.. كيف لم ينتبهوا إلى أن قنابلهم ستسبّب هذا الانهيار ؟

هزّ رأسه آسفًا متأسّيًا ، وهو يتابع رجاله ، الذين انهمكوا فى إزاحة الجليد ، واستخراج جثث رفاقهم ، من الفرقة التاسعة ، ثم التفت إلى معاونه ، وسأله :

ـ هل عاد فريق البحث ؟

تطلّع المعاون إلى ساعته ، وهو يقول :

ـ لقد منحناهم نصف ساعة للبحث فى اتجاه قطار (لينن‌جراد) ، وهذا يعنى أنهم فى طريقهم إلى هنا الآن .

عاد القائد يهزّ رأسه ، قائلًا :

ـ لا يمكننى أن أصدّق أننا ننطلق جميعًا خلف رجل واحد ، وأنه المسئول وحده عن كل هذا .

قال المعاون فى خفوت :

ـ من الواضح أنه ليس بالرجل العادى ، فهم يولونه اهتمامًا بالغًا ، ويرفعون من أجله درجات الطوارئ إلى الحد الأقصى .

قال القائد ، وهو يقلب كفيه فى حيرة :

ـ إننى لم أر شيئًا كهذا قط من قبل .

تناهى إلى مسامعه صوت محرّك سيارة دورية البحث ، وهى تقترب ، فاستدار مع معاونه إليها ، وتابعاها ببصريهما حتى توقّفت أمامهما ، وقفز سائقها يؤدى التحية العسكرية ، قائلًا :

ـ لقد عثرنا على هليوكوبتر الفرقة التاسعة أيها الرفيق القائد ، ولكنها محطّمة ، ومليئة بالثقوب ، وقد اشتعلت فيها النيران .

عقد الرجل حاجبيه ، وهو يتمتم :

ـ اللعنة !.. وكيف وصل بها الأمر إلى هذا الحد ؟

هزّ الجندى رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لا أحد يدرى ياسيّدى ، ولكننا عثرنا على مقربة منها ، على ضابط من ضباط المخابرات .

سأله القائد :

ـ هل قتلوه أيضًا ؟

أجاب الجندى :

ـ لقد أطلقوا عليه كمية ضخمة من الرصاصات أيها الرفيق القائد ، وإصاباته بالغة الخطورة ، ولكن من العجيب أنه لم يلق مصرعه بعد .

هتف القائد فى دهشة :

ـ إذن فهو حى .

أجابه الجندى بالإيجاب ، وأضاف :

ـ ولقد أحضرناه معنا .

أسرع القائد إلى السيارة ، وتطلّع فى دهشة إلى (شلينكو) ،

الذى يلتقط أنفاسه فى صعوبة ، وقال :
ـ ماذا حدث أيها الرفيق العقيد ؟
رفع (شلينكو) يده فى صعوبة ، وقال فى ضعف :
ـ أريد التحدث إلى الرفيق الرئيس .
خُيِّل للقائد أنه لم يحسن سماع الكلمة ، فقال :
ـ من ؟!
أجابه (شلينكو) متهالكًا :
ـ الرفيق الرئيس .. وأسرع يارجل .. إنه أمر بالغ الخطورة .. أمن دولة .. أسرع .
لم يصدِّق القائد أذنيه فى البداية ، إلا أنه أسرع يحاول إجراء الاتصال ، خشية أن يتهم بالتقصير فيما بعد ..
ولم يكن ذلك سهلًا ..
ولكنه لم يكن أيضًا مستحيلًا ..
لقد تم الاتصال عن طريق قنوات خاصة ، ذات صفة شديدة الرسمية والسرية ، فلم تمض دقائق معدودة ، حتى كان الرئيس يتحدَّث مع (شلينكو) مباشرة ، عبر موجة لاسلكية سرِّية ، وهو يقول :
ـ ماذا هناك هذه المرة أيها الرفيق (شلينكو) ؟
التقط (شلينكو) أنفاسه بصعوبة بالغة ، وهو يجيب :
ـ (ناديا مينوفيتشى) قتلتنى أيها الرفيق الرئيس .. إنها مدانة مع رئيسها حتى النخاع .. لقد نجح ذلك الجاسوس فى تدمير الفرقة التاسعة ، وطائرتى هليوكوبتر ، وقاطرة قطار (لينينجراد) السريع .. إنهما المسئولان أيها الرفيق الرئيس .. (فاسيلوف)

و (ناديا) .. إنهما ...
بتر عبارته بغتة ، وأطلق شهقة مكتومة ، ثم سقط رأسه على صدره ، وهمدت أنفاسه تمامًا ، فى حين راح الرئيس يقول فى توتر :
ـ إنهما ماذا أيها الرفيق (شلينكو) ؟.. أجب ؟
مضت لحظة أخرى من الصمت ، ثم أتاه صوت قائد الفرقة العاشرة ، وهو يقول مرتبكًا :
ـ لقد .. لقد مات أيها الرفيق الرئيس .
انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يقول :
ـ ماذا ؟
ثم التقط أنفاسه ، واستطرد :
ـ واصل المطاردة أيها الرفيق ، وأرسل جثة الرفيق (شلينكو) إلى أسرته على الفور .
أنهى المحادثة ، وتراجع فى مقعده ، وأمسك ذقنه بسبابته وإبهامه ، وهو يغمغم فى صوت خافت :
ـ (فاسيلوف) و (ناديا) .. من يصدِّق هذا ؟
ثم عاد حاجباه ينعقدان ، وهو يستطرد فى صرامة :
ـ ولكنه أمر بالغ الخطورة ، إلى حد لا يمكن تجاهله ، أو السكوت عنه .
واعتدل فى حزم ، والتقط سمَّاعة هاتفه الخاص ، وهو يقول لمدير مكتبه :
ـ (فيشر) .. اتصل فورًا بوزير الدفاع ، واستصدر أمرًا بإطلاق

خمس فرق مسلّحة ، خلف ذلك الجاسوس .. أريد جيشا كاملًا لمطاردته ، وتمشيط المنطقة كلها ، من (موسكو) إلى (لينتجراد) شبرًا شبرًا .

وأنهى المحادثة الداخلية ، وهو يقول لنفسه فى صرامة :

- من الواضح أننا نحتاج إلى ثورة جديدة .. وعنيفة .

واستقرّ أمره على عدد جديد من القرارات ..

ومن الأحكام ..

* * *

لم يكد (أدهم) يلمح (بوشكا) ، وهى تختفى داخل حفرة الجليد ، ويسمع صرختها المذعورة المدوية ، حتى هبّ من مكانه ، وانطلق يعدو إلى حيث اختفت ، ولم يكد يصل إلى هناك ، حتى انعقد حاجباه فى شدة وتوتر ..

لقد كان يعدو فوق سطح متجمّد لبحيرة صغيرة ، انهار جزء متجمّد منه ، فسقطت معه (بوشكا) إلى المياه الباردة ..

واختفت ..

وعلى حافة الفجوة ، التى انتشرت فيها الشروخ والشقوق ، راحت (ميرا) تنبح فى ذعر وأسى ، وكأنها تنادى سيّدتها الغائبة ، وهتف (أدهم) :

- (بوشكا) .. أين أنت ؟

كان سطح الماء ، الذى يبدو من الفجوة ، يتموّج فى بطء ، ولكن (بوشكا) لم تظهر على السطح .

ولم يتردّد (أدهم) لحظة واحدة .

ولم يكن هناك وقت يضيعه ..

لقد قفز مباشرة إلى الفجوة ، وغاص جسده فى مياه باردة كالثلج ، راح يضربها بذراعيه فى قوة ، بحثًا عن (بوشكا) ..

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب كثيرًا ، وانخفض الضوء إلى أقصى حد ، وصار البحث عن (بوشكا) أشبه بالبحث عن إبرة فى كومة من القش ..

ولكن رحمة الله (سبحانه وتعالى) واسعة ..

لقد عثر (أدهم) على (بوشكا) مصادفة ، وهو يضرب الماء بذراعيه ، وشعر بأصابعه تلامس شعرها ، فأطبق يده عليه فى قوة ، وجذبها منه إلى أعلى ، وهو يعود معها إلى السطح ..

وأخيرًا برز رأسها فوق سطح الماء ..

ولكن هذا لم يكن يعنى انتهاء المشكلة ..

لقد كانت (بوشكا) ساكنة صامتة متخاذلة ، كما لو أنها قد لفظت أنفاسها الأخيرة ..

ثم إن الخروج من حفرة فى الجليد ليس بالأمر السهل ..

الأطراف تكون دائمًا متشقّقة هشة ، تتحطّم مع الثقل والضغط ، بحيث لايجد المرء وسيلة للتعلّق بها ، والخروج من الفجوة ..

كما أن (أدهم) يحمل (بوشكا) ، ويجاهد للتعلّق بجسده فى ماء بارد كالثلج ، تكاد تتجمّد له أطرافه ..

وفى سرعة ، درس عقل (أدهم) الموقف ، واتخذ القرار ، ووضعه موضع التنفيذ ..

وانقبضت عضلات (أدهم) ، وهو يرفع (بوشكا) من الماء



وانقبضت عضلات (أدهم) وهو يرفع (بوشكا) من الماء بذراعيه ، ويحملها عاليًا ، وساقاه تقاتلان فى الماء المثلّج ..

بذراعيه ، ويحملها عاليًا ، وساقاه يقاتلان فى الماء المثلّج ، لمعادلة هذا الثقل ، وهو يجمع قوته كلها فى ذراعيه ، ثم يدفع جسد (بوشكا) بعيدًا ، فى دقة مدروسة ..

وتجاوز الجسد الضئيل المنطقة الضيقة من الجليد ، وهبط بزاوية منخفضة فوق الجليد القوى ، وانزلق فوقه لمتر أو مترين ، ثم استقرّ ساكنًا ، فأسرعت (ميرا) تعدو نحوه ، وأخذت تلعق وجه سيدتها بلسانها فى لهفة ، ثم تطلق عواءً حزينًا طويلًا ..

أما (أدهم) ، فقد سبح فى هدوء حتى الحافة ، وتعلّق بها فى حذر ، وشعر بها تتشقّق أكثر وأكثر ، كلما حاول التشبث بها ، ولكنه استجمع قوته كلها ، ودفع جسده إلى أعلى ..

وانفصلت الحافة ، وأطلقت قرقعة قوية ، ولكن جسده كان قد وثب خارج الماء ، ثم دار حول نفسه دورة رأسية أمامية ، بدت كتحفة مثالية ، فى المرونة والرشاقة والدقة ، جعلته يتجاوز المنطقة الضعيفة ، وينزلق فى عنف فوق المنطقة القوية ..

وما أن استقر جسد (أدهم) فوق الجليد ، حتى هبّ واقفًا ، واندفع نحو (بوشكا) ، التى تجمّدت قطرات الماء على وجهها الشاحب المزرق ، الذى خلا من كل دلائل الحياة ، وهتف وهو يلطم خديها فى رفق :

- (بوشكا) .. (بوشكا) .. استيقظى .

ولكنها ظلّت صامتة ساكنة ، فأسرع يقلبها على وجهها ، ويضغط جانب صدرها من الخلف فى قوة وحنكة ، فى محاولة لإنعاش رئتيها ، ودفع مركز تنفسها للعمل مرة أخرى .

ومضت نصف دقيقة ، بدت له أشبه بدهر كامل ، ثم سعلت (بوشكا) ..

ومع سعالها ، خفق قلبه فى ارتياح ..

وأفرغت (بوشكا) كل الماء المثلّج ، الذى استنشقته وبلعته ، عندما غاصت فى الفجوة ، وراحت تسعل وتسعل ، ثم هتفت فى إعياء وتهالك ..

ـ أين أنا ؟

ابتسم (أدهم) وهو يقول فى حنان :

ـ أنت هنا بخير حال .

قلبها على ظهرها ، لتستنشق الهواء النقى ، ولكنها عادت تسعل ، وهى تسبل جفنيها ، وقالت فى صوت أقرب إلى البكاء :

ـ إننى أشعر ببرد شديد للغاية .. أكاد أتجمّد من شدة البرد .. لماذا لم تشعلوا المدفأة .. إننى أموت بردًا .

كان يدرك جيدًا مدى الآلام ، التى تسبّبها لها تلك البرودة القارصة ، فهو نفسه ، بكل قوته وقدرته على الاحتمال ، كان يشعر بآلام شديدة فى أطرافه ، ويرتجف مع عضة البرد القاسية ..

وفى انهيار مرير ، بكت (بوشكا) ، وانكمشت قائلة :

ـ أشعلوا المدفأة .. أرجوكم .. أتوسّل إليكم ..

كانت الشمس قد اختفت فى الأفق ، وبدأت ساعات ليل الشتاء البارد الطويل ، ولكنه أقسم فيما بينه وبين نفسه ، أن يبذل قصارى جهده ، مهما كلّفه هذا ، حتى يمنحها بعض الدفء ..

وفى حماس ، اندفع نحو الأشجار القريبة ، وراح يقطع أغصانها

فى سرعة ، ويجمعها بذراعيه ، حتى تكوّنت لديه كومة كبيرة ، و ...

وفجأة تحجّرت كل مشاعره ..

تحجّرت مع مرآى تلك الأضواء الآتية من بعيد ..

أضواء توحى بأنه لا يواجه فرقة عادية هذه المرة ، وإنما يواجه جيشًا بأكمله .

جيشًا جرّارًا .

* * *

قرأ قائد المطار الفرعى التفويض الخاص ، الذى تحمله (ناديا) ، مرتين ، ثم طواه وأعاده إليها ، وهو يقول فى هدوء :

ـ أعتقد أن التفويض صحيح رسميًا ، أيتها النقيب (ناديا) ، ولكنك تطلبين هليوكوبتر حربية مسلحة ، تقودينها بنفسك ، وهذا أمر بالغ الخطورة ، ومسئولية مخيفة ، بالنسبة لرجل فى مثل منصبى ، وأعتقد أنه لن يغضبك أن أتصل بالجنرال (فاسيلوف) شخصيًا ؛ لأتأكد من صحة التفويض بشكل أكثر دقة .

لوّحت بأصابعها فى برود ، قائلة :

ـ لا مانع .. هذا أفضل ، ولكن أعطنى سيجارة أوّلًا .

ناولها سيجارة قصيرة مكتنزة ، فأشعلتها فى هدوء ، ونفثت دخانها ذا الرائحة النفّاذة فى عمق ، فى حين أدار هو قرص الهاتف ، وطلبَ التحدّث إلى الجنرال (فاسيلوف) شخصيًا ، ولم يكد يسمع صوته ، حتى قال فى احترام :

ـ معذرة للاتصال أيها الرفيق الجنرال ، ولكن هناك أمر أحب

التيقن منه .. هل منحت تفويضًا شاملًا للرفيق (ناديا مينوفيتشى) ؟.

اعتدل (فاسيلوف) خلف مكتبه ، وقال :

ـ نعم .. هذا صحيح .. إنه تفويض شامل عام ، يمنحها كل الصلاحيات الممكنة ، ويلزمك بالتعاون معها ، ومنحها كل ماتطلب .

قال الرجل فى حذر :

ـ مهما كان أيها الرفيق الجنرال ؟

أجابه فى حزم :

ـ نعم أيها الرفيق .. مهما كان .

ثم سأله فى لهفة :

ـ المهم .. هل الرفيق (ناديا) بصحبتك الآن ؟

قال الرجل فى دهشة لتلك اللهفة :

ـ نعم أيها الرفيق الجنرال .. إنها هنا .

قال (فاسيلوف) بنفس اللهفة :

ـ دعنى أتحدَّث إليها إذن .

ناول الرجل السمَّاعة إلى (ناديا) ، وهو يغمغم :

ـ الرفيق الجنرال يرغب فى التحدث إليك ، أيتها الرفيق (ناديا) .

التقطت منه سمَّاعة الهاتف ، ورمقته بنظرة حازمة صارمة ، فنهض من خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن .. إحم .. أن أعدَ الهليوكوبتر .

راقبته حتى غادر المكتب وأغلقه خلفه ، ثم وضعت السمَّاعة على

أذنها ، وقالت :

ـ رهن إشارتك ياسيِّدى الجنرال .

سألها (فاسيلوف) فى اهتمام :

ـ ما آخر الأخبار ؟.. ماذا حدث عندك ؟

أجابته فى لهجة حاسمة :

ـ الرجل ليس عاديًّا .. إنه يقاتل كفرقة حربية كاملة ، وأنا فى طريقى إليه الآن ، وسينتهى كل شىء على ما يرام .

سألها فى اهتمام :

ـ أأنت واثقة ؟

قالت فى حزم :

ـ اطمئن ياسيِّدى الجنرال .

قال فى صرامة :

ـ الأمر بالغ الخطورة يا (ناديا) .

كرَّرت فى ثقة :

ـ اطمئن .

تنهَّد وقال :

ـ أتمنى لك حظًّا سعيدًا .

أنهى المحادثة معها ، وتطلَّع فى صرامة إلى جهاز التصنت الصغير ، الذى كشف رجاله وجوده ، ثم التقط سمَّاعة الهاتف مرة أخرى ، وأدار رقم السفارة الإسرائيلية ، ثم أضاف إليه رقمًا زائدًا ، فسمع صوت (أندريه) يقول :

ـ (أندريه رابين) .. من المتحدِّث ؟

ابتسم (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ واصديقى (أندريه) .. عندى لك أخبار سارة .

سأله (أندريه) فى لهفة :

ـ ماهى ؟

قال (فاسيلوف) فى خبث :

ـ لا ياعزيزى (أندريه) .. من الخطأ أن ينقل المرء أسرارًا بهذه الخطورة ، عبر أسلاك الهاتف .. سلنى أنا .. اسمع .. إننى أنتظرك فى مكتبى .

هتف (أندريه) :

ـ سأحضر على الفور .

ابتسم الجنرال (فاسيلوف) ، وهو ينهى هذه المحادثة ، والتقط جهاز التصنت الصغير ، وهو يقول :

ـ صدقنى ياعزيزى (أندريه) .. إننى أنتظرك بالفعل على أحر من الجمر ، لتدفع الثمن .

ثم ابتسم فى سخرية ، مستطردًا :

ـ وهو ثمن عادل .. عادل للغاية ..

★ ★ ★

توقف (أدهم) لحظات يراقب الجيش الصغير ، الذى يتجه نحوه ، وهو يفكر فى الأمر بسرعة كبيرة ..

من الواضح أنهم يبحثون عنه بالذات ، فهم يقتفون الآثار ، على الأضواء الكاشفة ، ويفحصون كل شبر من الأرض ، ويحملون مدافعهم الآلية فى تحفز واضح .

وهناك وسيلة واحدة للإفلات منهم ..

التستر بالظلام ..

ولكن (بوشكا) تحتاج إلى التدفئة حتمًا ، وإلا لقيت مصرعها من شدة البرد ..

والوسيلة الوحيدة لديه لتدفئتها هى النيران ..

وفى مثل هذه الحالة ، يكون إشعال النيران أشبه بالانتحار ..

وعليه أن يتخذ القرار ..

إما أن يسعف (بوشكا) ، أو يفلت بعنقه من هذا الجيش الصغير ..

واتخذ (أدهم) قراره ..

وفى حزم ، واصل جمع الأغصان ، ثم اتجه بها حيث ترقد (بوشكا) ، ووضعها إلى جوارها ، ثم التقط قاذفة اللهب ، وأشعل بها النيران فى الأغصان ..

ومن بعيد ، هتف أحد الجنود :

ـ ها هو ذا .

توقف الجنود كلهم عن البحث ، عندما رأوا النيران ، واتجهوا كلهم فى حزم إليها ..

ولكن النيران اشتعلت بغتة فى مكان آخر .

وتوقف الجنود ، وراحوا ينقلون أبصارهم من نقطة إلى أخرى ، فقال قائدهم فى حزم ، وهو يشير إلى بقعتى النيران :

ـ انقسموا إلى فريقين ، وليذهب كل منهما إلى اتجاه ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، اشتعلت بقعة نيران ثالثة ، فهتف الرجل فى توتر :

ـ اللعنة !.. ماذا يحدث هنا بالضبط ؟

لم يكن أحدهم يعلم أن (أدهم) كان يعدو بأقصى سرعة ، من نقطة إلى أخرى ، فى مساحة واسعة ، ويشعل النيران فى أماكن متفرّقة ، ليشتّت انتباه الجيش الصغير وأفراده ..

كان يطبِّق ـ بمنتهى البساطة ـ تلك القاعدة الشهيرة ..

فرِّق تسد ..

ومع كل بؤرة نيران جديدة يُشعلها (أدهم) ، كان قائد الجيش الصغير يقسم جيشه ، إلى عدد أكبر من الفرق ، بقدر عدد بؤر النيران ، حتى صاح فى النهاية فى غضب :

ـ أى عبث شيطانى هذا ؟.. ذلك الرجل يسخر منا .

وفى نفس اللحظة ، التى نطق فيها هذه العبارة ، كان (أدهم) قد عاد إلى نفس النقطة ، التى ترك عندها (بوشكا) ، وكانت النيران التى أشعلها إلى جوارها قد خبت أو كادت ، فى حين لم تغيِّر هى من رقدتها ، وقد بدت وكأنها قد استسلمت لنوم عميق ، فانحنى إلى جوارها ، وهمس :

ـ (بوشكا) .. كيف حالك الآن ؟

فتحت عينيها فى ضعف ، وتطلَّعت إليه ، ثم قالت بصوت واهن متهالك :

ـ مازلت أشعر بالبرد .

ابتسم وهو يقول :

ـ ولكنك أفضل من الأوَّل .. هذا يبدو واضحًا .. لقد جفّت ملابسك

إلى حد ما .. أليس كذلك ؟

قالت وهى تسبل جفنيها مرة أخرى :

ـ لست أدرى .. أشعر وكأننى كتكوت سقط فى وعاء شرابه .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى انتبه (أدهم) إلى وقع أقدام فرقة من الجنود ، تقترب من موقعه ، فربَّت على كتف (بوشكا) فى حنان ، وقال :

ـ انتظرينى قليلًا ، ولا تقلقى .. سأتممَ عملًا صغيرًا ، وأعود إليك على الفور ، لنبتعد عن هذا المكان .

أومأت برأسها مستسلمة ، ثم استكانت مرة أخرى ، وكأنها استغرقت فى النوم ، فنهض هو بسرعة ، وابتعد عنها بقدر الإمكان ، وهو يستعد للعب دور جديد ..

كان كل هدفه هو أن يبعد الجنود عن موقعها ، ويقاتلهم بعيدًا عنها ، ليمنحها فرصة استعادة قوتها وصحتها ، قبل أن يستعد معها لبدء جولة جديدة من المطاردة ..

والمحاولة ..

ولكن رجال الفرقة الصغيرة ، المكوَّنة من خمسة عشر رجلًا ، كانت تتجه مباشرة إلى حيث ترقد (بوشكا) ..

لقد اختاروا بقعة النيران الخابية ، المجاورة لها ، كهدف أوَّل لهم ..

وفجأة ، هتف (أدهم) :

ـ من هنا أيها الأوغاد ؟

استدار خمسة عشر جنديًا دفعة واحدة إلى حيث هتف (أدهم) ،

ثم ارتفعت فوهات مدافعهم الآلية نحوه ، ولكنه انطلق يعدو فجأة مبتعدًا ، فصاح قائد الفرقة :

ـ خلفه يا رجال .

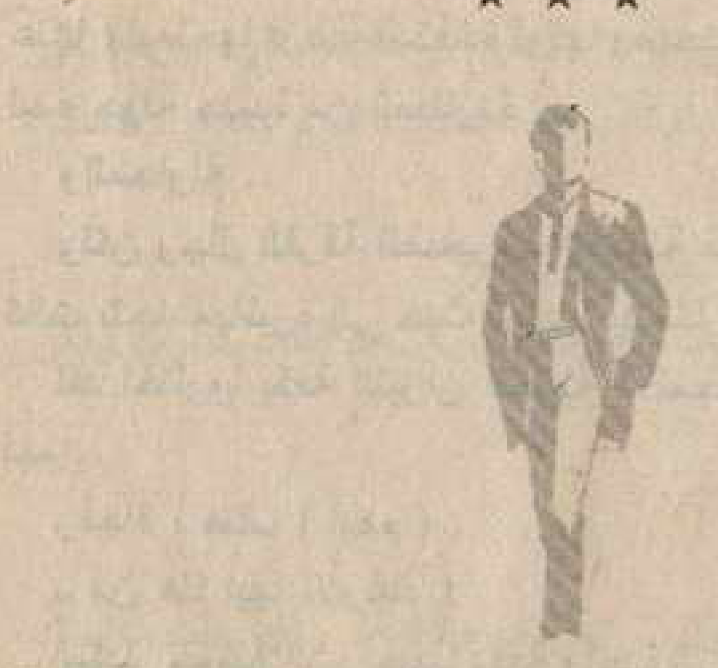
انطلقوا جميعًا خلف (أدهم) ، وهم يطلقون نيران مدافعهم الآلية ، ولكنه جرى فى خط متعرِّج ، حتى بلغ نقطة اختارها مسبقًا ، ثم توقف ، وانتزع من حزامه قنبلة يدوية واحدة ، واستدار يواجه الفرقة كلها ..

كان يواجه خمسة عشر رجلا ..

وبقنبلة ..

قنبلة واحدة .

★ ★ ★



٢٠ ـ رجل واحد ..

طرق النقيب (حازم) باب حجرة مدير المخابرات فى هدوء ، وانتظر حتى سمع هذا الأخير يقول فى صوت يحمل رنة شاردة :

ـ ادخل يا (حازم) .

دخل (حازم) إلى حجرة المدير ، وهو يقول :

ـ النقيب (حازم) فى خدمتك ياسيِّدى .. لقد حضرت فور أن ...

قاطعه المدير ، وهو يشير إلى المقعد المقابل لمكتبه :

ـ اجلس يا (حازم) .

سأله (حازم) فى اهتمام وهو يتخذ مجلسه :

ـ ماذا هناك ياسيِّدى ؟

شبك المدير أصابع كفيه أمام وجهه ، وظلَّ يتطلَّع إليه لحظة فى صمت ، ثم سأله :

ـ هل تعرف (أدهم صبرى) جيدًا ؟

هزَّ (حازم) كتفيه ، وقال :

ـ أعتقد هذا .

اعتدل المدير ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ماذا تفعل إذن لو كنت مكانه .. إلى أى مكان تذهب ؟

سأله (حازم) فى دهشة :

ـ لماذا هذا السؤال يا سيِّدى ؟!.. ألم يجتمع الخبراء ، و ...

قاطعه المدير :

- دعك من آراء الخبراء .. إننى أسألك عن (أدهم) بالذات ، وهو ليس شخصًا نمطيًا ، يمكنك أن تطبق عليه آراء المحترفين .. أليس كذلك ؟

أومأ (حازم) برأسه ، وقال :

- هذا صحيح تمامًا .

نهض المدير من خلف مكتبه ، وأشار إلى خريطة العالم الضخمة ، التى تحتل - تقريبًا - أحد جدران مكتبه ، وقال :

- صحيح أن المنطق يؤيِّد ذهابه إلى (لينينجراد) ، فى محاولة لعبور خليج (فنلندا) ، والفرار من (الاتحاد السوفيتى) ، ولكن الأعمال التى قام بها (أدهم) قديمًا ، تشير كلها إلى أنه لا يتبع الخط المنطقى فى معظم الأحيان ، وهذا ما يثير دهشة وتوتر خصومه دائمًا ، وهذا يعنى أنه لن يتجه حتمًا إلى حيث يتوقَّع الجميع .

ابتسم (حازم) ، وقال :

- إننى أشاركك هذا الرأى ياسيِّدى .

قال المدير :

- عظيم .. فى هذه الحالة ، أين تتوقَّع أن يذهب (أدهم) ؟

صمت (حازم) لحظات ، وهو يتطلَّع إلى الخريطة ، ثم أشار إلى (ستوكهولم) فى (السويد) ، وقال :

- هنا .

ابتسم المدير فى ارتياح ، وكأنما جاء اختيار (حازم) متفقًا معه فى الرأى ، ولكنه ، على الرغم من هذا ، سأله فى اهتمام :

- ولماذا (ستوكهولم) بالذات ؟

أجابه (حازم) :

- إنه يستطيع تغيير مساره إلى الغرب قليلًا ، ويتجه إلى (تالين) أو (أستونيا) ، ومنها يبحر مباشرة إلى (ستوكهولم) ، وهناك سيجد شقيقه .

قال المدير :

- الدكتور (أحمد صبرى) ؟!

قال (حازم) :

- نعم .. إنه طبيب شاب ، ولكنه حصل هناك على درجة علمية رفيعة ، فى جراحات المخ والأعصاب ، و (أدهم) يستطيع أن يتجه إليه مباشرة ، عند وصوله إلى هناك .

هزَّ المدير رأسه متفهِّمًا وموافقًا ، ثم عاد يتطلَّع إلى الخريطة ، وهو يقول :

- هذا ما توقَّعته بالضبط .. ارسل إذن برقية أخرى ، لمندوبنا فى (ستوكهولم) ، مثل تلك التى أرسلتها إلى رجلنا فى (هلسنكى) .. ولنستعد لاستقبال (أدهم) فى أى من العاصمتين .

وشرد ببصره لحظة ، ثم أضاف :

- هذا لو أنه ما يزال على قيد الحياة .

وكان المدير على حق ..

هذا لو أن (أدهم) ما يزال على قيد الحياة ..

لو ..

★ ★ ★

عندما رأى رجال الفرقة (أدهم) أمامهم ، يحمل قنبلة يدوية ،

ويهمّ بإلقائها نحوهم ، استعدّ كل منهم لتفادى انفجارها ، ومواصلة القتال والمطاردة ..

وألقى (أدهم) قنبلته ..

وأدهشهم أنه لم يلقها تجاههم مباشرة ، وإنما على بعد عدة أمتار منهم ، وتصوّروا أنهم يواجهون رجلًا لا خبرة له بالقنابل اليدوية واستخداماتها ، و ...

وانفجرت القنبلة ..

ومع انفجارها ، أدرك الرجال أنهم أخطئوا ..

إن غريمهم خبير باستخدام القنابل ..

بل هو داهية ..

لقد انفجرت القنبلة على بعد متر واحد ، فوق السطح المتجمّد للبحيرة ، التى قادهم إليها دون أن ينتبهوا ..

ومع الانفجار ، تشقّق الجليد كله دفعة واحدة ، وتحطّم ..

وسقط الجنود ..

سقطوا فى البحيرة المتجمّدة ، بكل الأسلحة والعتاد الذى يحملونه ..

وعندئذ ، نسى أفراد الفرقة (أدهم) ..

نسوا كل شىء إلا القتال من أجل أرواحهم ..

ولم ينتظر (أدهم) حتى يتذكّروه ..

لقد انطلق يشق طريقه وسط الأشجار والثلوج ، متفاديًا كل بؤر النيران التى أشعلها ، ليدور حولها كلها ، فى مناورة التفافية ذكية وبارعة ..

فصوت انفجار القنبلة وإطلاق النيران ، جذب الفرق الأخرى كلها إلى اتجاه البحيرة ، فى حين تحرّك هو نحو آخر فرق الجيش الصغير فى المؤخرة ..

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، انقض (أدهم) على آخر سيارة فى القافلة ..

كان هناك سائق وجندى واحد ، يجلسان فى مقصورة السيارة ، عندما هبط عليها (أدهم) بغتة ، وانتزع السائق من مقعده ، وهو يقول :

ـ نهاية الخط يا صاح .

وأعقب قوله بلكمة كالقنبلة ، هشمت أنف السائق ، وألقته فاقد الوعى ..

وبسرعة ، حاول الجندى الآخر أن يدير فوهة مدفعه الآلى تجاه (أدهم) ، ولكنه فوجئ بهذا الأخير ينتزع منه مدفعه كله ، وهو يقول :

ـ لا ياصديقى .. من الخطأ أن تلهو بالأسلحة النارية فى المساء .

وهوى بكعب المدفع على فك الجندى ، فأسقطه بدوره فاقد الوعى ، ثم انتزع معطفه وقبعته الرسميين ، وأبدلهما بمعطفه المبلّل ، ثم انتزع معطف السائق ، وهو يدير محرّك السيارة ، مغمغمًا فى سخرية ، ومستعيدًا علبة القائمة والميكروفيلم من معطفه :

ـ مرحى يا (بوشكا) .. لقد حصلت على معطف جديد .

وأطلق العنان للسيارة ، وهو يخترق صفوف الجنود ، هاتفًا بلغة روسية سليمة :

ـ تراجعوا جميعًا .. هناك أمر من القيادة بالانسحاب .

ترَدَّد الجنود ، وارتبكوا إزاء هذا النداء ، الذى لم يلبث أن بلغ قائدهم ، فعقد حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أمر بالانسحاب .. من قال هذا ؟.. ولماذا لم يتصل بى القائد الأعلى مباشرة ؟

هتف به (أدهم) ، وهو يبتعد بالسيارة ، متجهًا إلى حيث ترك (بوشكا) :

ـ إنه ليس اتصالًا لاسلكيًا .. لقد أرسلوا مندوبًا شخصيًا فى المؤخرة ..

ثم عاد يكرِّر الهتاف :

ـ تراجعوا .. انسحبوا .. تراجعوا .

توقَّف الجنود فى أماكنهم ، وقد أصابت الحيرة معظمهم ، فى حين انهمك البعض فى انتشال زملائهم من البحيرة المثلَّجة ، وقال القائد فى حدة :

ـ ما الذى يعنيه بالانسحاب الآن ؟.. إننا نكاد نضع أيدينا على الجاسوس .. دعونى أعُدْ إلى المؤخرة ، وألتقى بذلك المأفون ، الذى حمل الأمر .

قالها وعاد فى خطوات سريعة إلى المؤخرة ، ليلتقى بذلك المبعوث الوهمى ، فى حين أوقف (أدهم) السيارة إلى جوار (بوشكا) ، وهبط يحملها فى رفق ، ويضعها داخل الصندوق الخلفى ، وهى تقول فى ضعف :

ـ (ميرا) .. لاتنس (ميرا) .

التقط الكلبة ، ووضعها بين ذراعيها ، وهو يقول :

ـ اطمئنى .. ها هى ذى .

ثم ناولها معطف السائق ، وهو يقول :

ـ أبدلى بمعطفك المبتل هذا .

اعتدلت وكأنها استعادت نشاطها بغتة ، وأمسكت معطف السائق فى استنكار ، وهى تقول :

ـ هذا المعطف ؟!.. أنا (بوشكا) ، أرتدى هذه الأسمال .

زفر فى حنق ، وهو يغمغم :

ـ يا للنساء !!

وهنا نبحت (ميرا) فى وجهه بغضب ، وكأنها تعلن وقوفها مع سيِّدتها ضده ..

ومع نباحها ، التفت الجميع إلى السيارة فى دهشة ، وتوقَّف القائد ، قبل أن يواصل طريقه نحو المؤخرة ، واستدار بسرعة ، قائلًا :

ـ أهو صوت نباح ؟

وصاح أحد الجنود :

ـ هذا الرجل ليس أحد سائقينا .. إنه الجاسوس .

انعقد حاجبا القائد فى غضب ، وقد فهم الخدعة بغتة ، وصرخ :

ـ أوقفوا هذا الرجل .

انطلق كل الجنود يجرون نحو (أدهم) ، وهم يطلقون النار ، فوثب داخل مقصورة القيادة ، وهو يهتف بـ (بوشكا) :

ـ تشبثى أيتها الرفيق العنيدة ، فأمامنا رحلة جديدة .
وانطلق بالسيارة ، فصاح القائد :
ـ كل السيارات خلفه .
قفز الجنود إلى سياراتهم ، وصحبهم القائد ، و ...
وبدأت المطاردة من جديد .

★ ★ ★

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى الجنرال (فاسيلوف) ، وهو ينهض لاستقبال (أندريه) فى مكتبه ، قائلًا :
ـ مرحبًا يا صديقى (أندريه) .. كنت أخشى ألا تأتى .
ابتسم (أندريه) ، وهو يصافحه قائلًا :
ـ مستحيل ياعزيزى الجنرال .. كان الفضول سيقتلنى لو لم أفعل .
رفع (فاسيلوف) حاجبيه ، فى حركة مسرحية مصطنعة ، وهو يقول :
ـ حقًا ؟
اتخذ (أندريه) أحد المقاعد ، وهو يقول :
ـ ما الجديد لديك يا جنرال ، بشأن ذلك الجاسوس ؟
نهض (فاسيلوف) من خلف مكتبه ، وهو يقول :
ـ رويدك ياعزيزى (أندريه) .. فلنتناول كأسًا من (الفودكا) أوَّلًا ..
وصبَّ كأسين من (الفودكا) ، وهو يسأل (أندريه) :
ـ هل ترغب فى إضافة بعض الثلج ؟

هزَّ (أندريه) رأسه نفيًا ، وهو يقول :
ـ كلَّا .. يكفينى مايحيط بنا من ثلوج .
ناوله (فاسيلوف) كأسه ، وهو يقول :
ـ ولكن هذه الثلوج تختلف .. فالمشروبات المثلَّجة تبعث فى أجسادنا الدفء فى الشتاء(★) .
التقط (أندريه) كأسه ، وارتشف منه رشفة كبيرة ، وهو يقول :
ـ يكفينى دفء صداقتكم يا جنرال .
راقبه (فاسيلوف) وهو يرتشف كأسه ، وابتسم فى غموض ، قائلًا :
ـ أهذا ما تشعر به حقًّا يا عزيزى (أندريه) ؟
هتف (أندريه) فى حماس مصطنع :
ـ بالطبع يا جنرال .. هل تشكّ فى هذا ؟
اتسعت ابتسامة (فاسيلوف) ، وهو يعود ليستقر خلف مكتبه ، وجرع (أندريه) ما تبقَّى من كأسه ، ثم وضعه على المنضدة الصغيرة أمامه ، وهو يسأل فى اهتمام :
ـ والآن ما الجديد حول ذلك الجاسوس ؟
رمقه الجنرال بنظرة طويلة ، قبل أن يقول :
ـ ألا تعرف حقًّا يا (أندريه) ؟
ابتسم (أندريه) فى مكر ، وهو يقول :
ـ وكيف لى أن أعرف يا جنرال ؟

(★) حقيقة علمية ؛ فالمشروبات العادية المثلجة ، تؤدى إلى حدوث ارتجافة خاصة ، تبعث على الدفء .

فتح (فاسيلوف) درج مكتبه ، والتقط منه جهاز التصنت الصغير ، ورفعه أمام وجهه ، وهو يقول فى برود :

ـ بوساطة هذا الشىء ، الذى زرعته فى مكتبى ، ليمكنك التصنت على كل أحاديثى .. إنه يخصك .. أليس كذلك ؟

امتقع وجه (أندريه) لحظة ، وهمّ بقول شىء ما ، ولكن (فاسيلوف) أضاف فى سرعة :

ـ لاتحاول الإنكار ياعزيزى (أندريه) ، فقد وجدنا بصماتك عليه ، ثم إنه من نفس الطراز الذى تستخدمونه عادة .

نقل (أندريه) بصره لحظات ، مابين وجه (فاسيلوف) وجهاز التصنت ، ثم اعتدل فى مجلسه ، وعقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ فليكن يا جنرال .. أنا وضعته هنا .

ثم استدرك فى عصبية :

ـ وهذا ليس بالأمر العجيب .. كل الدول تسعى لهذا .. لاتوجد دولة لم تحاول التجسّس على دولة أخرى ، مهما بلغت درجة صداقتهما ، وأنت تعلم هذا .

هزّ (فاسيلوف) كتفيه ، وقال :

ـ بالتأكيد .. إنه عرف دولى .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا :

ـ ولكن لكل دولة أسلوبها ، فى الاعتراض على هذا ، أو الغضب منه .

وعاد يتراجع فى مقعده ، وهو يلوّح بكفه ، مستطردًا :

ـ نحن أيضًا نستخدم أسلوب التصنت والتجسس .. خذ سفارة

دولتك مثلًا .. لو أنك فتشتها ، فستجد جهازين للتصنت ، أحدهما فى حجرة السفير ، والأخرى فى حجرة المستشار العسكرى .. إنه أمر حتمى كما قلت .

هتف (أندريه) :

ـ أرأيت ؟

ثم انعقد حاجباه بغتة ، مع ذلك الدوار ، الذى شعر به ، وهو يقول فى توتر :

ـ ولكن .. لماذا تخبرنى بهذا يا جنرال ؟.. ما الذى يعنيه كشفك لهذا السر ؟

ابتسم (فاسيلوف) ، وهو يعتدل ، ويستند بمرفقيه إلى سطح مكتبه ، ثم يضغط زرّ سكرتيره الخاص ، وهو يقول :

ـ يعنى أنه لم يعد من الخطر أن تعلم ياعزيزى (أندريه) ، لأنك لن تحيا حتى تخبر الآخرين .

اتسعت عينا (أندريه) فى ذعر ، وهو يقول :

ـ جنرال (فاسيلوف) .. لايمكنك أن ...

أشار إليه (فاسيلوف) بالصمت ، وهو يقاطعه قائلًا :

ـ لايوجد مالا يمكننى فعله ياعزيزى (أندريه) .. أعلم أنك تحمل جواز سفر أحمر ، ولكنك لست أحد العاملين الرسميين بالسفارة .. ثم إننا لن نقتلك بوسيلة تقليدية سخيفة .. سيكون مصرعك فى شكل حادث عرضى تمامًا .. مجرّد أزمة قلبية ، وأنت تقود سيارتك .

بدأ (أندريه) يشعر بألم فى كتفه وذراعه اليسرى ، وتلاحقت أنفاسه على نحو عجيب ، وهو يقول :

- ولكن .. ولكن كيف ؟

هزّ (فاسيلوف) كتفيه ، وقال :

- كأس (الفودكا) الذى شربته الآن .

جحظت عينا (أندريه) ، وهو يقول :

- ولكنك .. ولكنك شربت من الزجاجة نفسها .

ابتسم (فاسيلوف) فى شىء من الزهو ، وهو يقول :

- ليس الزجاجة ، ولكن الكأس .. لقد طليناها بعقار خاص ، يذوب فى الكحول ، ويتحوّل إلى مادة تتسبب فى حدوث أزمات قلبية قاتلة ، ولا يمكن كشف وجودها فى الدم .. وعندما جفّت الكأس ، لم يعد هناك أثر للعقار ، حتى أضفنا إليه قليلًا من (الفودكا) .

وأطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يستطرد :

- فكرة عبقرية .. أليس كذلك ؟

أمسك (أندريه) صدره بيده ، وهو يحاول النهوض ، قائلًا :

- أيها الوغد الحقير الـ ...

بتر عبارته بغتة ، واحتقن وجهه فى شدة ، ثم ترنّح ، وهوى جثة هامدة .. وفى هدوء ، تحرّك (سباسكى) ، الذى كان يقف صامتًا عند الباب ، منذ استدعاه (فاسيلوف) ، وانحنى يفحص نبض (أندريه) ، ثم نهض قائلًا فى هدوء :

- لقد مات .

مطّ (فاسيلوف) شفتيه ، وقال :

- مسكين .. كان ينبغى أن يهتمّ أكثر بقلبه المريض .. ولكنه قدره .. هيّا .. انقلوه إلى سيارته ، ونفذوا الخطة التى وضعناها .

وتنهّد فى ارتياح ، ثم تراجع فى مقعده ، واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

- والآن لم يتبق لنا سوى ذلك الجاسوس ، وبعدها نكون قد ربحنا اللعبة .

وتألّقت عيناه ، وهو يضيف فى حزم :

كلها ...

★ ★ ★

انطلق (أدهم) بالسيارة فى قلب الثلوج ، بأقصى سرعة ممكنة ، وخلفه ثلاث سيارات مكتظة بالجنود ..

وتطايرت الرصاصات من حول السيارة ، وأصابت جسمها فى مواضع شتى ، إلا أن (أدهم) كان يناور بمهارة مدهشة ، أثارت ذهول خصومه ، وهم يبذلون قصارى جهدهم للحاق به ..

وكان الجليد زلقًا كثيفًا ، ولكنه لم يحاول التخفيف من سرعته، بل سيطر على عجلة القيادة فى قوة ، واتجه مباشرة نحو منطقة تكاثفت عندها الأشجار ، فهتف قائد الجنود فى دهشة :

- أى جنون هذا .. إنه ينتحر .

صاح أحد الجنود :

- ينبغى أن نمنعه من بلوغها .

هتف القائد :

- فليكن .. أطلقوا صواريخكم .

كان هذا الأمر يسعدهم كثيرًا ، فهو يمنحهم حق القتال بأقصى إمكانية متوفرة ، وأحدث ما أضافه الخبراء السوفيت إلى السيارات نصف المصفحة ..

الصواريخ ..

وانطلقت ثلاثة صواريخ خلف سيارة (أدهم) ، ولكن المسار المتعرّج ، الذى يتخذه هذا الأخير ، جعل أحد الصواريخ الثلاثة ينفجر إلى يمينه ، على مسافة مترين ، فى حين انفجر الصاروخ الثانى خلفه بمتر واحد .

أما الثالث ، فقد أصاب الهدف إلى حد ما ..

أصاب الجزء الأيمن من مقصورة القيادة ، وانتزع رفرفها فى عنف ، ثم انفجر أمام السيارة بمترين فحسب ، حتى أن شظاياه ارتطمت بالزجاج الأمامى لها ، وأحدثت إصابات واضحة فيه ، فعقد (أدهم) حاجبيه ، وقال :

ـ إذن فقد انتقلنا إلى مرحلة القتال بالصواريخ .

وألقى نظرة فاحصة سريعة على لوحة القيادة ، ثم ابتسم فى سخرية ، قائلًا :

ـ عظيم .. هذه السيارة أيضًا تحمل صاروخين .

وضغط الفرامل بغتة ، وهو يستطرد :

ـ لماذا لانشترك فى القتال إيجابيًا إذن ؟!

وأدار عجلة القيادة إلى اليمين فى قوة ، مع ضغطة الفرامل ، فدارت السيارة حول نفسها فى عنف ، وأصبحت فجأة تواجه السيارات الثلاثة المطاردة ، التى أصيب سائقوها بالدهشة والجزع ، فهتف أحدهم :

ـ ما هذا بالضبط ؟

وصاح الثانى :

ـ هل أصيب الرجل بالجنون ؟

أما قائدهم وحده ، فقد أدرك مايحاوله (أدهم) ، وصاح برجاله :

ـ تفرّقوا .. إنه ...

ولكن (أدهم) ضغط زرّ الإطلاق ، قبل أن يتمّ القائد صيحته ..

وانطلق الصاروخ ..

ودوى الانفجار ..

انفجرت واحدة من السيارات الثلاث فى عنف ، فى حين انفصلت السيارتان الأخريان عن بعضهما ، وصرخ القائد داخل إحداهما :

ـ أطلقوا الصاروخ الثانى .

وفى نفس اللحظة ، مرقت سيارة (أدهم) بين السيارتين ، اللتين استدارتا لتواجهاه مرة ثانية ، ولكنه لم يكد يبتعد عدة أمتار ، حتى عاد يستدير لمواجهتهما ..

وانطلق صاروخ من كل سيارة ..

واحد من سيارة (أدهم) ، وصاروخين من سيارتى الجيش ..

وانحرف (أدهم) جانبًا ، وتجاوزه أحد الصاروخين ، فى حين أصاب صاروخه سيارة القائد ، ونسفها نسفًا ..

أما صاروخ الجيش الثانى ، فقد لحق بسيارة (أدهم) ، وارتطم بصندوقها الخلفى ..

وانفجر ..

وسمع (أدهم) دوى الانفجار من خلفه ، يمتزج بصرخة

(بوشكا) ، ونباح (ميرا) ، وشعر بالسيارة تقفز إلى الأمام ، وتكاد تنقلب رأسًا على عقب ، فبذل جهدًا خرافيًا للسيطرة عليها ، وهو يهتف :

- (بوشكا) .. أأنت بخير ؟.

صاحت به من الداخل :

- لقد تحطم جانب من هذا الصندوق .. أمامى فجوة مخيفة ، ولكننى و (ميرا) بخير .. اطمئن .

تنفس الصعداء لنجاتهما ، وأولى اهتمامه إلى السيارة الثالثة والأخيرة ، التى برز منها خمسة من الجنود ، راحوا يطلقون النيران نحوه فى غضب وحشى شرس ..

وفى نفس اللحظة ، برز ما قلب الأمور رأسًا على عقب ..

لقد ارتفعت فى السماء طائرة هليوكوبتر حربية ..

هليوكوبتر تقودها (ناديا مينوفيتشى) ..

ومن اللحظة الأولى ، أدركت (ناديا) أن (أدهم) يقود تلك السيارة ، التى تناور فى مهارة مدهشة ، فانقضت عليها مباشرة ، و ...

وتضاعف الخطر .

★ ★ ★



٢١ - الصواريخ ..

شبك الرئيس السوفيتى أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يراقب هاتفه فى شرود ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وهو يغمغم :

- لا .. لايمكن التهاون فى هذا .

سأله وزير الدفاع ، الذى يراقبه فى صمت ، منذ ربع ساعة كاملة :

- أى إجراء تنوى اتخاذه ، أيها الرفيق الرئيس ؟

التفت إليه الرئيس ، وقال :

- مازلت لا أجد أى تفسير منطقى ، لوجود قائمة كاملة بأسماء عملائنا فى (مصر) ، مع أفلام (ميكروفيلم) تحوى صورهم جميعًا ، فى مكتب (فاسيلوف) ، فى لحظة نادرة ، يتصادف أن يقتحم فيها جاسوس أجنبى ، لأول مرة فى تاريخنا ، مبنى الـ (كى . جى . بى) ، الذى لايجرؤ سوفيتى واحد على العبور أمامه .. ثم يختطف ذلك الجاسوس القائمة وأفلام (الميكروفيلم) ، وينجح فى الفرار من المبنى الحصين ، وكأنه يعبر أسوار مدرسة ثانوية نائية .. وبعدها يسند (فاسيلوف) مهمة مطاردة ذلك الجاسوس إلى حارسته الخاصة .. هل تدرى كم من الأخطاء فى كل هذا أيها الرفيق الوزير ؟

مط الوزير شفتيه ، وقال :

- هناك أخطاء تكفى لإعدام فرقة حربية كاملة .

لوَّح الرئيس بكفه ، وهو يقول فى حدة :
- ثم أن القصة كلها لاتبدو لى منطقية .
وافقه الوزير بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :
- إنها تبدو أشبه بفيلم من الأفلام الهزلية الأمريكية ، التى تسخر من رجال مخابراتنا .. أكاد أقسم إن كل هذا ملفق .
قال الرئيس فى حزم :
- أنا أشاركك هذا الرأى .
ثم مال نحوه ، مستطردًا فى اهتمام :
- ولكن ما الذى تقترحه فى هذا الشأن ؟
أجابه الوزير بلا تردّد :
- (فاسيلوف) يحتلّ منصبًا شديد الخطورة والحساسية ، ولا يصح أبدًا أن تحيط به ذرة واحدة من الشك .
هزَّ الرئيس رأسه ، وقال :
- أنت على حق .
وأشار بسبَّابته أمام وجهه ، وهو يتابع :
- ولكن عزل مدير المخابرات أيضًا ليس بالقرار الهين .. أليس كذلك ؟
قال الوزير :
- بالتأكيد .. لابد من دليل قوى .. لن تقبل اللجنة المركزية بأقل من هذا .
قال الرئيس فى حسم :
- يمكنك أن تقول : إننى أمتلك مثل هذا الدليل .

اعتدل الوزير فى مقعده ، وهو يقول :
- حقًّا ؟!.. وماذا تنتظر إذن ؟.. أصدر أمرًا باعتقاله على الفور .
هزَّ الرئيس رأسه نفيًا ، وقال :
- لا .. ليس الآن .
وأسند ظهره كله إلى مسند مقعده ، وشرد ببصره مرة أخرى ، قبل أن يتابع :
- إننى أنتظر النهاية ، فهى وحدها ستحدّد قوة هذا الدليل .
وأطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يستطرد :
- وسيدهشك أيها الرفيق الوزير ، أن مصير (فاسيلوف) وحارسته الخاصة أصبح يتعلّق الآن بآخر شخص يمكنك أن تتصوَّره .. بالجاسوس .. الجاسوس الهارب نفسه .
وعقد الوزير حاجبيه ، وهو يتطلّع إليه فى حيرة ، وقد بدت له ابتسامته غامضة ..
غامضة جدًا ..

★ ★ ★

لم يكد بصر (ناديا) يقع على السيارة الحربية ، التى يقودها (أدهم) وسط الثلوج ، حتى تفجَّر فى أعماقها كل الغضب والثورة الكامنين ، منذ مواجهتها الأولى معه ، وانقضت على السيارة فى شراسة وحشية ، وراحت تمطرها برصاصات الهليوكوبتر بلا هوادة ..
ومال (أدهم) بالسيارة يمنة ويسارًا ، متفاديًا الرصاصات والسيارة الأخرى ، ولكن الكثير من الرصاصات ارتطم بجسم سيارته ، وجعل (بوشكا) تصرخ ، وتصرخ ، وتصرخ ..

ثم ضغطت (ناديا) أزرار الاستعداد لإطلاق أحد صاروخى الهليوكوبتر ، وهى تهتف :

ـ أقسم أن أسحقك هذه المرة ، أيها الجاسوس القذر .

ولكن (أدهم) واصل انطلاقته ومراوغته ، متجهًا نحو منطقة الأشجار الكثيفة ، التى رأى فيها الأمل الوحيد فى النجاة ، من هليوكوبتر (ناديا) ..

وفى إصرار ، طاردته السيارة الأخرى ..

وأطلقت (ناديا) صاروخها ..

وكان الصاروخ مصوبًا نحو سيارة (أدهم) تمامًا ، إلا أن هذا الأخير نجح فى الانحراف يسارًا ، فى اللحظة الأخيرة ، ورأى الصاروخ يمرق إلى جواره ، وينفجر بين الأشجار ..

وهنا ضغط (أدهم) دوّاسة الوقود بكل قوته ، حتى بلغ منطقة الأشجار المتشابكة ، ولحقت به السيارة الأخرى ، التى تطارده فى إصرار ..

وصرخت (ناديا) ، عندما رأتهما يختفيان وسط الأشجار :

ـ لا .. لن أسمح له بالفرار هذه المرة أيضًا .

حاولت إطلاق رصاصاتها ، ولكن السيارتين اختفتا وسط الأشجار ، فهتفت :

ـ اللعنة !

ثم زادت من سرعة الهليوكوبتر ، حتى تجاوزت منطقة الأشجار ، واستدارت تنتظر خروج (أدهم) منها ، لتقصف سيارته بصاروخها الثانى ...

أما (أدهم) ، فقد انطلق بين الأشجار ، فى مهارة مدهشة ، وهو يحاور ويناور السيارة المطاردة ، التى أفرغ ركّابها كل غضبهم وثورتهم عليه ، عبر فوهات مدافعهم الآلية ، فى شكل سيل من الرصاصات ، راحت ترتطم بجسم السيارة ، وجدرانها الداخلية والخارجية ، فهتفت (بوشكا) فى خوف وعصبية :

ـ ماذا ستفعل هذه المرة ؟

سألها فى سخرية :

ـ ماذا تقترحين ؟

صاحت محنقة :

ـ كيف يمكنك أن تسخر ، فى مثل هذه الظروف ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ ألديك وسيلة أخرى ؟

ثم انحرف فجأة بالسيارة ، وانطلق عبر شجرتين كبيرتين ، ففقدت توازنها ، وارتطمت بالجدار الداخلى للسيارة ، وصاحت غاضبة :

ـ احترس .. كدت تقتلنى .

عبرت بعض الرصاصات الجزء المحطّم من جانب الصندوق ، وارتطمت بالجدار الداخلى ، على قيد سنتيمترات منها ، فصرخت فى رعب ، وقال (أدهم) :

ـ حسن .. لن أقتلك أنا .. سأتوقف وأترك هذه المهمة لهم .

صاحت :

- لا .. لا .. انطلق بأقصى سرعة .. لاتتوقف .

انحرفت السيارة الأخرى خلفه ، ولكن جانبها ارتطم بإحدى الشجرتين فى عنف ، قبل أن تعبرهما وتواصل المطاردة ، و (أدهم) يدور حول الأشجار ، ويناور فى مهارة مدهشة ..

وفى الخارج ، كانت (ناديا) تنتظر بالهليوكوبتر ، وسبابتها متحفزة ، فوق زرّ إطلاق الصاروخ ، وهى تغمغم :

- هيا أيها الجاسوس .. اخرج من تلك المتاهة .. إننى أنتظرك .

لم تكن تحتمل الانتظار هذه المرة ، على الرغم من طبيعتها الباردة المتأنية ، فراحت تدور بالهليوكوبتر فى دوائر قريبة ضيقة ..

ثم فجأة ، تحفزت عضلاتها كلها ، وتألقت عيناها ببريق ظافر عجيب ..

لقد شاهدت سيارة تندفع خارج الأشجار ، وخلفها أخرى تطاردها ، فتخلت عن برودها الشهير ، وصرخت فى فرح جنونى :

- مرحبًا أيها الجاسوس .. خذها من (ناديا) .

وضغطت زرّ الإطلاق بكل قوتها ..

وانطلق الصاروخ ..

وفى هذه المرة ، أصاب صاروخها هدفه تمامًا ، و ...

وانفجرت السيارة .

★ ★ ★

تطلع (إيزاك) إلى ساعته فى اهتمام ، وهو يقف فى انتظار قيام طائرة الخطوط السوفيتية ، المسافرة إلى (ستوكهولم) ، وراح يزفر فى قلق ، ويلتقط أنفاسه فى عصبية ، وهو يغمغم :

- لماذا تأخر إقلاع هذه الطائرة اللعينة ؟.. تبًا لشركة الطيران الشيوعية السخيفة هذه .. إنهم يضيعون وقتًا ثمينًا .

زفر مرة أخرى ، ثم راح يسترجع آخر كلمات (أندريه) :

- لقد أعدت دراسة الموقف كله مرة ثانية يا (إيزاك) ، ووجدت أنه ليس من المنطقى ، فى ظل هذه الظروف ، أن يواصل ذلك الجاسوس طريقه إلى (لينينجراد) ، فى محاولة لعبور خليج (فنلندا) .. إنه ليس غبيًا ، حتى يتخذ خطوة يتوقعها الجميع .. لقد أصبح هذا الاتجاه محفوفًا بمخاطر لاحصر لها ، بعد أن أدرك الجميع وجهته ، ومن المحتم أنهم سيحيطون (لينينجراد) والخليج كله بسوار فولاذى من الأمن ، تعجز فرقة حربية كاملة عن اختراقه .. المنطق إذن يقول : إنه سيتخذ طريقًا آخر .. ولهذا الطريق الآخر شروط أيضًا ، فهو لن يتجه إلى منطقة بعيدة ، حتى لايتعرض للمزيد من المخاطر ، داخل الأراضى السوفيتية ، بل سيختار منطقة أخرى فى الشمال .. وأفضل مكان يتجه إليه فى رأيى ، هو (ستوكهولم) .. أو أى مكان آخر فى (السويد) .. ولهذا أريد منك أن تستقل أول طائرة إلى هناك يا (إيزاك) ، وأن تنتظره حيث لايتوقع .. إننا سنسبق الجميع كالمعتاد يافتى ، وعندما تحين لحظة النهاية ، سنكون نحن من ينزل الستار ..

ترددت هذه الكلمات الأخيرة فى ذهن (إيزاك) ، وهو يتطلع إلى لوحة المواعيد الضخمة فى المطار ، والتى تعلن عن تأخر موعد إقلاع الطائرة ، لأسباب لم تعلن بعد ، وكرر فى حنق :

- تبًا لهم .

لم يكد يتم كلمته ، حتى شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع صوت خشن يقول :

ـ أأنت (إيزاك) .. من السفارة الإسرائيلية ؟

التفت فى سرعة إلى مصدر الصوت ، ورأى أمامه رجلين ضخمى الجثة ، تبدو ملامحهما غليظة صارمة ، وكل منهما يرتد معطفا أزرق داكنا ، فقال فى توتر :

ـ نعم .. أنا (إيزاك) .

ثم استدرك فى حدة :

ـ ولكننى أحمل جواز سفر دبلوماسيًا ، ولا يحق لكما أن ...

قاطعه أحدهما فى غلظة :

ـ نريد أن نتحدث إليك فحسب .

قال فى عصبية :

ـ بشأن ماذا ؟

أجابه الثانى :

ـ مجرد أسئلة عادية .. هل تصحبنا إلى الخارج قليلًا ؟

قال فى حدة :

ـ مستحيل !.. ستقلع طائرتى بعد ..

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ اطمئن .. لقد أجلنا إقلاعها من أجلك .

تطلع إليهما فى قلق شديد ، وتحسس مسدسه بحركة غريزية ، ولكن أحد الرجلين قال فى قسوة :

ـ هيا أيها الرفيق (إيزاك) .

دفعاه فى قوة إلى الخارج ، وما إن وصلا إلى سيارتهما ، حتى جذبه أحدهم بحركة مباغتة ، وانتزع المسدس من جيب معطفه ، فهتف (إيزاك) معترضًا :

ـ هذا المسدس مرخص ، ومن حقى أن ..

هوى الثانى على فكه بلكمة كالقنبلة ، قبل أن يدفعه داخل السيارة ، قائلًا :

ـ اصمت :

حاول (إيزاك) أن يقاوم ، إلا أن رجلًا ثالثًا استقبله داخل السيارة بضربة عنيفة على مؤخرة رأسه ، جعلته يفقد الوعى على الفور ..

ولم يدر (إيزاك) كم ظل فاقد الوعى بالضبط ، ولكنه استعاد وعيه وجسده يرتطم بالجليد فى منطقة مظلمة ، لا ينبعث فيها إلا ضوء مصباحى السيارة ، وحاول أن ينهض ، ولكنه لاحظ أنه مقيد الذراعين خلف ظهره ، وهناك شىء ثقيل معلق بقدميه ، فهتف :

ـ ماذا ستفعلون بى ؟

أجابه أحدهم فى برود :

ـ لقد سئم الرفيق الجنرال (فاسيلوف) تدخلك أنت ورئيسك فى شئوننا الداخلية ؛ لذا فقد قرر إنهاء خدمتكما فى السفارة الإسرائيلية .

هتف (إيزاك) :

ـ ليس هذا من حقه .

تبادل الرجال الثلاثة ، نظرة ساخرة ، وقال أحدهم :

ـ لقد انتهى أمر رئيسك بالفعل ، أما بالنسبة إليك ، فلن نحرمك

القيام بالرحلة ، ولكننا غيرنا خط السير فحسب .. إنك لن تسافر إلى (ستوكهولم) .

وحمله آخر ، وهو يضيف :

ـ بل إلى الجحيم .

انتبه (إيزاك) ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى أن قدميه مقيدتان بسلسلة حديدية إلى حجر ضخم ثقيل ، وأن أمامه فجوة كبيرة فى الجليد ، تبدو منها مياه البحيرة الباردة الثلج ، فصرخ :

ـ ليس هذا من حقكم .. أنا أحمل جواز سفر أحمر .. إننى ...

ولكن الرجل لم يمنحه فرصة إتمام عبارته ..

لقد ألقاه داخل الفجوة .

وارتطم جسد (إيزاك) بالماء المثلَّج ، وأراد أن يصرخ أو يقاوم ..

ولكن هيهات ..

لقد جذبه الحجر الثقيل ، المعلَّق بقدميه ، إلى أعماق البحيرة ، لتبدأ رحلته الأخيرة ..

رحلة الجحيم ..

★ ★ ★

انفجرت السيارة بدوى عنيف وسط الجليد ، أثر إصابتها بالصاروخ ، واشتعلت فيها النيران ، وهى تنقلب ، وتنزلق قليلًا ، ثم تستقر كأتون مشتعل ، فى حين تفادت السيارة التالية ذلك الانفجار ، وتوقفت على قيد أمتار قليلة من السيارة المقلوبة المشتعلة ..

وفى فرحة ظافرة عارمة ، أطلقت (ناديا) صرخة :



انتبه (إيزاك) ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى أن قدميه مقيدتان بسلسلة حديدية إلى حجر ضخم ثقيل ، وأن أمامه فجوة كبيرة فى الجليد ..

- انتصرت .. قتلتك أيها الجاسوس .

ودارت بالهليوكوبتر دورة واسعة ، أشبه بدورة نسر ظافر ، نال على التو فريسة دسمة سمينة ، وأخذت تطلق ضحكات هستيرية قوية ، وهى تلوّح بقبضتها فى نشوة ، ورأت قائد السيارة الأخرى يشير إليها بسبّابته ووسطاه علامة النصر ، فدارت دورة أخرى ، ثم هبطت بالهليوكوبتر بين السيارتين ..

كانت شديدة الشغف لرؤية ما تبقى من جسد (أدهم) ، بعد أن التهمته النيران ، فلم تكد الهليوكوبتر تستقر على الأرض ، حتى حلّت حزام مقعدها ، وانطلقت تعدو نحو السيارة المحترقة ، ووقفت أمامها ترتجف فى انفعال ..

ولكن فجأة ، انتبهت إلى أمر عجيب ..

لم تكن هناك جثة واحدة محترقة فحسب ..

بل كانت هناك عدة جثث ..

ومن خلفها ، سمعت وقع خطوات تعدو نحوها ..

وفهمت (ناديا) الأمر كله دفعه واحدة ، فانتزعت مسدسها فى سرعة ، واستدارت إلى حيث وقع الأقدام ، صارخة :

- لا .. مستحيل !

وبوثبة رائعة ، ركل (أدهم) مسدسها ، وأطاح به بعيدًا ..

وتراجعت (ناديا) كالمصعوقة ، وهى تهتف :

- مستحيل !.. إذن فقد أطلقت النار على السيارة الخطأ .

رأت (بوشكا) تغادر السيارة الأخرى من بعيد ، وهى تحمل (ميرا) ، فى حين قال (أدهم) فى سخرية :

- بل أطلقت صاروخك على السيارة الأولى دون تفكير ، ياعزيزتى الرفيق (ناديا) .. وكنت أعلم هذا ؛ لذا فقد خدعت السيارة الأخرى ، ودرت حولها دورة واسعة ، لأطلق النار على مؤخرتها ، كما يفعلون فى معارك الطائرات ، قبل أن نغادر منطقة الأشجار المتشابكة تمامًا .. ورأيته أنت سيارة تغادر منطقة الأشجار ، وخلفها أخرى ، فتصوّرت تلقائيًا أن الأولى هى التى أقودها أنا ، ونسفتها على الفور .

انعقد حاجباها فى غضب ، وهو يستطرد :

- وهكذا نجحت أنا فى خداعك ، وجعلت منك أداة لتخليصى من مطاردىّ .

صرخت فى ثورة :

- هذا لا يعنى أنك انتصرت .

قالتها وانقضت عليه فى شراسة ..

واشتبك الاثنان فى قتال عنيف ..

والعجيب أن (ناديا) كانت قوية بالفعل ، تقاتل فى مهارة وحنكة وشراسة ، وعضلاتها لا تقل قوة عن عضلات مقاتل صنديد ..

إلا أن هذا لا يقارن بقوة (أدهم) ومهارته ..

وخصوصًا فى اشتباك فردى ..

لقد قاتلت (ناديا) بكل غضبها وثورتها وقوتها ، إلا أنها وجدت نفسها أخيراً بين ذراعى (أدهم) ، الذى يقول فى سخرية :

- لا ياعزيزتى الرفيق (ناديا) .. ينبغى أن تتضاعف قوتك مرتين على الأقل ، حتى يمكنك هزيمتى فى قتال يدوى مباشر .

قاومته فى شراسة وحشية ، وهى تصرخ :

ـ لا .. لايمكننى السماح لك بالانتصار .

جذبها فى قوة إلى السيارة ، ثم قيد معصميها بحبل غليظ ، ودفعها داخل مقصورة القيادة ، وهو يقول :

ـ ومن ينتظر موافقتك .

صاحت فى غضب :

ـ إنك لن تذهب بعيدًا .. سيطاردونك بكل قوتهم .

هز كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

ـ دعيهم يفعلون لايمكننى أبدًا حرمانهم من لعبتهم الأثيرة .. ولكننى سأبدل وسيلة المواصلات فحسب .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول :

ـ ماذا تعنى ؟

ابتسم وهو يشير إلى الهليوكوبتر ، قائلًا :

ـ الهليوكوبتر .. هل نسيت أنك أهديتنى واحدة ؟

شعرت بسخط هائل فى أعماقها ، وقالت :

ـ لن تذهب بها بعيدًا .. إننا نعرف وجهتك ، ولن نسمح لك ببلوغها .

مال نحوها ، قائلًا :

ـ لذا فسأبدل وجهتى هذه يأعزيزتى .. إننى لن أذهب إلى (فنلندا) .. ولن أتجه أبدًا إلى (لينينجراد) .. بل سأنطلق على الفور إلى (أستونيا) ، ثم أعبر البحر البلطى إلى (ستوكهولم) .. خط سير بسيط ومباشر ، ويوصلنى إلى منطقة آمنة .. أليس كذلك ؟

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تتطلع إليه غاضبة ساخطة ، ثم رفعت عينيها إلى نقطة ماخلف ظهره ، فالتفت ليرى ما تتطلع إليه ، ورأى (بوشكا) تقترب منهما فى بطء ، وهى تحمل (ميرا) ، وأدهشه تلك النظرة العجيبة ، التى تنظر بها (بوشكا) إلى (ناديا) ، واستدار إلى تلك الأخيرة ، ورأى نظرة مفعمة بالكراهية تطل من عينيها ، قبل أن تقول (بوشكا) فى صوت بارد :

ـ أهلًا يا (ناديا) .

مطت (ناديا) شفتيها ، وقالت فى مقت واضح :

ـ أما زلت تتحدثين مثل الرأسماليات يا (بوشكا) ؟

عقد (أدهم) ساعديه أمام صدره ، وهو يقول :

ـ هل تعرف إحداكما الأخرى ؟

مضت لحظة من الصمت ، وكل منهما تتطلع إلى الأخرى ، ثم أجابت (بوشكا) :

ـ نعم .. وأكثر مما تتوقع .

وأشاحت (ناديا) بوجهها ، قبل أن تضيف (بوشكا) فى توتر :

ـ (ناديا) هى شقيقتى .

واتسعت عينا (أدهم) ، من فرط المفاجأة .

* * *



٢٢ ـ المرحلة الأخيرة ..

نقر مدير المخابرات المصرية على سطح مكتبه فى توتر ، وهو يرفع عينيه إلى (حازم) ، ويسأله فى اهتمام :

ـ هل أعددت كل شىء ؟

أومأ (حازم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم ياسيدى .. لقد اتصلت بسفارتينا ، فى (هلسنكى) و (ستوكهولم) ، وستقوم كل منهما باتخاذ الإجراءات اللازمة ، لاستقبال (أدهم) فور وصوله إلى أى من العاصمتين ، وتأمين سلامته ، وإرسال ما لديه بأقصى سرعة إلينا .

تنهد المدير ، وقال :

ـ عظيم .. لم يبق أمامنا إذن سوى الانتظار .

قال (حازم) :

ـ المهم أن السوفيت لم يعلنوا إلقاء القبض عليه ، أو التخلص منه بعد ، وهذه علامة جيدة ، فهى تعنى أنه ما يزال الفائز حتى الآن .

غمغم المدير :

ـ المهم أن يربح فى النهاية .

قال (حازم) :

ـ (أدهم) ليس بالخصم الهين .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ هذا صحيح ، ولكن الفرار داخل حدود الاتحاد السوفيتى شىء ، وعبور هذه الحدود شىء آخر .. صدقنى يا فتى .. ما أن يبلغ (أدهم صبرى) حدود الاتحاد السوفيتى ، من أية نقطة ، حتى تبدأ المعركة .

وتنهد مرة أخرى ، مستطردًا :

ـ المعركة الحقيقية ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يتطلع فى دهشة إلى (بوشكا) و (ناديا) ، قبل أن يقول :

ـ شقيقتك ؟!..

أومأت (بوشكا) برأسها إيجابًا ، وترقرقت فى عينيها دمعة كبيرة ، وهى تقول :

ـ نعم أيها الوسيم .. كان هذا جزءًا من الصفقة .. أن يرفع المسئولون أيديهم عنا ، ويسمحون لأمى بالعمل ، لإطعام أفواه أطفالها الجائعين ، مقابل انضمام الابنة الكبرى إلى فرق التدريب الخاصة ، التى تصنع منها فى النهاية وحشا بلا رحمة ، تقتصر مهمته على القتل والتدمير .

التفتت إليها (ناديا) فى وحشية ، وهى تقول :

ـ اصمتى أيتها الخائنة .. إنك تسيئين إلى الدولة ، التى تبذل قصارى جهدها لترعى مواطنيها ، وتمنحهم متطلباتهم الأساسية ، دون أن يضطروا إلى الخضوع لرأسمالى بشع حقير ، يسعى لاستغلالهم وتكوين ثروات طائلة على حساب عملهم ومجهوداتهم .

هتفت بها (بوشكا) :

- وماذا عن الطموح ؟.. هل نسيت القاعدة هنا ؟.. كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته .. إنهم يطالبونك هنا ببذل أقصى ما يمكنك من جهد ، مقابل الحد الأدنى من الحياة .. لقد فهمت الحياة بشكل عكسى يا (ناديا) .. الاستغلال الحقيقى يحدث هنا لاهناك .. إنهم يستنزفون المواطن العادى ، ليرفلوا هم فى الرفاهية والترف .. صدقينى .. لقد رأيت هذا بنفسى .

صرخت بها (ناديا) :

- اخرسى .. أنت خائنة .. خائنة .

جذب (أدهم) (بوشكا) ، وهو يقول :

- هيًا بنا .. ليس لدينا وقت كاف ، لمناقشة أوجه الاختلاف الجوهرية ، بين الرأسمالية والشيوعية .

ألقت (بوشكا) نظرة أخيرة على (ناديا) ، وقالت :

- الوداع .. الوداع يا شقيقتى اللعينة .

صرخت بها (ناديا) :

- اذهبى أنت وهذا الجاسوس إلى الجحيم .

أولتها (بوشكا) ظهرها ، واتجهت مع (أدهم) إلى الهليوكوبتر ، وأدار (أدهم) محرّكاتها ، و(ناديا) تواصل صراخها :

- لاتتصوّر أنك ستعبر الحدود بسهولة لمجرّد أنك تستقل هليوكوبتر حربية .. إنهم سيلحقون بك ، وسينسفونك نسفًا .

ولكن (أدهم) تجاهلها تمامًا ، وارتفع بالطائرة ، ثم انطلق بها مبتعدًا ، وهى تصرخ :

- أقسم لك إنك لن تربح .. أقسم لك .

رأته يختفى فى الأفق ، وهو ينطلق بأقصى سرعة ، فانعقد حاجباها فى غضب هادر ، ثم قالت فى عصبية :

- إنه يتصوّر نفسه ذكيًا ، ولكنه غبى .. أغبى جاسوس رأيته فى حياتى كلها ، وإلا لما قيّد معصمىّ أمام جسدى ، بدلًا من أن يقيدهما خلفى .

ومالت إلى الأمام ، لتضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى فى السيارة ، وقالت فى صوت يموج بالانفعالات :

- إلى كل الوحدات .. نداء إلى كل الوحدات .. الجاسوس الهارب استولى على هليوكوبتر حربية ، وهو ينطلق بها نحو (أستونيا) ، فى محاولة لعبور البحر البلطى إلى (ستوكهولم) .. أكرر .. الجاسوس الهارب يتجه بهليوكوبتر حربية إلى (أستونيا) .. اتخذوا كل الإجراءات اللازمة لاعتراض طريقه ..

وتراجعت فى حدة ، متطلّعة إلى الأفق ، حيث اختفى (أدهم) ، وقالت فى عصبية ، لم تعرف طريقها إليها ، قبل هذا اليوم :

- هيًا .. واصل طريقك أيها الجاسوس ، وستدرك بعد فوات الأوان أن الرابح الحقيقى هو من يربح الجولة الأخيرة .. هل تسمعنى ؟.. من يربح الجولة الأخيرة .

وتلاشت صرختها هذه المرّة ، وسط الثلوج :

★ ★ ★

« .. خطأ .. أكبر خطأ .. »

نطقت (بوشكا) هذه العبارة فى حنق ، وهى تجلس إلى جوار

(أدهم) داخل الهليوكوبتر ، فسألها هذا الأخير ، دون أن يلتفت إليها :

- ماهو الخطأ ؟

قالت فى عصبية :

- ما فعلته .

ابتسم وهو يسألها :

- وماالذى فعلته بالضبط ؟

لوّحت بذراعها ، قائلة :

- لقد شرحت لها كل شىء .. اتجاهنا ، ووجهتنا ، وحتى النقطة التى ننوى عبور الحدود منها .. أهذا ما علموك إياه ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

- أهذا هو الخطأ إذن ؟

هتفت :

- وهل تحتاج إلى ماهو أكثر من هذا ؟.. إنها ستجد حتمًا وسيلة للاتصال بهم ، وستبلغهم بكل شىء .. إنك لا تعرف شقيقتى (ناديا) كما أعرفها .. لقد جعلوا منها شيطانة حقيقية .

بدا صوته لا مباليًا ، وهو يقول :

- وماذا سيفعلون ؟ عندما تبلغهم هذه الشيطانة ماسمعته منى ؟

قالت فى عصبية :

- سيكثفون قوتهم وجهودهم ، لملاقاتك فى (أستونيا) ، وربّما وجدنا سلاح الطيران كله يحيط بنا هناك .

ابتسم أكثر ، وهو يقول :

- عظيم .

التقى حاجباها ، وهى تلتفت إليه فى دهشة ، وقالت :

- ما الذى يدعوك إلى الابتسام هكذا ؟

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، قبل أن يقول :

- إننى أحاول أن أتخيل وجوههم ، عندما يطول بهم الانتظار فى (أستونيا) ، دون أن نصل إلى هناك .

هتفت :

- هل تعنى أن ...

قاطعها ضاحكًا :

- بالطبع ياعزيزتى (بوشكا) .. هل تصوّرتنى ساذجًا إلى هذا الحد ؟.. لماذا إذن تعمّدت أن أقيد معصمى شقيقتك العزيزة أمامها ، بدلًا من أن أقيدهما خلف ظهرها ؟.. لقد وضعتها بنفسى داخل مقصورة السيارة أيضًا ، وأمام جهاز الاتصال اللاسلكى مباشرة .. فلماذا - فى رأيك - فعلت كل هذا ؟. إننى أمنحها الفرصة للاتصال بكل من يمكنها الاتصال به ، وتحذيرهم من محاولة فرارى عبر (أستونيا) .. صدقينى يا (بوشكا) .. إننى أجعلهم يتصوّرون أنهم هم الذين يديرون اللعبة ، فى حين أننى أنا الذى أديرها فى الواقع .

قالت فى حرارة :

- إذن فلسنا نتجه إلى (أستونيا) .

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- مطلقًا .

ثم أضاف بابتسامة ساخرة :

- إننا نتجه إلى نفس الهدف الأوّل .. إلى (فنلندا) .

صفقت بكفيها فى جذل ، وهى تقول :

- عظيم .. عظيم .. أنت عبقرى أيها الوسيم .

ثم ذهب حماسها ، وتلاشت سعادتها بغتة ، وهى تستطرد :

- ولكن .. هل سيسمحون لنا بعبور الحدود ؟.. أعنى ألن تطاردنا الطائرات الحربية ، أو تطلق علينا وسائل الدفاع الجوى الصواريخ والنيران ؟

هزَّ كتفيه ، وقال :

- ربما وجدنا وسيلة لمنعهم من هذا .

سألته فى لهفة .

- كيف ؟!

أجابها فى غموض :

- فلنترك هذا لوقته .

ران عليهما الصمت طويلًا بعدها ، واحتضنت (بوشكا) كلبتها (ميرا) ، التى استسلمت لنوم عميق بين ذراعيها ، فأسبلت هى جفنيها بدورها ، وغمغمت :

- كم أحتاج إلى النوم .

قال (أدهم) فى خفوت :

- ولماذا تقاومين ؟

تمتمت فى تهالك :

- أنت على حق .. لماذا أقاوم ؟

لم تدر ماذا أصابها ، فور نطقها لهذه العبارة ..

لقد قالتها ، وهوت فى أعماق بحر النوم السحيقة ..

هكذا بلا مقدمات ..

وعندما استيقظت ، بعد مايقرب من الساعتين ، كان (أدهم) مايزال جالسًا إلى جوارها ، يقود الهليوكوبتر فى صمت ، فنهضت جالسة ، وهى تتثاءب قائلة :

- هل استغرقت فى النوم ؟

أجابها مبتسمًا :

- نعم .. لقد تركتك تنامين طوال ساعتين تقريبًا .

اعتدلت فى مقعدها ، وتطلعت أمامها ، محاولة اختراق حجب الظلام ، قائلة :

- وأين نحن الآن ؟

أجابها فى هدوء :

- بالقرب من خليج (فنلندا) .. هذه الأضواء التى ترينها بأسفل ، هى مشارف (لينجراد) .

هتفت فى لهفة :

- إذن فقد اقتربنا .

ثم أخرجت علبة أدوات زينتها من جيب المعطف ، وهى تستطرد :

- من حسن الحظ أننى أحضرت هذه معى ، ونقلتها إلى ذلك المعطف الرث ، عندما تخليت عن معطفى الثمين .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

- هل تهتمين بزينتك إلى هذا الحد ؟

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ بالطبع .. إنها جزء من رأس مالى .

وأخرجت من العلبة مرآة صغيرة ، وضعتها أمام وجهها ، ثم شهقت فى ذعر :

ـ ربّاه !.. هل رأيت ما أصابنى بسببك ؟.. لقد زال طلاء الشفاه ، وأفسدت المياه شعرى الجميل ، وانتفخت عيناى ، وأحاطت بهما هالات سوداء ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، وهى تحدّقه فى المرآة ، التى نقلت إليها صورة تلك الأجسام ، التى تقترب من الهليوكوبتر ..

وكانت هذه الأجسام عبارة عن طائرات ..

طائرات حربية سوفيتية .

★ ★ ★

ظلّت (بوشكا) جامدة لحظات ، تحدّق فى الصورة المنعكسة على المرآة ، قبل أن يصدر صوت صارم ، عبر جهاز اللاسلكى بالهليوكوبتر ، قائلًا :

ـ إلى الهليوكوبتر الدخيلة .. حدّد هويتك ووجهتك ، وإلا اضطررنا إلى إطلاق النار .

وعندئذ شهقت (بوشكا) ، وهتفت فى ارتياع :

ـ إنهم خلفنا مباشرة .

ولكن (أدهم) بدا شديد الهدوء ، وهو يقول :

اطمئنى .. لا داعى للقلق .

ثم التقط مسماع جهاز الاتصال اللاسلكى ، وقال :

ـ من الهليوكوبتر إلى المقاتلات الحربية .. هنا الجنرال (تينو فاسيلوف) ، رئيس إدارة المخابرات السوفيتية .. هذه مهمة رسمية .. حذار من اعتراض طريق الهليوكوبتر .. أكرّر .. إنها مهمة رسمية ، تتعلق بأمن الدولة .

حدّقت (بوشكا) فى وجهه بذهول ، وهى تغمغم :

ـ مستحيل !

فذلك الصوت الذى سمعته ، والذى انبعث من بين شفتى (أدهم) ، لم يكن هو صوته الذى تعرفه ..

لقد كان صوت (فاسيلوف) ..

الجنرال (فاسيلوف) بنفسه .

ولم تمض لحظات ، حتى عاد الصوت الصارم يقول، عبر الجهاز :

ـ من السلاح الجوى للحدود إلى الهليوكوبتر .. أنت تقترب من حدودنا الإقليمية أيها الرفيق الجنرال .. نريد تأكيدًا للهوية والمهمة .

أجابه (أدهم) على الفور ، مستخدمًا صوت (فاسيلوف) :

ـ أنا الجنرال (فاسيلوف) .. رقمى الكودى السرى (٣١٢٢٢٣) .. تحت حرفى (ت . ف) .. أما بالنسبة للمهمة ، فيكفى أن تعلم أنها مهمة بالغة السرية ، وتخص أمن الدولة الأعلى .

صمت صاحب الصوت الصارم قليلًا ، ثم قال :

ـ سنعرض الأمر على القيادة أيها الرفيق الجنرال .

وهناك ، فى مبنى قيادة السلاح الجوى للحدود ، استمع قائد السلاح إلى ذلك الحوار ، وقال فى اهتمام :

- إنه صوت (فاسيلوف) .. لايمكننى أن أخطئ تحديده .. لقد كنا زميلين فى سلاح الطيران .. ثم إن هذا بالفعل رقمه الكودى السرى ، والحرفين اللذين ذكرهما يعنيان أنه ليس مهدَّدًا ، أو مضطرًا لقول هذا .

قال معاونه :

- هل نسمح له بعبور الحدود إذن أيها الرفيق القائد ؟

مطَّ الرجل شفتيه لحظة ، ثم قال :

- هل سجِّلت المحادثة ؟

أومأ المعاون برأسه إيجابًا ، فهزَّ قائد السلاح كتفيه ، وقال :

- اتركه يرحل إذن ، وسيتحمَّل هو المسئولية الكاملة لأى خطأ ، فلست مستعدًا للتعرّض إلى المساءلة ، لو أننى أعقت مهمة تتعلق بأمن الدولة بالفعل .

ولم تمض لحظة أخرى ، حتى تلقَّى (أدهم) رسالة عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، تقول :

- تمت الموافقة على عبور الحدود .

وهنا استدارت المقاتلات الحربية ، وتراجعت مبتعدة ، فصرخت (بوشكا) فى سعادة :

- لقد فعلتها أيها الوسيم .. لقد حقَّقت معجزة جديدة .

وصفَّقت بكفيها فى فرح طفولى ، مستطردة :

- لقد عبرنا الحدود .. عبرناها بالفعل .

ابتسم (أدهم) فى ارتياح ، وهو يقول :

- نعم يا (بوشكا) .. لقد غادرنا (الاتحاد السوفيتى) منذ لحظات .

التقطت علبة أدوات زينتها بسرعة ، وقالت :

- ينبغى أن أهتم بزينتى إذن ، فليس من اللائق أن نذهب إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنا بهذه الهيئة المزرية .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

- ولماذا نذهب إلى هناك ؟

ابتسمت فى دلال ، وهى تقول :

- من الطبيعى أن نفعل ، فهناك سيحسنون استقبالنا ، وأحصل أنا على حق اللجوء السياسى إلى الولايات المتحدةَ الأمريكية .

قال ساخرًا :

- وماذا لو رفضوا منحك حق اللجوء ؟

مطَّت شفتيها ، لتصبغهما بطلاء شفاه وردى ، وهى تقول :

- إنه أسخف مزاح سمعته فى حياتى .. أنت تعلم أنهم لن يرفضوا منحى هذا الحقّ ؟

قال مبتسمًا :

- ولماذا ؟.. ألأنك ممثلة الاتحاد السوفيتى الأولىَ ؟

التفتت إليه فى دهشة ، وقالت :

- كلَّا بالطبع .. إنهم سيمنحونى إياه ؛ لأن هذا ما وعدونى به .. إنها مكافأة نهاية خدمة طبيعية .. ألست أعمل لحسابهم ؟

وكانت مفاجأة جديدة لـ (أدهم) ..

مفاجأة مذهلة .

* * *

٢٣ - إلى (سيبيريا) ..

زفرت (ناديا) فى عصبية وتوتر ، وهى تجلس داخل مقصورة السيارة ، وسط الظلام والثلوج ، وجاهدت مرة أخرى للتخلص من قيودها ؛ فلما عجزت عن هذا عادت تضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وتقول فى حدة :

- هنا (ناديا مينوفيتشى) .. لماذا لم يحضر أحدكم لإخراجى من هنا ؟

أجابها صوت صارم عبر جهاز الاتصال :

- إنهم فى الطريق إليك بالفعل .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى لاحت لها أضواء سيارة تقترب من بعيد ، فقالت قبل أن تنهى الاتصال :

- نعم .. إننى أراهم .

جلست تتابع الأضواء ، التى اقتربت منها فى سرعة ، ثم توقفت على قيد متر واحد من سيارتها ، ورأت أمامها سيارة كبيرة ، قفز منها عدد من الجنود المسلحين ، أحاطوا بسيارتها ، وانفصل أحدهم ليفتح باب المقصورة ، ويجذبها خارجها ، فقالت فى غضب صارم :

- رويدك أيها الرفيق الجندى .. إنك تتعامل مع ضابط سوفيتى .

أوقفها الجندى أمام السيارة ، وتراجع لينضمّ إلى زملائه ، فصاحت به :

- حل قيودى أولًا أيها الغبى .

سمعت صوتًا صارمًا يقول من خلفها :

- ليس الآن ، أيتها الرفيق (ناديا) .

التفتت إلى الضابط السوفيتى ، الذى جاء مع الجنود ، وقالت فى صرامة :

- بل الآن أيها الرفيق الضابط . هذا أمر .. إننى أحمل تفويضًا عامًا شاملًا ، من الجنرال (فاسيلوف) ، و ...

قاطعها فى برود :

- لقد تم إلغاء هذا التفويض .

حدقت فى وجهه بدهشة ، ثم قالت فى حدة :

- ماالذى يعنيه هذا ؟

اعتدل ، وهو يقول :

- أيتها الرفيق (ناديا) .. لدى أمر مباشر ، من الرفيق الرئيس ، بإلقاء القبض عليك .

اتسعت عيناها لحظة فى دهشة ، قبل أن تهتف :

- بأية تهمة ؟!

قال فى صرامة :

- الخيانة العظمى .

تراجعت كالمصعوقة ، ثم صاحت :

- كذب .. أنت كاذب ومخادع .. أريد الجنرال (فاسيلوف) .. هو سيخبركم بكل شئ .. اتصل به فورًا .

بدت على شفتيه ابتسامة خبيثة ، وهو يقول :

- لست أعتقد أن الجنرال (فاسيلوف) سيهتم كثيرًا بتبرئتك الآن ، فسوف يجند كل مالديه لحماية نفسه فحسب .

تراجعت مرة أخرى فى حدة ، واتسعت عيناها بشدة ..
لقد فهمت ما يعنيه ..
وهذا أسوأ ما فى الأمر .

★ ★ ★

شحب وجه الجنرال (فاسيلوف) فى شدة ، وهو يجلس أمام الرئيس السوفيتى ، ولوّح بكفه ، قائلًا :

- أى قول هذا أيها الرفيق الرئيس ؟.. هل تتهمنى أنا (تينوفاسيلوف) بالخيانة العظمى ؟

أجابه الرئيس فى برود :

- القرائن والدلائل هى التى تتهمك أيها الرفيق الجنرال .. فلماذا احتفظت فى مكتبك بهذه الوثائق الخطيرة ؟

قال (فاسيلوف) فى حدة :

- لم أكن أحتفظ بها .. لقد أحضرها ذلك الحقير (أندريه رابين) ، فى محاولة لإقناعى بصداقة الإسرائيليين لنا .

سأله وزير الدفاع :

- وهل يمكن أن يشهد (أندريه) بهذا ؟

عاد الشحوب إلى وجه (فاسيلوف) ، وهو يقول :

- مستحيل ! .. لقد .. لقد مات .

تبادل وزير الدفاع نظرة قصيرة مع الرئيس ، ثم سأله الأخير :

- ولماذا أسندت إلى حارستك مهمة مطاردة ذلك الجاسوس يا (فاسيلوف) ؟.. لماذا لم تلجأ إلى فرقة خاصة كالمعتاد ؟

أجابه (فاسيلوف) فى عصبية :

- تصوَّرت أنها تساوى وحدها فرقة كاملة .. ثم أننى أثق بها ثقة مطلقة .

غمغم الوزير :

- حقًا ؟!.. كيف تفسّر لنا هذه المحادثة إذن ؟

قالها وضغط زرّ جهاز التسجيل ، الموضوع أمامه على مكتبه ، فانبعث منه صوت (ناديا) ، وهى تقول :

- الرجل ليس عاديًا .. إنه يقاتل كفرقة حربية كاملة ، وأنا فى طريقى إليه ، وسينتهى كل شىء على مايرام .

ثم سمع تسجيلًا كاملًا ودقيقًا ، للمحادثة الهاتفية التى دارت بينه وبين (ناديا) ، قبل أن يوقف الرئيس جهاز التسجيل ، وهو يقول :

- كيف تبدو لك هذه المحادثة ، أيها الرفيق الجنرال ؟.. لقد استمعنا إليها ثلاث مرات ، أنا والرفيق وزير الدفاع ، ووجدنا أن معناها الوحيد هو أنك وحارستك كنتما تعملان لحماية ذلك الجاسوس ، لا للإيقاع به .

صرخ (فاسيلوف) :

- مستحيل أيها الرفيق الرئيس !.. لقد أسأت فهم المحادثة تمامًا .

تدخّل وزير الدفاع ، قائلًا :

- وماذا عن محاولة حارستك لتضليلنا ؟.. لقد أبلغت كل الوحدات أن ذلك الجاسوس فى طريقه إلى (أستونيا) ، ثم منحته طائرة هليوكوبتر خاصة ، حصلت عليها من القاعدة الجوية ، بتفويض خاص منك ، وهى تعلم أنه لن يتجه إلى (أستونيا) ، بل إلى خليج (فنلندا) ؟!

صاح (فاسيلوف) :
ـ ولماذا تركوه يعبر الحدود هناك ؟
أجابه الرئيس :
ـ أنت أمرتهم بذلك ، ولدى تسجيل واضح لهذا .
زاغت عينا (فاسيلوف) ، وهو ينقل بصره بين الرئيس ووزير الدفاع ، ثم قال فى حدة :
ـ مستحيل !.. هذه خدعة .. خدعة حقيرة .. لست أذكر أبدًا أننى أصدرت مثل هذا الأمر .. سلوا (ناديا) .
تبادل الرئيس والوزير نظرة أخرى ، ثم قال الأوَّل فى صرامة :
ـ (ناديا) الآن فى طريقها إلى (سيبيريا) ، وسأرسلك للحاق بها هناك ، فثلوج (سيبيريا) هى أفضل وسيلة ؛ لإنعاش الذاكرة الضعيفة .
صرخ (فاسيلوف) :
ـ لا أيها الرفيق الرئيس .. إنك لن تفعل بى هذا .
ضغط الرئيس زرًا فوق مكتبه ، وهو يقول :
ـ هناك أمور لايمكن التهاون بشأنها أيها الرفيق (فاسيلوف) .
وإثر ضغطته ، دخل خمسة من الجنود إلى حجرته ، وصوَّبوا أسلحتهم إلى (فاسيلوف) ، الذى قال فى انهيار :
ـ أرجوك أيها الرفيق الرئيس .. أرجوك .
أشار الرئيس إلى الرجال فى صرامة ، فحملوه عنوة ، وكمَّموا فمه ، وراحوا يجرونه إلى الخارج ، وما أن أغلقوا الباب خلفهم ، حتى غمغم الوزير :

ـ (تينو فاسيلوف) .. من يصدِّق هذا ؟
مطَّ الرئيس شفتيه ، وقال :
ـ لم يعد هناك مايدهشنى .. ثم إننا لم نفقد (فاسيلوف) وحده هذه المرة أيها الرفيق الوزير .. لقد خسرنا كل شبكتنا فى (مصر) ، وهذه خسارة كبيرة .
وشرد ببصره لحظات ، قبل أن يهزَّ رأسه فى أسى ، مستطردًا :
ـ بل هى كارثة .. كارثة فادحة .

★ ★ ★

حدَّق (أدهم) فى وجه (بوشكا) فى دهشة ، وهو يهتف :
ـ أنت يا (بوشكا) ؟!.. أنت جاسوسة أمريكية ؟
عقدت حاجبيها ، وهى تقول :
ـ لماذا تستخدم هذا المصطلح السخيف ؟.. إننى أتعاون مع الأمريكيين فحسب .. كنت أصادق القادة السوفيت ، وأقيم لهم الحفلات الأنيقة ، ثم أسجل أحاديثهم كلها ، وأنقل التسجيلات إلى رجل بارد الملامح ، وهو يتولَّى مهمة نقلها إلى الأمريكيين .
أطلق (أدهم) ضحكة طويلة ، قبل أن يسألها :
ـ ومنذ متى تعملين لحساب الأمريكيين ؟
تطلَّعت إليه فى شك ، وهى تقول :
ـ ألا تعرف حقًّا ؟.. إننى أعمل معكم منذ عشرة أعوام .
أطلق ضحكة أخرى ، وهو يقول :
ـ تقصدين معهم :
جاء دورها لتحدِّق فى وجهه ، قبل أن تهتف :

ـ معهم ؟!.. ألست أمريكيًا ؟

هزّ رأسه نفيًا ، وقال فى سخرية :

ـ لا .. لست أمريكيًا أيتها الرفيق (بوشكا) .. إننى مصرى .. مصرى أبًا عن جد .

هتفت ذاهلة :

ـ مستحيل !

ثم استدركت بسرعة :

ـ أعنى أننى أظن منذ البداية أنك أمريكى .

وابتسمت متابعة فى دلال :

ـ ولكنك رائع فى كل الأحوال .. هل تدرك أنك فعلت كل هذا ، فى أقل من أربع وعشرين ساعة ؟

غمغم مبتسمًا :

ـ أشكرك .

أتمّت زينتها فى اهتمام ، ثم سألته فى خفوت :

ـ قل لى أيها الوسيم ، أيًا كانت جنسيتك : هل سنلتقى مرة أخرى ؟

تطلّع إليها مبتسمًا ، وهو يقول :

ـ لا .. لا أعتقد هذا .

عقدت حاجبيها ، وهى تسأله :

ـ لماذا ؟.. ألن تأتى لزيارتى ؟.. إنك تروق لى ، و ...

قاطعها ضاحكًا :

ـ للأسف يا (بوشكا) .. لست الطراز الذى أفضله .

صرخت :

ـ ماذا ؟.. ماذا تقول أيها الوقح ؟.. أنا لست الطراز الذى تفضّله ؟!.. هل تعلم أن نصف سكان الأرض يتمنون أن أطلب منهم مقابلتى ؟.. بل إنهم يطيرون سعادة ، إذا ما منحتهم ابتسامة واحدة .

قال فى سخرية :

ـ أنا من النصف الآخر إذن .

هتفت :

ـ أيها الـ ...

قبل أن تتم هتافها ، انبعث صوت عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، يقول :

ـ حدّد هويتك أيها الهليوكوبتر .. إنك تدخل المجال الجوى الفنلندى .

قال (أدهم) فى سرعة :

ـ الهليوكوبتر غير مسلّحة ، ونحن نطلب الإذن بالهبوط ، ونرجوكم الاتصال بالسفارة المصرية والسفارة الأمريكية على الفور .

مضت لحظة من الصمت ، ثم عاد ذلك الصوت ينبعث من جهاز الاتصال ، قائلًا :

ـ حدّد اسمك وهويتك ، وهويّة كل الركّاب معك .

أجابه (أدهم) :

ـ اسمى (أدهم صبرى) .. مصرى .. وبصحبتى راكبة واحدة ، وهى الممثلة السوفيتية (بوشكا) .

قالت (بوشكا) فى حدة :

ـ لاتنس (ميرا) .

ابتسم قائلًا :

ـ وكلبة صغيرة جميلة .

ضمّت (بوشكا) (ميرا) إلى صدرها فى اعتداد ، فى حين جاء ذلك الصوت ليقول فى اهتمام :

ـ هناك بالفعل مندوبان ، أحدهما من السفارة المصرية ، والآخر من السفارة الأمريكية ، وهما ينتظرانكما .. إننا نمنحكما الإذن بالهبوط .

تنهّد (أدهم) فى ارتياح ، وهو ينهى الاتصال ، ويقول لـ (بوشكا) :

ـ الآن فقط يمكنك القول بأننا قد نجونا .

هزّت كتفيها ، ومطّت شفتيها ، قائلة :

ـ لن أتحدّث إليك .

ثم استدركت فى سرعة ، وهى تتطلّع إليه فى دلال :

ـ سأنتظر حتى تغير رأيك الخاص بطرازى .

انفجر ضاحكًا هذه المرة ، وشاركته هى ضحكته فى مرح صاف ، والهليوكوبتر تهبط بهما نحو (هلسنكى) ..

ونحو الحرية ..

والنصر .

* * *

٢٤ ـ الختام ..

شدّت (منى) قامتها ، وهى تنهض واقفة ، وقالت لـ (قدرى) :

ـ إننى أعلم ما حدث بعد ذلك ، فما زلت أذكر تلك الضجة ، التى أحدثها وصول (بوشكا) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإعلان كونها جاسوسة أمريكية منذ عشر سنوات .

قال (قدرى) :

ـ أما أنا ، فأذكر ما حدث ، عندما عاد (أدهم) مع القائمة و (الميكروفيلم) إلى هنا .. لقد كانت قضية ضخمة ، تحدّثت عنها صحف العالم كله طويلًا ، عندما تم إلقاء القبض على عشرات من الجواسيس والعملاء السوفيت ، فى عملية عُرفت أيامها باسم (الحصاد) .. لقد تلقّى الشكر من رئيس الجمهورية مباشرة .

ابتسمت ، قائلة :

ـ إنه يستحقه .

ثم استطردت فى حماس :

ـ ولكن هل لاحظت أن (أدهم) لم يهدأ لحظة واحدة ، طوال هذه العملية ، وأن كل هذه الأحداث ، على الرغم من كثرتها وعنفها ، قد دارت خلال أربع وعشرين ساعة أو أقل ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ هذا هو (أدهم) .

ابتسمت فى هيام ، مغمغمة :

ـ نعم .. هذا هو (أدهم) .
ثم سألته :
ـ ولكن ماذا فعلت (بوشكا) ؟ بعد ذهابها إلى الولايات المتحدة .
أجابها فى بساطة :
ـ مازالت تعمل فى السينما .. ولقد أرسلت عدة بطاقات تهنئة إلى (أدهم) ؟ طوال الأعوام الماضية، فى ذكرى صراعهما المشترك .
انعقد حاجبا (منى) ، وهى تقول :
ـ وهل أرسل إليها (أدهم) بطاقات مماثلة ؟
ضحك وهو يقول :
ـ كلّا بالطبع .. ألم يخبرها بنفسه ، أنها ليست الطراز الذى يفضله ؟
ثم غمز بعينه، مستطردًا :
ـ أنت وأنا نعلم أنه يفضّل طرازًا آخر .
تخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :
ـ نعم .. أعتقد هذا .
ثم أطلقت ضحكة قصيرة ، لتتغلب بها على خجلها ، قبل أن تلوّح بيدها ، قائلة :
ـ أشكرك يا (قدرى) .. لقد قضيت معك وقتًا ممتعًا .. إلى اللقاء عندما تحفظ مغامرة جديدة ، من مغامرات (أدهم صبرى) .
لوّح بيده ، وهو يبتسم قائلًا :
ـ فى القريب بإذن الله .

ولم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى ذابت ابتسامته ، وهو يغمغم :
ـ صدقينى ياعزيزتى (منى) .. هذه هى المرة الأولى ، التى أختلف فيها مع (أدهم) .
وفتح درج مكتبه ، والتقط منه صورة صغيرة ، تطلّع إليها فى هيام ، مستطردًا :
ـ أنا أفضّل هذا الطراز .
كانت صورة لممثلة أمريكية شهيرة ، سوفيتية المنشأ .. صورة (بوشكا) .

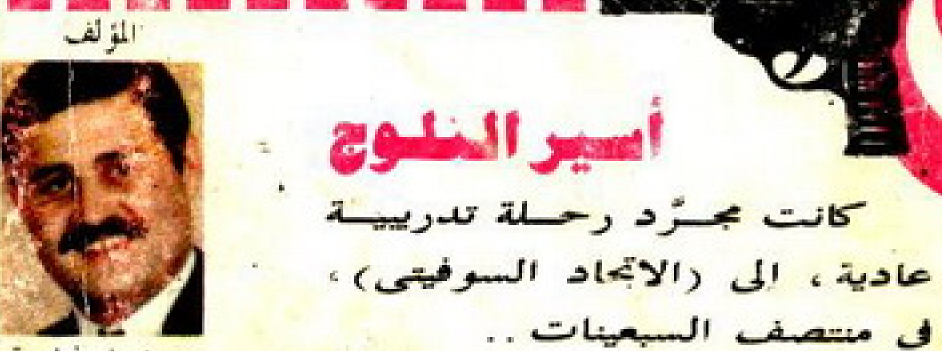
* * *

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

أسير الثلوج

سلسلة الأعداد الخاصة



أسير الثلوج

كانت مجرَّد رحلة تدريبية عادية ، إلى (الاتحاد السوفيتى) ، فى منتصف السبعينات ..

ولكن (أدهم) حوَّلها إلى كارثة ..

وثارت ثائرة السوفيت ، وراحوا يطاردون (أدهم) بكل الوسائل الممكنة ، وهو يقاتلهم بكل قوته ومهارته ، وقد انضمّت إليه الممثلة السوفيتية (بوشكا) ..

ولم يكن من السهل أن يقاتل (أدهم) وحده قوات دولة بأكملها ، خاصة وهو يشعر أنه أسير فى أرضها .. أسير الثلوج .

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع